١٠٠
قِصة مِن نهايةِ الظالمين



هاني الحاج

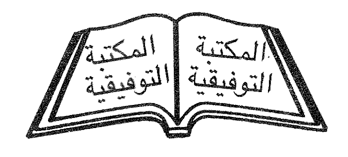
المكتبة التوفيقية

١٠٠

قِصَّة مِنْ نِهَايَةِ الظالمين

تأليف

هاني الحاج



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله المبدئ المعيد، العزيز الحميد، ذى العفو الواسع، والعقاب الشديد، أحمده وهو أهل الحمد والتحميد، والشكر لديه من أسباب المزيد، سبحانه وتعالى قسّم الخلق قسمين وجعل لهم منزلتين، فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، ومن وفقه للخير فهوخ الرشيد.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد ورسوله.

أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾[١].

قال السعدى: هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين.

يقول تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾ حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون فى البلاد، آمنين مطمئنين، فليس فى هذا ما يدل على حسن حالهم، فاء الله يُملى للظالم ويمهله، ليزداد إثمًا، حتى إذا أخذه، لم يفلته ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾[٢]، والظلم ههنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربه، وظلمه لعباد

(١) سورة إبراهيم: ٤٠، ٤١.
(٢) سورة هود: ١٠٢.

الله، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى، من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدى الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص، ولا ملجأ. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها قد غُلت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك، رؤوسهم، ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم، وحزن وقلق. اهـ.

فيا مبادراً بالظلم ما أجهلك، إلى متى تغتر بالذى أمهلك، كأنه قد أهملك، فكأنك بالموت وقد جاء بك وأنهلك، وأُذن بالرحيل وقد أفزعك الـمَلَك. وأسرك البلا بعد الهوى وعقلك، وندمت على وزر عظيم قد أثقلك، يا مطمئنًا بالفانى ما أكثر زلك، ويا معرضًا عن النصح كأن النصح ما قيل لك.

أين من حصّن الحصون المشيدة واحترس، وعمّر الحدائق فبالغ وغرس، ونصب لنفسه سرير العز وجلس، وبلغ المنتهى ورأى الملتمس وظن فى نفسه البقاء ولكن خاب الظن فى النفس أزعجه والله هازم اللذات واختلس ونازله بالقهر فأُنزل عن الفرس، ووجه به إلى دار البلاء فانطمس.

فاشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتى على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير ﴿ذلك يوم التغابن﴾، ﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾.

فخفِ القصاص غداً إذا وفيت ما
كسبت يداك اليوم بالقسطاسِ

في مـــوقف مـــا فيـــه إلا شـــاخص
أو مـــــهطـع أو مـــــقنـع للـراسِ
أعـضـاؤهم فـيـه الشـهـو وسـجنهم
نار وحـكمــــهم شـــديـد البـــاسِ
إن تمطل اليـــوم الحــقـوق مع الغنى
فـــغـــداً تؤديـهـــا مع الإفـــلاسِ

وكتبـــه
هانى الحـــاج

عملى فى الكتاب

لقد جمعت هذه القصص نزولاً على رغبة الأستاذ/ عبد الحميد صاحب المكتبة التوفيقية. وذلك بما فيها من شرور أصحابها وبما كان من عاقبة ذلك على أصحابها لتحصل العبرة للمعتبرين، والازدجار للظالمين، والموعظة للمتقين.

وليس لى فى إعداد الكتاب من الافتخار، أكثر من حسن الاختيار، فإن استجاد قارئه ما استجدت، واستحسن ما أوردته، ووجد فى ثماره المتعة بعض ما وجدت، أكون قد وفقت إلى ما قصدت، وبلغت ما أردت[1].

---

(١) وقد كان جل اعتمادى على «الجزاء من جنس العمل» للدكتور سيد حسين العفانى وهو كتاب جامع فيه الكثير من الفوائد. وأيضًا «قصص وعبر» ليوسف العجلان. وأيضًا «التحذير من سوء الخاتمة» للسحيبانى.

[١] أشقى الخلق (إبليس اللعين)[١] زعيم الهالكين

إبليس كما هو معلوم للجميع خلق من النار قال تعالى: ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾[١]. وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم**»[٢].

والنصوص تثبت أن إبليس -لعنه الله- من الجن. قال تعالى: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾[٣].

وعن ابن عباس كان اسم (إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل) وكذلك قال سعيد بن جبير، وقال الحسن البصرى «لم يكن من الملائكة طرفة عين وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر» فلما أراد الله تعالى خلق آدم ليكون فى الأرض هو وذريته ومن بعده وصور جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجن وأكثرهم عبادة إذ ذاك يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك، وقال: أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت عليّ لأعصينك فلما أن نفخ الله فى آدم من روحه وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[٤]، فخالف أمر الله واعترض علىَ الرب عز وجل وأخطأ فى الأدب مع مولاه وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التى كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه ملخوق من نار وهم من نور فخانه طبعه فى أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله النار ورفض السجود لآدم -عليه السلام- فأهبط إبليس من الملأ الأعلى فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذءوماً مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس.

---

(١) سورة الحجر: ٢٧.
(٢) رواه مسلم.
(٣) سورة الكهف: ٥٠.
(٤) سورة الأعراف: ١٢.

فالطرد من رحمة الله كان الجزاء لعصيان أوامر الرب سبحانه وتعالى وجزاء الكبر والعجب وذلك لرفضه السجود كما أمر الله بدعوى أنه خير من آدم.

فطلب الإنظار إلى يوم القيامة وتوعد آدم -عليه السلام- وذريته كما فى سورة الأعراف «١٤، ١٨».

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال ابن كثير: إبليس -لعنه الله- حتى الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن.

فعن جابر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «**إن الشيطان يضع عرشه على الماء يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة يجئ أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذاوكذا فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئًا ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله. قال فيقربه ويدنيه ويقول نِعم أنت**»[1]. (نِعم) (بكسر النون) بمعنى أنت الذى تستحق الإكرام.

أما عن جزائه فى الآخرة كما قال الحسن: «إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبًا على منبر من نار فقال ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ**﴾ إلى قوله ﴿**وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ**﴾[2] قال: بطاعتكم إياى فى الدنيا فمصيره منبر من نار كما كان يضل الناس عن سبيل الله جزاءً وفاقًا»[3].

---

(١) رواه مسلم. (٢) سورة إبراهيم: ٢٢. (٣) الجزاء من جنس العمل.

[٢] نهايـة الطمع وعدم الرضا

وهذه قصة أول قاتل فى تاريخ البشـرية وانظر إلى حقارة الإنسان عندما تستولى علَيه الشهـوة وتتبلد مشاعره ويتَحجر قلبه ويموت ضمـيره فإنه يتحول إلى وحش كاسد وإلى ثعلب ماكر وإلى شيطان مريد.

فى البداية من هما قابيل وهابيل؟

قابيل كان رجلاً أنانيًا تملكت عبـادة الذات من نفسه فطمست على عينه وقلبه وكان يعمل (حراثًا) أى يشتغل بالزراعة.

هابيل: وهو أخوه من بطن ثانيـة وكان رجلاً طيبًا صـالحًا يحب الخير للغير عابداً لله، موقراً لأوامره وكان يعمل برعى الأغنام.

وكبر الأبناء وشب الإخوة فى رعاية أمهم حواء وأبيهم آدم.

عن سعيد بن المسيب. قال: إن الله أمر آدم أن يفرق فى النكاح من كل بطن هذا لتلك وتلك لهذا. . . .

امتثل آدم أمر ربه وأفـضى لقابيل وهابيل بما أمره الله إلا أن قابيل رفض ما قاله آدم، ولم يرض بهذا الزواج لأنه اعتـبر أن توأمه هابيل أقل جمالاً من توأمته وحسـد أخاه على الزواج من شقيقتـه (لوذا) ولم يرض بالقسم وجمح عن طاعة والده ولعـبت به نوازع الشر والفـساد ولعب به الحسـد ذات اليمين وذات الشمال بينما كان هابيل يحتفظ بالهدوء والسكينة والوقار وامتثل ما أمره به والده آدم.

وقال آدم لقابيل إن كنت لا ترض فقربا قـربانًا فمن يقبل قربانه فهى له أى الأخت الجميلة (لوذا).

فقُبل قربان هابيل وحسد قـابيل أخاه هابيل وانبعثت شروره وعندئذ قال لأخيـه هابيل: قُـبل قربانك ولم يقـبل قربانى لأقـتلنك فأجـابه هابيل ﴿لَئِن

بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾[١].

قال ابن عباس: خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر[٢] وبذلك صور له هابيل إشفاقه هو من جريمة القتل ليثنيه عمّا تراوده به نفسه وليخجله من هذا الذى تحدثه به نفسه تجاه أخيه المسالم الوديع التقى ﴿**فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين**﴾ ضربه بحجر وقيل بحديدة فقتله فخسر نفسه وخسر أخاه وخسر أباه وأمه. وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة وخسر آخرته.

قال عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- «إنا لنجد ابن ادم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة، العذاب عليه شطر عذابهم»[٣].

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل دمها لأنه كان أول من سن القتل**»[٤].

وعن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: «إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذى قتل أخاه، ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر وذلك أنه أول من سن القتل»[٥].

[٣] قوم نــــوح

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على الإسلام.

قال الحافظ:

---

(١) سورة المائدة: ٢٨، ٢٩.

(٢) تفسير ابن كثير ح٢ ص ٧١.

(٣) تفسير ابن كثير ح٢ ص٧٢.

(٤) صحيح - رواه الجماعة سوى أبى داود.

(٥) تفسير ابن كثير ح٢ ص٧٢.

وقصة الصالحين كانت مبدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- فى تفسير «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر» أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتَنَسَّخ العلم عُبدت.

فأرسل إليهم نوحًا أول رسول للبشر، وهو أحد أولى العزم من الرسل، ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب، ومتنوع الوسائل، فى دأب طويل، وفى صبر جميل، وفى جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عامًا.

وقد كان نوح مفصحًا مع هذا عن نذارته، مبينًا عن حُجته، لا يتمتم ولا يجمجم، لا يتلعثم فى دعوته، ولا يدع لبسًا ولا غموضًا فى صفة ما يدعو إليه، وهم لا يواجهونه إلا بإعراض واستكبار واستهزاء: ﴿**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾[1] وكان كلما انقرض جيل وصوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح ما عاش، ودائمًا ما بقى.

بعد كل هذا الجهاد، وبعد كل هذا العناء، وبعد كل هذا التوجيه، والتنوير، والإنذار، والإطماع، والوعد بالمال والبنين والرخاء، بعد هذا كله كان العصيان، وأوحى الله إلى نبيه نوح ما قصه فى كتابه: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[2] فدعا نوح على قومه: ﴿**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**﴾[3].

---

(١) سورة العنكبوت: ١٤. (٢) سورة هود: ٣٦.
(٣) سورة الصافات: ٧٥.

وأوحى الله إلى نبيه نوح: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(1) حتى ما تحمله أرحامهم إن قُدِّر لهم الخروج إلى الدنيا، لا يسوءنك فإن النصر قريب، والنبأ عجب عجيب.

وهنا دعا على قومه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(2).

وقال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(3).

قال العلامة الألوسي -رحمه الله-:

استهزءوا به لعمله السفينة؛ إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها، فتعجبوا من ذلك، وسخروا منه، وإما لأنه -عليه السلام- كان يصنعها فى برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضاحكون، ويقولون: يا نوح، صرت نجّارًا بعد ما كنت نبيًّا.

قال: إن تسخروا منا فى الدنيا، فإنا نسخر منكم فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا عند الغرق، وفى الآخرة عند الحَرَق.

وقال الشيخ محمد رشيد رضا:

نسخر منكم اليوم لجهلكم، وغدًا لما يحل عليكم، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل، وبما سيكون من عاقبة أمرنا، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذابه يذله، ويجلب له العار والتبار فى الدنيا، ويحل عليه عذاب مقيم بعد ذلك فى الآخرة.

اليوم لكم فرح وغدًا ترح، اليوم حبرة وغدًا عبرة، اليوم لطف وغدًا أسف، اليوم لقاء وغدًا بكاء، يوم ينكشف المستور عن المحذور!

---

(1) سورة هود: ٣٦. (2) سورة نوح: ٢٦، ٢٧.
(3) سورة هود: ٣٨، ٣٩.

يقول الشيخ الشنقيطى:

لما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا، فلزم تطهير الأرض منهم، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان.

وقال صاحب الظلال:

قد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص، الذى انتهى إليه القوم فى زمانه، ومن زجل هذا استجاب الله دعوته، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر، وجرف العواثير التى لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] بُعدًا لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لُعنوا، وبُعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا وما عادوا يستحقون ذكرًا ولا ذكرى.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

قال ابن كثير:

الجودى: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح.

والجزاء من جنس العمل.

قال القرطبى:

لما تواضع الجودى وخضع عزّ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذلّ، وهذه سنة الله فى خلقه، يرفع من يخشع، ويضع من ترفّع، ولقد أحسن القائل:

وإذا تذللت الرقابُ تخضُّعًا ... منّا إليك فعزها فى ذلك

يذكر الله مصرع هؤلاء الملاعين بآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها،

---

(١) سورة هود: ٤٤.   (٢) سورة هود: ٤٤.

واستذلت مصاقع العرب فسفعت بنواصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنها نطاق البيان، وكانت من سمهرى البلاغة مكان السنان، عذبة على العذبات، سلسة على الأسلات المؤمنة.

والعجيب أن هذه الآية كانت كطوفان نوح على أهل الفصاحة ومن أرادوا أن يعارضوا القرآن.

يروى أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يومًا؛ لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما قصدوه، وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا.

ويروى أيضًا أن ابن المقفع -وكان كما فى القاموس فصيحًا بليغًا، بل قيل: إنه أفصح أهل وقته- رام أن يعارض القرآن فنظم كلامًا، وجعله مفصلاً، وسماه سورا، فاجتاز يومًا بصبى يقرؤها فى مكتب، فرجع ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبدًا وما هو من كلام البشر.

لطيفة:

لمّا عمّ أهل الأرض العمى عمّا خُلقوا له، بُعث نوح بجلاء أبصار البصائر فمكث يداويهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فكلهم عن المحجة تعامى، فلاح للاحى عدم فلاحهم، وناله اليأس من صلاحهم، وبعث شكاية الأذى فى مسطور: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾[1] فأذن مؤذن الطرد: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[2]، فقام نوح فى محراب: ﴿لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[3].

فات النور: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[4]، وقيل: يا نوح قد حان الحين: ﴿احْمِلْ

---

(١) سورة نوح: ٢١.
(٢) سورة هود: ٣٦.
(٣) سورة نوح: ٢٦، ٢٧.
(٤) سورة هود: ٤٠.

فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[1] ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[2].

أتى الماء فى موج كالجبال، يغسل ويطهر الأرض من جبال الخطايا ودنس الشرك، والجزاء من جنس العمل[3].

[٤] «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم»

هذه قصة كنعان بن نوح الإبن العاق. قال تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[4].

لبث نوح -عليه السلام- فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام لكنهم أصروا واستكبروا استكبارًا.

وأوحى الله إلى نوح «أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» وأمره بأن يصنع الفلك «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا».

ولما فار التنور واقترب الوعد الحق وجاء أمر الله وفتح الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا وصعد نوح والمؤمنون إلى السفينة ومعه من كل زوجين اثنين ودخلوا فيها. وارتفعت السفينة فوق الماء وعلا الموج وغطى الأرض وغرقت امرأة نوح، لم تركب مع المؤمنين فى السفينة ظنت أن بيتها يمنعها من الماء ويحميها ولكن لا عاصم اليوم من أمر الله. ورأى نوح ابنه -كنعان- فى جهة السفينة وبمقربة منها حيث يسمع النداء ولم ير امرأته يئس من سلامتها ظن نوح أنها هى المستثناة وحدها وأنها هى التى سبق عليها القول من الله تعالى بختم الكفر والعذاب فقط.

طمع فى إيمان ابنه الذى كان عهد منه قبل ذلك وكان ابنه -كنعان- يُظهر له الإيمان ويبطن الكفر والأنبياء عليهم السلام إنما عنوا بالظواهر والله

---

(١) سورة هود: ٤٠.
(٢) سورة القمر: ١١، ١٢.
(٣) من «الجزاء من جنس العمل».
(٤) سورة هود: ٤٦.

يتولى السرائر. ولما رأى ابنه بمقربة من السفينة حيث يسمع النداء طمع فى سلامته وحسن الظن أنه مؤمن فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾[1]. وقوله لابنه: ﴿وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ دليل على أن نوحًا كان يعتقد إيمان ابنه.

فلما رد ابنه عليه ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[2] قال له نوح: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾.

قال الشوكانى عن كنعان بن نوح «كان منافقًا فظن نوح -عليه السلام- أنه مؤمن» ثم أصدر الله تعالى الأمر بغرقه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[3] ثم صدرت الأوامر للسماء والأرض ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[4].

ومن هذه القصة يتبين لنا بأن الأنساب بغير الإيمان لا تمنع بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

قال الفخر الرازى: «فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين» مفاتيح الغيب وفى الحديث الذى رواه أحمد فى المسند وهو فى صحيح الجامع رقم (٢٠١٢) «إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا» وفى حديث مسلم وغيره «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

ويتضح لنا بأن الكبر والعقوق والاعتصام بغير الله نهايته الخسران والهلاك.

[٥] قصة عاد

وقد كانوا عربًا يسكنون الأحقاف -وهى جبال الرمل- وكانت باليمن

---

(١) سورة هود: ٤٢.
(٢) سورة هود: ٤٣.
(٣) سورة هود: ٤٣.
(٤) سورة هود: ٤٤.

بين عمان وحضرموت بأرض مطلة علـى البحر، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[1] وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وقد أعطاهم الله بسطة فى الجسم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[3] فجعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش.

قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[4] أرسل الله إليهم نبيه هوداً، يدعـوهم إلى عبادة الله وحده، فلما أبوْا إلا الكفر بالله -عز وجل- أهلكهم الله.

أما تفصيل إهلاكهم: فقـد قال ابن إسحاق: لما أبوْا إلا الكفر بالله -عز وجل- أمسك عنهم المطـر ثلاث سنين، حتى جهـدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه، إنما يطلبونه منه بحرمه ومكان بيته -وكـان معروفًا عند أهل ذلك الزمـان، وبه العماليق مقـيمون-، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: مـعاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها: جلهذة بنة الخيبرى -قال: فبـعثت عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلاً؛ ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهـرًا يشربون الخـمر، وتغنيهـم الجرادتان -قينتـان لمعاوية- وكـانوا قد وصلوا إليه فى شهر. فلمـا طال مقامهم عنده، وأخذته شفـقة على قومهم، واستـحيى منهم أن يأمرهم بالانصـراف عمل شعرًا يعـرِّض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به، فقال:

---

(١) سورة الفجر: ٦، ٧.

(٢) سورة فصلت: ١٥.

(٣) سورة الأعراف: ٦٩.

(٤) سورة الشعراء: ١٢٨، ١٢٩.

ألا يا قـيل ويحكَ قمْ فَهَيِّمْ	لعلّ الله يمـنحنا غَـمـامَـا
فيـسقى أرض عـاد إنّ عاداً	قد امسوا لايُبيتُـونَ الكلامَا
من العطشِ الشديـد فليس نرجو	به الشـيخَ الكبـيـرَ ولا الغـلامَـا
وقـد كانت نسـاؤهمُ بخيـر	لقـد أمستْ نـساؤهمُ أيَامَـا
وإن الوحش يأتيـهم جهـاراً	ولا يخـشى لعادىٍّ سـهامَـا
وأنتم ها هنا فيـما اشتهيتمْ	نهـــاركُـمُ وليلكُـمُ تمامَــا
فَقُبِّحَ وفدكُمْ من وفـد قومٍ	ولا لُقُّـوا التحيـةَ والسلامَـا

قال: فـعند ذلك تنبه القـوم لِمَا جاءوا له، فنـهضوا إلى الحـرم ودعَوْا لقومهم فدعـا داعيهم -وهو قيل بن عنز- فأنشأ الله سـحابات ثلاثًا: بيضاء، وحمراء، وسـوداء، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنـفسك ولقومك من هذا السحاب. قـال: فاخترت السحابة السـوداء فإنها أكثر السـحاب ماءً. فناداه: اخترت رماداً رمدداً، لا تبقى من عاد أحداً، لا والداً تترك ولا ولداً إلا جعلته همداً، إلا بنى اللودية الهمدا. قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبـهم ما أصـاب قومـهم، قال: ومَنْ بقى من أنسـابهم وأعقابـهم هم عاد الآخرة. وسـاق الله السحابة السـوداء التى اختارها قـيل بن عنز بما فيـها من النقمـة إلى عاد، حـتى تخرج عليـهم من واد يقال له: المغيـث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾(١)، أى كل شيء أُمرت به، فكان أول من أبصـر ما فيهـا وعرف أنها ريح فيما يذكرون امـرأة من عاد يقال لها: فهد، فلما تبينت مـا فيها صاحت ثم صعـقت. فلما أفاقت قـالوا: ما رأيت يا فهد؟ قـالت: رأيت ريحًا فيـها كشهب النار، أمامهـا رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم سـبع ليال وثمانية أيام حسومـًا، فلم تدع من عادٍ أحداً إلا هلك، قـال: واعتزل هود -عليه السلام-

---

(١) سورة الأحقاف: ٢٤، ٢٥.

فيما ذُكر لى، هو ومن معه من المؤمنين مـا يصيبهم إلاّ ما يلين عليهم الجلود ويلذ الأنفس، وإنما لتـمر على عاد بالـطعن فيمـا بين السمـاء والأرض. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[1] لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكى فى القرآن: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[2] كوامل متتابعات، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3] مصروعين مجـدلين متناثرين، كأنهم أعـجاز نخلل بجذوعـها وأصولها فـارغة، تآكلت أجوافها، فارتمت سـاقطة على الأرض هامدة، كانت الريح تجىء إلى أحدهم فتحمله، فترفعه فى الهواء، ثم تنكسه على أم رأسـه فتشدخه، فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[5]. هذه الريح ما أنتجت خيراً، ما نثرت سحابًا ولا لقحت شجراً.

وقال ابن حجر فى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[6] قال البخـارى: بقية، ويـحتمل أن يكون من الإضـافة إلى الفاعـل ويراد به القتل الشديد القوى، إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة اهـ.

وفى الصـحيـحين عن ابن عـباس -رضي الله عنهما- عن رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**نصرت بالصبًا، وأهلكت عاد بالدبور**».

وعن علىّ موقوفًا، فيما أخرجه ابن أبى حاتم، قال: «لم ينزل الله شيئًا من الريح إلا بوزن على يـدى ملك، إلا يوم عـادٍ فإنه أُذن لهـا دون الخـزّان فعتت على الخزّان».

قال الحافظ فى الفتح: كانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرهم جنانًا فلما سخط الله -جل وعلا- عليهم جعلها مفاوز.

---

(١) سورة الحاقة: ٦.
(٢) سورة الحاقة: ٧.
(٣) سورة الحاقة: ٧.
(٤) سورة القمر: ١٩، ٢٠.
(٥) سورة الذاريات: ٤١، ٤٢.
(٦) سورة الحاقة: ٨.

عن أبى وائل عن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة، فدخلت على رسول الله -ﷺ- فذكرت عنده وافد عاد، قلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. فقال رسول الله -ﷺ-: **«وما وافد عاد؟»** قال: فقلت: على الخبير بها سقطت؛ إن عاداً لما أقحطت بعثت قيلاً، فنزل على بكر بن معاوية ابن وائل، فسقاه الخمر، وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللهم إنى لم آتك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية -يشكر له الخمر الذى سقاه- فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهن، فاختار السوداء منهن، فقيل له: خذها رماداً رمدداً، لا تذر من عاد أحداً. وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة -يعني حلقة الخاتم- ثم قرأ: ﴿**إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**﴾(1).

قال ابن حجر فى حديث: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» أى قتلاً فلا يبقى منهم أحداً.

لطيفة:

لـمّا تجبر قوم عاد، فى ظل ظلل ضلالهم، حين أملى الأمل وطول البقاء، وروى ذكر زوالهم. ومرّوا فى مشارع عذاب الملاهى. ناسين مرّ عذابها، رافلين فى حلل الغفلة عن المنية وآدابها، أقبل هو يهديهم، ويناديهم فى ناديهم ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾(2) فبرزوا فى عتو ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾(3)، فسحب سحاب العذاب ذَيلَ الإدبار بإقباله إلى قبالتهم، فظنوه لما اعترض عارض مطر، فتهادوا تباشير البشارة، بتهادى بشارة ﴿**هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا**﴾(4) فصاح بلبل البلبال فبلبل ﴿**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ**﴾(5)، فكان كلما دنا وترامى، ترى ما كان كأن لم يكن، فحنظلت شجرات مشاجرتهم هودا، فجنى مَنْ جنى من جنا ما جنى، فى مغنى ﴿**فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ**﴾(6) فراحت ريح الدبور،

---

(1) سورة الذاريات: ٤١، ٤٢.
(2) سورة الأعراف: ٦٥.
(3) سورة فصلت: ١٥.
(4) سورة الأحقاف: ٢٤.
(5) سورة الأحقاف: ٢٤.
(6) سورة الأحقاف: ٢٦.

لكي تَسِمْ الأدبار بكَّى الأدبار، فعجّوا منها عجيج الأدبر. فلم تزل تكوى تكوينهم بميسم العدم، وتلوى تلوينهم إلى حياض دم الندم. وتكفأ عليهم الرمال فتكفى تكفينهم. وتبرزهم إلى البراز عن صون حصون كن يقيناً يَقِينَهم[1].

فإذا أصبحت أخذت تنزع فى قوس ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾[2] وإذا أمست أوقعت عريضهم فى عرض ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾[3] فما برحت بارحهم[4] عن براحهم حتى برّحت بهم، ولا أقلعت حتى قلعت قلوع[5] قلاعهم، فدامت عليهم آفة وداء، لا تقبل فداء ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[6] فحسوا ما أذاقهم من سوء ما سوما، ونسفوا فى قفر ﴿أَلا بُعْدًا﴾[7] إلى يمِّ ﴿وَأُتْبِعُوا﴾[8]. فلو عبرت فى معبر الاعتبار، لترى ما آل إليه مآلهم لرأيت التَّوى[9] كيف التوى عليهم، وكفّ النَّوى كيف نوى الدنوّ إليهم، فانظر فى عواقب الخلاف، فإنه شافٍ كافٍ.

فانظر كيف كان عقاب عاد من جنس أعمالهم.

فعاد لطغيانهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾[10] وسواء عماد بيوتهم وقصورهم فهو كناية عن طول أجسادهم ووفرة أموالهم، وتوافر القوة عندهم، فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[11].

---

(١) يمنعهم.
(٢) سورة القمر: ٢٠.
(٣) سورة الحاقة: ٧.
(٤) الريح الحارة.
(٥) الشراع.
(٦) سورة الحاقة: ٧.
(٧) سورة هود: ٦٠.
(٨) سورة هود: ٦٠.
(٩) الهلاك.
(١٠) سورة الفجر: ٦-٨.
(١١) سورة هود: ٥٩، ٦٠.

[٦] ثمـــــود

وهم قوم نبى الله صالح -عليه السلام- وكـانوا عربًا من العـاربة، يسكنون الحجر الذى بين الحـجاز وتبوك، بعث الله فيهم رجلاً منهم وهو صـالح عبد الله ورسوله، فـدعاهم إلى عبادة الله وحـده، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، ولا يشركـوا به شيئًـا، فآمنت به طائفة منهم، وكـفر جمـهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وقد بلغت قلوبهم من الفسـاد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر بشاشة قول نبى الله صالح ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾(١).

إنها للقاصمة! فكل شىء يا صـالح إلا هذا! وما كنا لنتوقع أن تقولها! فيالخيبة الرجاء فيك.

قال ابن كثير:

ذكر المفسـرون أن ثمود اجتمـعوا يومًا فى ناديهم، فـجاءهم رسول الله صالح -صلى الله عليه وسلم- فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم، ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصـخرة -وأشاروا إلى صخـرة هناك- ناقة من صفتها كـيت وكيت، وذكروا أوصافًا سموها ونعتـوها وتعنتوا فيها، وأن تكون طويلة من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبى صالح -عليه السلام-:

أرأيتم إن أجبـتكم إلى ما سـألتم، على الوجه الذى طلبـتم أتأمنون بما جـئتكم به وتصـدقـونى فيـمـا أرسلت به؟. قالوا: نعـم. فأخـذ عهـودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مـصلاه فصلى لله -عز وجل- ما قدر له، ثم دعا ربه -عـز وجل- أن يجيبهم إلـى ما طلبوا، فأمـر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمـة عشراء، على الوجه المطلوب الذى طلبوا، أو على الصفـة التى نعتـوا، فلمّا عاينوها كـذلك رأوا أمرًا عظيـمًا، ومنظرًا هائلاً، وقدرة باهرةً، ودليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا فـآمن كثير منهم، واستمر

---

(١) سورة هود: ٦٢.

أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿فظلموا بها﴾[1] وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة، وكان من أشرافهم، فهمّ بالإسلام، فنهاه المشركون فمال إليهم، وفى هذا يقول رجل من المسلمين يقال له: مهرش بن غنمة بن الذميل -رحمه الله-:

وكانت عصبةٌ من آل عمرو ... إلى دين النبى دعوا شهابَا
عزيز ثمود كلهم جميعا ... فهَمَّ بأن يجيب ولو أجابَا
لأصبح صالحٌ فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهمْ ذُؤابَا
ولكنَّ الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهمُ ذئابَا

وقال لهم صالح -عليه السلام-: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[2]، فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[4]، فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا الناقة؛ ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم.

قال قتادة: بلغنى أن الذى قتل الناقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء فى خدورهن وعلى الصبيان.

قال ابن كثير:

وهذا هو الظاهر؛ لأنه الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ

(١) سورة الإسراء: ٥٩.
(٢) سورة هود: ٦٤.
(٣) سورة الشعراء: ١٥٥.
(٤) سورة القمر: ٢٨.

رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾[1] وقال: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾[2] وقال: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾[3] فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة فدلّ على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

قال ابن كثير:

ذكر الإمام ابن جرير -رحمه الله- وغيره من علماء التفسير فى سبب قتل الناقة أن امرأة منهم، يقال لها: عنيزة بنة غنم بن مجلز، وتكنى أم غنم، كانت عجوزًا كافرة، وكانت من أشد الناس عداوةً لصالح -عليه السلام-، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يُقال لها: صدوف بنة المحيا بن دهر بن المحيا، ذات حسب وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له: الحباب. وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا، فأجابها إلى ذلك. ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف ابن جُندع وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه -وهو سالف- وإنما هو من رجل يقال له: صهياد.

ولكن ولد على فراش سالف، وقالت له: أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة! فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستفزا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[4]، وكانوا رؤساء فى قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار فى أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع فى أصل أخرى، فمرّت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها

---

(١) سورة الشمس: ١٤.
(٢) سورة الإسراء: ٥٩.
(٣) سورة الأعراف: ٧٧.
(٤) سورة النمل: ٤٨.

وكانت من أحسن الناس وجهًا لقدار وذمرته[1]، فشد على الناقة بالسيف، فكسف عرقوبها[2]، فخرّت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة تحذر سقْبها[3]، ثم طعن فى لبتها فنحرها، وانطلق سقبها -وهو فصيلها- حتى أتى جبلاً منيعًا، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا. ويقال: إنه رغا ثلاث مرات، وإنه دخل فى صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، والله أعلم.

فلمّا فعلوا ذلك، وفرغوا من عقر الناقة بلغ الخبر صالحًا -عليه السلام- فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾[4].

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقًا عجلْناه قبلنا، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته: ﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[5] فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه، وجاءو من الليل ليفتكوا بنبى الله صالح، أرسل الله -سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله- عليهم حجارة فرضختهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس -وهو اليوم الأول من أيام النظرة- ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح -عليه السلام- وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل -وهو يوم الجمعة- ووجوههم محمرة، وأصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع -وهو يوم السبت- ووجوههم مسودة. فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذًا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، فجاءتهم صيحة من

---

(١) ذمرته: شجعته وحثته وحرضته.

(٢) كسف عرقوبها: أى قطعه.

(٣) السّقب: ولد الناقة.

(٤) سورة هود: ٦٥.

(٥) سورة النمل: ٤٩-٥١.

السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت الأنفس فى ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[1] صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى -قالوا: إلا جارية كانت مقعدة- واسمها: كلبة ابنة السِّلْق. ويقال لها: الزريقة. وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح -عليه السلام- فلما رأت ما رأت من العذاب أُطْلِقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيًا من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت.

وفى مسند أحمد عن جابر قال: لما مرّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالحجر قال: **«لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت -يعنى الناقة- ترد من هذا الفجّ، وتصدر من هذا الفجّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحدًا كان فى حرم الله»**. فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: **«أبو رِغال، فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»**.

وعن عمار بن ياسر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **«ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلين؟ أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا على على هذه، حتى يبلَّ منها هذه»**.

قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾[3].

قال الشنقيطى:

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية؛ لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فلما كان نداؤهم صاحبهم سببًا فى عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية.

---

(١) سورة الأعراف: ٧٨.
(٢) سورة القمر: ٢٩.
(٣) سورة القمر: ٣١.

والجزاء من جنس العمل.

لم تبق منهم باقية، خمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات.

قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾(١).

إنها الكبرياء الجوفاء التى لا تنظر إلى حقيقة الدعوة، ولكن إلى الداعية، فتستكبر من اتباع فرد من البشر؛ مخافة أن يكون فى اتباعها له إيثار وله تعظيم، ومن ثم يقولون لأنفسهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾(٢) أى لو وقع منا هذا الأمر المستنكر! وأعجب شىء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى! وأن يحسبوا أنفسهم فى سُعُر -لا سعير واحد- إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان.

قال صاحب المنار:

فى عذاب ثمود ومدين من سورة الأعراف أنهم أخذتهم الرجفة كما فى آيتى ٧٧/ ٩٠.

وفى مدين من سورة العنكبوت الآية ٣٧ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

وفى فُصلت فى ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

وفى سورة الذاريات: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾(٤).

والرجفة هى الهزة والاضطرابة الشديدة، وهى تصدق باضطراب أبدانهم وأفئدتهم كأرضهم، فالجامع بين هذه الألفاظ أن الله تعالى أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد، فرجفوا أو رجفت أرضهم، وزلزلت من شدتها وخروا ميتين.

---

(١) سورة القمر: ٢٤، ٢٥.
(٢) سورة القمر: ٢٤.
(٣) سورة فصلت: ١٧.
(٤) سورة الذاريات: ٤٤.

قال القاسمى:

قال الرازى: زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل فى حكاية هذه الواقعة اختلفت، وهى الرجفة، والطاغية، والصيحة.

والجواب ما قاله أبو مسلم: إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده، سواء كان حيوانًا أو غير حيوان، وألحق الهاء به للمبالغة، ويقال: طغى طغيانًا، وهو طاغٍ وطاغية وقال فى غير الحيوان: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾[1]. أى غلب وتجاوز الحد.

وأما الرجفة: فهى الزلزلة فى الأرض، وهى حركة خارجة عن المعتاد. فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها.

وأما الصيحة: فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة.

وأم الصاعقة: فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجرة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[2] فبطل ما زعمه ذلك البعض.

ما ألطف قول عمادة اليمن:

لا تعجبًا لقدار ناقة صالح فلكل عصر ناقة وقدار

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[3].

قال القاسمى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾[4] أى الصيحة التى يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها، وبدل حركتها عند نزوع الروح.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[5] أى ساقطين على وجوههم، هادمين لا يتحركون، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها.

---

(١) سورة الحاقة: ١١.
(٢) سورة النازعات: ١٣، ١٤.
(٣) سورة الأعراف: ٧٨.
(٤) سورة الأعراف: ٧٨.
(٥) سورة الأعراف: ٧٨.

يقول صاحب الظلال فى لفتة طيبـة، رابطًا بين العمل والجزاء، مبينًا أن الجزاء من جنس العمل:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١).

إنه التبجح الذى يصاحب المعصية. ويعبر عن عصيانهم بقوله: ﴿عَتَوْا﴾ لإبراز سمة التبجح فيها؛ وليصـور الشعور النفسى المصاحب لها، والذى يعبر عنه كذلك ذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير.

ولا يستأنى السـياق فى إعلان الخاتمة، ولا يفـصل كذلك: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٢).

والرجفة والجثوم، جزاء مقابل للعتو والتبجح؛ فالرجفة يصاحبها النزع، والجثوم مـشهد للعجـز عن الحراك، وما أجدر العاتـى أن يرتجف، وما أجدر المعتدى أن يعجز. جزاءً وفاقًا فى المصير. وفى التعبير عن هذا المصير(٣).

[٧] النمرود بن كنعان (رجل عذبه الله ببعوضة)

قال تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٤).

قال ابن جرير: قال مجاهد (أنا أحيى وأميت) أقتل من شئت وأستحيى من شئت أدعه حـيًا فلا أقتله وقال: ملك الأرض شـرقها ومغربهـا أربعة نفر مؤمنان وكـافران، فالمؤمـنان سليمان بن داود ذو القـرنين والكافران بخـتنصر ونمرود ابن كنعان لم يملكها غيرهم.

---

(١) سورة الأعراف: ٧٧.
(٢) سورة الأعراف: ٧٧.
(٣) من «الجزاء من جنس العمل».
(٤) سورة البقرة: ٢٥٨.

قال زيد بن أسلم: أول جبار كان فى الأرض نمرود فكان الناس يخرجون فيختارون من عنده الطعام فخرج إبراهيم يمتار مع بعض من يمتار فإذا مر به ناس قال: من ربكم؟ قالوا: أنت. حتى مر إبراهيم فقال له: من ربك؟ قال: ﴿**الذى يحيى ويميت**﴾ قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم: ﴿**فإن الله يأت بالشمس من المشرق فأتى بها من المغرب فبهت الذى كفر**﴾ قال فرده بغير طعام فرجع إبراهيم إلى أهله فمر على كثيب من رمل أعفر فقال: ألا آخذ من هذا فأتى به أهلى فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم فأخذ منه فأتى أهله قال: فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هى بأجود طعام رأته فصنعت له منه، فقربته إليه وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم فقال من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذى جئت به فعلم أن الله رزقه فحمد الله. ثم بعث الله إلى الجبار ملكًا أن آمن بى وأتركك على ملكك قال: وهل رب غيرى؟ فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه، ثم آتاه الثالثة فأبى عليه فقال له الملك اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه بابًا من البعوض، فطلعت الشمس فلم يردها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلت من لحومهم وشربت دماءهم، فلم يبق إلا العظام والملك كما هو لم يصبه من ذلك شيء فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه وكان جبارًا أربعمائة عام فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ثم أماته وهو الذى بنى صرحًا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد.

قال ابن كثير: مكثت فى منخره أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة حتى أهلكه الله عز وجل بها... !
هذا جزاء من ادعى الربوبية لنفسه عاقبه الله بأقل شيء بالبعوضة فى منخره الذى هو علامة العزة فانظر -رحمك الله- كيف أذله الله ونفس مدة ملكه عذبه الله فهل رأيت أخى -عافاك الله- إلهًا يضرب بالنعال. اهـ.

[٨] قـــوم إبراهيــــم

يقص الله تعالى ما كـان بين إبراهيم وقومه، بعد علمهم بتكسيـره كبير أصنامهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾(٢).

قال ابن كثير -رحمه الله-:

شرعوا يجمـعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأمـاكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مـرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيـم، ثم عمدوا إلى حفرة عظيـمة، فوضعوا فـيها الحطب، وأطلقوا فيـه النَّار، فاضطرمت، وتأججت، والتهبت، وعـلا لها شرر لم ير مثله قط، ثم وضـعوا إبراهيم -عليه السلام- فى كفة مـنجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد، يقال له: هزن.

فماذا كان جزاؤه؟

قال الألوسى:

أخرج ابن جـرير عن مجـاهد قال: تلوت هذه الآية على عـبد الله بن عمر فقال: أتدرى يا مـجاهد من الذى أشار بتحريق إبراهيم -عليه السلام- بالنار؟ قلت: لا. قال: رجل مـن أعراب فارس يعنى: الأكـراد. ونص على أنه من الأكراد ابن عطيـة، وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض فـهو يتجلجل فـيها إلى يوم القيامـة، واسمه على ما أخرج ابن جرير وابن أبى حـاتم عن شعيب الجبائى: هيون.

وقال ابن كثير:

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠.

(٢) سورة الصافات: ٩٧، ٩٨.

وجعلوا إبراهيم فى كـفة المنجنيق، بإشارة رجل من أعـراب فارس من الأكراد -قـال شعيـب الجبائى: اسـمه هيزن- فـخسف الله به الأرض، فـهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وهكذا كـان جـزاؤه من جنس عـمله: أراد وضع إبراهيم -عليه السلام- فى المنجنيق؛ ليرفعـه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخـسف به إلى أسفل جزاءً وفاقًا.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾[1].

يُروى أنهم بنوا لإبراهيم بنيانًا وألقـوه فيه، ثم أوقدوا عليه النار سـبعة أيام، ثم أطبقوا عليه، ثم فـتحوا عنه فإذا هو غير محترق يعـرق عرقًا، فقال لهم حارث أبو لوط: إن النار لا تحرقه؛ لأنه سـحر النار، ولكن اجعلوه على شىء، وأوقدوا تحـته فإن الدخـان يقتله، فجـعلوه فوق شىء وأوقدوا تحـته، فطارت شرارة فوقعت فى لحية أبى لوط فأحرقته.

وروى نفس القصـة الألوسى فى روح المعانى وغـيّر اسم أبى لوط إلى هاران.

وزاد: أخرج عبـد بن عبد حمـيد عن سليمان بن صـرد وكان قد أدرك النبى -صلى الله عليه وسلم- أن أبا لوط قال -وكان عمه-: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته منى، فأرسل الله تعالى عنقًا من النار فأحرقته.

والجزاء من جنس العمل.

وانظر -رحمك الله- كيف يبدو لك بـجلاء أن الجزاء من جنس العمل من هذه الآية: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾[2].

قال العلامة القمى:

أججوا نارًا عظيـمة وبنوا بناءً عاليًا، ورفعوه إليـه ورموا به إلى أسفل، فرفعه الله وجعلهم فى الدنيا من السافلين، وفى العقبى من السافلين.

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٨.

(٢) سورة الصافات: ٩٨.

قال ابن كثير:

قوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[1] أى: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبى الله كيداً فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

وقال الألوسى:

فأرادوا به كيدًا بسوء احتيال، فإنه -عليه السلام- لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك؛ لئلا يظهر للعامة عجزهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾[2] الأذلين بإبطال كيدهم، وجعله برهانًا ظاهرًا ظهور نار القِرى ليلاً على علم، على علوّ شأنه -عليه السلام- حيث جعل سبحانه النار عليه بردًا وسلامًا.

جزاء الوزغ[3] من جنس عمله:

حتى الوزغ كان جزاؤه من جنس عمله؛ إذ كان مشاركًا لهم، فقد روى البخارى عن أم شريك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر بقتل الوزغ، وقال: «**وكان ينفخ على إبراهيم**» ووقع فى حديث عائشة: أن إبراهيم لما ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا أطفأت عنه، إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه، فأمر النبى -صلى الله عليه وسلم- بقتلها.

وجزاؤها من جنس عملها.

لا بارك الله أرواح الملاعين من قوم إبراهيم.

قال ابن كثير:

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يَغْلبوا فغلبوا. قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿الأَسْفَلِينَ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا فى الدنيا، وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردًا وسلامًا، ولا يلقّون فيها تحية ولا سلامًا، بل هى كما قال تعالى: ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ اهـ.

---

(١) سورة الأنبياء: ٧٠. (٢) سورة الصافات: ٩٨.

(٣) الوزغ: أى: البُرص.

[٩] قوم لـــوط

وقوم لوط هؤلاء هم سكان مدينة سدوم وما حولها من القرى بالأردن، بطريق الشام مكان البحرِ الميت الآن، وكانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوّية، وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا فى ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحلَّ الله بهم من البأس الذى لا يُرَدّ ما لم يكن فى خلدهم وحسبناهم، وجعلهم مُثلة فى العالمين، وعبرة يتعظ بها الألبَّاء من العالمين، ولهذا ذكر الله -تعالى- قصتهم فى غير ما موضع من كتابه المبين، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

---

(١) سورة الأعراف: ٨٠-٨٤.

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[2] .

لنقف مع هؤلاء القوم وتصوير القرآن لجرمهم وقفة .

قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، أقبلوا حتى نزلوا أرض سدوم فى صور شبان حسان ؛ اختباراً من الله تعالى لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم ، فاستضافوا لوطًا -عليه السلام- وذلك عند غروب الشمس ، فخشى إن لم يضفهم يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[3] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه . وذلك لما نعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم فى غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه ألا يضيف أحدًا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه ، وهو فى أرض له يعمل فيها فتضيفوا ، فاستحى منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرّض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية ، وينزلون فى غيرها ، فقال لهم فيما قال : يا هؤلاء ، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أُمِروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

---

(١) سورة الحجر : ٦١-٧٦ .

(٢) سورة القمر : ٣٤-٣٩ .

(٣) سورة هود : ٧٧ .

وانظر كيف يصور القرآن الكريم مجيء الظالمين إلى بيت نبيهم لوط، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1].

لقد تسامعوا أن فى بيت لوط شبابًا صباحَ الوجوه، ففرحوا بأن هناك صيدًا، والتعبير على هذا النحو يكشف مدى الشناعة والبشاعة التى وصل إليها القوم فى الدنس والفجور، فى الفاحشة الشاذة المريضة، يكشف عن هذا المدى فى مشهد أهل المدينة يجيئون جماعةً يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية، هذه العلانية الفاضحة فى طلب هذا المنكر - فوق المنكر- شىء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع، فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه، أو يتخفى بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة فى الخفاء، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس، وإن الفطر السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية، بل حين تكون شرعية، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها؟ إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير.

وفى موقف آخر يقول الله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾[2]. رأى لوط ما يشبه الحمى فى أجساد المندفعين إلى داره، يهددونه فى ضيفه وكرامته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[3] بلغ بهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه -من الملائكة- قد حسبوهم غلمانًا صباحًا فهاج سعارهم الشاذ الملوّث القذر، وساوروا لوطًا، يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه، غير محتشمين ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذى أنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض.

ولقد حاول نبى الله لوط أن يوقظ فيهم الفطر السليمة، ويوجههم إلى

---

(١) سورة الحجر: ٦٧.

(٢) سورة هود: ٧٨.

(٣) سورة القمر: ٣٦، ٣٧.

الجنس الآخر الذى خلقه الله للرجال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[1] يرشدهم إلى غشيان نسائهم -وهن بناته شرعًا؛ لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد، وهو الذى نص عليه مجاهد، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، وهو الصواب -أطهر بكل معانى الطهر: النفس، والحس، فهن يلبين الفطرة النظيفة، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة: نظافة فطرية، ونظافة أخلاقية، ودينية. ثم هن أطهر حسيًا، حيث جعلها الله بقدرته للحياة الناشئة مكمنًا كذلك طاهرًا نظيفًا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾[2] قالها يلتمس نخوتهم، وتقاليد البدو فى إكرام الضيف، وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنسانى يستجاش، ولكنه فى كربه وشدته يحاول ما يستطيع.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[3] فالقضية قضية رشد وسفه، إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة، ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة، ولا القلوب الميتة الآسنة، ولا العقول المريضة المأفونة، وظلت الفورة المريضة فى اندفاعها المحموم.

وبدلاً من أن يثير هذا فى نفوسهم رواسب المروءة والحياء، إذا هم يَتَبَجَّحُون، فيؤنبون لوطًا على استضافة الرجال، كأنما هو الجانى الذى هيأ لهم أسباب الجريمة، ودفعهم إليها، وهم لا يملكون له دفاعًا!! ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[4].

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[5] وهى إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث.

وأُسقط فى يد لوطٍ وأحس ضعفه، وهو غريب بين القوم، نازح إليهم

---

(١) سورة هود: ٧٨.
(٢) سورة هود: ٧٨.
(٣) سورة هود: ٧٨.
(٤) سورة الحجر: ٧٠.
(٥) سورة هود: ٨٠.

من بعيد، لا عشيرة له تحميه ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾[1] وغاب عن لوط فى كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد، ركن الله الذى لا يتخلى عن أوليائه، كما قال رسول الله -ﷺ-: «**رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد**».

قال ابن كثير فى البداية والنهاية:

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبى الله لوطًا -عليه السلام- جعل يمانع قومه الدخول، ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم، وينهاهم من وراء الباب، وذكروا أن جبريل -عليه السلام- خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قال: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن. فتقدمت الملائكة إلى لوط، آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل، ولا يلتفت منكم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حلّ بقومه، إلا امرأتك سيصيبها ما أصابهم.

فلما جاء الأوان اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهنّ -وكُن سبع مدن- بمن فيهن من الأمم، فقالوا: إنهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل: أربعة آلاف نسمة، وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتمرات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**﴾[2]، وهو الشديد الصلب القوى ﴿**مَّنضُودٍ**﴾[3] أى يتبع بعضها بعضًا فى نزولها عليهم من السماء، ﴿**مُّسَوَّمَةً**﴾[4] يعنى معلمة؛ مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه.

---

(١) سورة هود: ٨٠.
(٢) سورة الحجر: ٧٤، سورة هود: ٨٢.
(٣) سورة هود: ٨٢.
(٤) سورة هود: ٨٣.

فكيف كان جزاؤهم من جنس عملهم؟

قال تعالى: ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾[1].

تهكموا منهم بالتطهر من هذا الرجس القذر، وقد يكون إنكاراً عليه أن يسمى هذا تطهراً فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة، وقد يكون ضِيقًا بالطهر والتطهر، إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ!!.

لـمّا عميت بصيرتهم أعمى جبريل أبصارهم ﴿ **فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ** ﴾[2].

لـمّا قلبوا الفطرة، قلب الله قراهم ﴿ **جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا** ﴾[3].

يقول الشنقيطي:

قوم لوط لكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث، فكان الجزاء من جنس العمل قلب الله عليهم قراهم، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

قال تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى** ﴾[4] يعني المنقلبة أهوى بها منكسة عاليها سافلها.

﴿ **جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا** ﴾[5].

يقول صاحب الظلال:

هي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها، وهذا القلب، وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة، المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان، بل أحط من الحيوان، فالحيوان واقف ملتزم عند فطرة الحيوان.

---

(١) سورة النمل: ٥٦.
(٢) سورة القمر: ٣٧.
(٣) سورة الحجر: ٧٤.
(٤) سورة النجم: ٥٣
(٥) سورة هود: ٨٢.

والجزاء من جنس العمل.

﴿وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين﴾[1].

ويقول أيضًا:

ولكننا نلمح فى اختيار هلاك قوم لوط بالمطر، وهو الماء المحيى المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة -ماء النطف- فى غير ما جعل له، وهو أن يكون مادة حياة وخصب، والله أعلم بقوله ومراده، وأعلم بسننه وتدبيره، إن هو إلا رأى أراه فى هذا التدبير.

والجزاء من جنس العمل.

ويقول أيضًا:

وقد أمطروا مطرًا مهلكًا، مع ما صاحبه من عواصف، ترى كان هذا المطر المغرق والماء الدافق؛ لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذى كانوا فيه، والوحل الذى عاشوا وماتوا فيه.

وقال تعالى: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾[2].

حجارة ملوثة بالطين، وهى كذلك مناسبة وعلى قدر المقام.

﴿منضود﴾[3] متراكم متتابع، مثل تتابعهم على بيت لوط.

﴿مسومة عند ربك﴾[4] كما تسوم الماشية أى تربى وتطلق بكثرة، فكأنما هذه الحجارة مرباة ومطلقة؛ لتنمو وتتكاثر لوقت الحاجة.

قال الشنقيطى: السجيل هو الطين الشديد القوى يصدق ذلك: ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾[5] وقال الراغب: حجر وطين مختلط.

﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾[6].

---

(١) سورة النمل: ٥٨. (٢) سورة هود: ٨٢. (٣) سورة هود: ٨٢.
(٤) سورة هود: ٨٣. (٥) سورة الذاريات: ٣٣. (٦) سورة الحجر: ٧٦.

من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غيّر الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة؟. وجعل مكانها بحيرة منتنة.

لما أعرضوا عن الطهارة ماذا كان جزاؤهم؟

يقول ابن كثير:

جعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة، لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها؛ لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذّب رسله، واتبع هواه، وعصى مولاه.

فناسبت نتانة البحيرة نتنهم.

والجزاء من جنس العمل.

قال القاسمي:

قال المهايمي: ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره، انقلب عليهم في صورة عذاب.

لطيفة:

نهى لوط قومه عن تعاطي الفواحش التي ذكر الله عنهم، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا حتى ولا رجلٌ واحد منهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون، إلا أن قالوا: ﴿**أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾.

فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج. فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلتهم خالدين، لكنْ بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأججّ، وحر يتوهج، وماؤها ملح أُجاج.

ولهذا صاروا مُثْلَة فيها، وعبرة لمن عليها، كانوا يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، يأتون فى ناديهم المنكر، حتى قيل: إنهم يتضارطون فى مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسهم.

أمرهم لوط بقربان نسائهم، وحذرهم من طريقتهم وسيئاتهم، وهم فى ذلك لا ينتهون، ولا يرعوون، بل كلما نصح لهم يبالغون ويحرضون، لم يعلموا ما حمّ به القدر وما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[(١)].

عن أبى جعفر -محمد الباقر- قال: قلت لمحمد بن على -بن الحنفية-: أعذّب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ قال: الله أعلى من ذلك؛ استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال، قال حذيفة -رضي الله عنه-: إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال.

فالعاقل اللبيب يقبل ما أرشده إليه الرسول الحبيب، من إتيان ما خلق من الزوجات الحلال، والجوارى من السرارى ذوات الجمال، ولا يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾[(٢)].

[١٠] سبأ

هذه قصة البطر، قصة من صدّق عليهم إبليس ظنه، فاتبعوه ونسوا النعم.

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا**

---

(١) سورة الحجر: ٧٢.	(٢) سورة هود: ٨٣.

فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

روى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس: أن رجلاً سأل رسول الله -ﷺ- عن سبأ ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال -ﷺ-: «**بل هو رجل وُلد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان**».

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها. وقال علماء النسب: سُمى سبأ؛ لأنه كان أول من سبى من العرب، وقد كان فيهم التبابعة، وكان لهم تيجان يلبسونها وقت الحكم، وكانت العرب تسمى من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تُبَّعًا، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس.

جاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تبارك وتعالى، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال سيل العرم، فمنهم من أقام ببلاده، ومنهم من نزح إلى غيرها.

وكان من أمر السد أن الماء كان يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم، فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا، حتى ارتفع الماء وحكم على حافَّات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة، والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل[2]، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب، وهذه الجنان عن اليمين والشمال، ولذلك الخصب والوفرة والمتاع الجميل، ومن ثم

---

(١) سورة سبأ: ١٥-١٩.

(٢) هو الذى تغترف فيه الثمار.

كانت آية تُذكّـر بالمنعم الوهاب، وقد أمـروا أن يستمـتعوا برزق الله شـاكرين ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ وذكروا بالنعـمة، نعـمة البلد الطيب، وفوقـها نعمة الغـفران على القصور من الشكر، والـتجاوز عن السيئـات، سماحة فى الأرض بالنعمة والـرخاء، وسماحة فى السمـاء بالعفو والغفران، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران؟!

﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ ليست بسبخـة، قال ابن زيد: لم يكن يرى فى قـريتهم بعـوضة قط ولا ذباب ولا برغـوث ولا عـقرب ولا حـية، وإن كـان الركب ليأتون وفى ثيابهم القمل والدواب، فمـا هم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم فتموت الدواب.

يقول ابن جرير:

فأعرضت سبـأ عن طاعة ربها، وصدّت عن اتباع ما دعتـها إليه رسلها من أنه خالقها.

قـال ابن عبـاس: سيل العـرم الشديد، وكـان السبب الذى سـبب الله لإرسال ذلك السيل عليهم -فيما ذكر لـى- جرذًا ابتعثه الله على سدهم فثقب فيه ثقبًا.

وعن قتادة: لما ترك القوم أمر الله بعث عليهم جرذًا يسمى الخلد، فثقبه من أسفله حتى غرق به جناتهم، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم.

ويقول الضـحاك: لما طغوا وبغوا بـعث الله عليهم جرذًا فخـرق السد، فأغرقهم الله.

وقال ابن زيد: بعث الله عليه[1] جرذًا، وسلطه على الذى كان يحبس الماء الذى يسـقيـها، فـأخرب فى أفـواه تلك الحـجارة، وكل شىء منهـا من رصاص وغـيره حتى تركـها حجـارة، ثم بعث الله سيل العرم، فـاقتلع ذلك السد وما كان يحبس، واقتلع تلك الجنتين فذهب بهما.

---

(١) أى السد. والجرذ: الفأر.

يقول ابن جرير:

وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك، والأراك هو الخمط.

قال الضحاك: بدلهم الله بجنان الفواكه والأعناب إذ أصبحت جناتهم خمطًا، وهو الأراك.

عن ابن عباس قال: الأثل الطرفاء.

قال ابن زيد: أذهب تلك القرى والجنتين، وأبدلهم الذى أخبرك: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾، قال: فالخمط: الأراك.

قال: جعل مكان العنب أراكًا، والفاكهة أثلاً، وشيئًا من سدرٍ قليل.

وقال قتادة: بينما شجر القوم خير شجر، إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾.

يقول ابن جرير:

هذا الذى فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم حتى هلكت أموالهم، وخربت جناتهم؛ جزاءً منَّا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾.

قال ابن جرير:

معنى الكلام: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله، وهل يجازى إلا الكفور لنعمة الله، فإن قال قائل: أو ما يجزى الله أهل الإيمان به على أعمالهم، فلم يخص أهل الكفر بالجزاء؟ فيقال: إن المجازاة فى هذا الموضع المكافأة، والله تعالى ذكر وعد أهل الإيمان به التفضل عليهم، وأن يجعل لهم بالواحدة من أعمالهم الصالحة عشر أمثالها إلى ما لا نهاية له من التضعيف،

ووعد المسيء من عباده أن يجعل بالواحدة من سيئاته مثلها مكافأة له على جرمه، والمكافأة لأهل الكبائر الكفر، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل، فلذلك قال -جل ثناؤه- فى هذا الموضع: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ كأنه قال جل ثناؤه: لا يُجازَى لا يكافأ على عمله إلا الكفور، إذا كانت المكافأة مثل المكافأ عليه، والله لا يغفر له من ذنوبه شيئًا، ولا يمحص شيئًا منها فى الدنيا، وأما المؤمن فإنه يتفضل عليه.

قال مجاهد: نجازى نعاقب.

قال القرطبى:

وأولى ما قيل فى هذه الآية، وأجل ما روى فيها أن الحسن قال: مثلاً بمثل.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[١].

يقول صاحب الظلال:

كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون فى قراهم وبيوتهم، ضيق الله عليهم فى الرزق، وبدّلهم من الرفاهة والنعماء خشونة وشدة، وتبدلت تلك الجنان الفيح، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشبة، ولكن لم يمزقهم ولم يفرقهم، وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة مكة فى الجزيرة، وبيت المقدس فى الشام، وغلبت الشقوة على سبأ، فلم ينفعهم النذير الأول، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرضاء، بل دعوا دعوة الحمق والجهل.

قال ابن كثير:

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعيم، والعيش الهنى الرغيد،

---

(١) سورة سبأ: ١٨، ١٩.

والبلاد الرضية، والأماكن الآمنة، والقرى المتـواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ويقيل فى قرية ويبيت فى أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه فى سفرهم.

قال تعالى: ﴿الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، قال مجاهد والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسدى، وابن زيد وغيرهم: قرى الشام.

قال تعالى: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾. بينة واضحة، يعرفها المسافرون، ويقيلون فى واحدة، ويبيتون فى أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أى جعلناهم بحسب ما يحتاج إليه المسافر.

﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أى الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلاً ونهارًا.

قال قتادة: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ لا يخافون ظلمًا ولا جوعًا، وإنما يغدون فيَقيلون ويروحون فيبيتون فى قرية أهل جنة ونهر، وكان الرجل المسافر لا يحمل معه زادًا ولا سقاء.

وقال أيضًا:

كانوا يسيرون غير خائفين، ولا جياع ولا ظماء، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان، لا يحرك بعضهم بعضًا، ولو لقى الرجل قاتل أبيه لا يحركه.

وقال ابن زيد: إن كانت المرأة لتخرج معها مغزلها ومكتلها على رأسها، تروح من قرية، وتغدوها وتبيت فى قرية، لا تحمل زادًا ولا ماء لما بينها وبين الشام.

قال القمى النيسابورى: والمقصود من ذكر الليالى والأيام تقرير كمال الأمن ولذلك قُدمت الليالِى فإنها مظنة الآفات، ويمكن تقرير الأمن بوجه آخر

وهو أن يقال: سيروا فيها، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياماً وليالي.

قال تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

قال ابن جرير: قالوا يا ربنا باعد بين أسفارنا، فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز، لنركب فيها الرواحل، ونتزود معنا فيها الأزواد، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمة الله وإحسانه إليهم، وجهلهم بمقدار العافية، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة، كما عجل للقائلين: ﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١) أعطاهم ما رغبوا إليه، وطلبوا من المسألة.

قال ابن عباس: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فإنهم بطروا عيشهم، وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد مما هو كان أجدر أن نشتهيه، فمزقوا بين الشام وسبأ، وبُدلوا بجنتيهم ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

وقال قتادة: بطر القوم نعمة الله، وغمطوا كرامة الله، قال الله: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

وقال ابن زيد: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حتى نبيت فى الفلوات والصحارى.

قال ابن كثير:

بطروا هذه النعمة، كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد، وأحبوا مفاوز ومهامه، يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا فى عيش رغيد من منٍّ وسلوى، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

---

(١) سورة الأنفال: ٣٢.

(٢) سورة القصص: ٥٨.

رَغدًا مّن كُلّ مكَان فكَفَرَتْ بأَنْعُم اللَّه فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْف بمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[1].

يقول صاحب الظلال:

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى التى لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام، لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل التى لا تُشبع لذة الرحلات، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ واستجيبت دعوتهم ولكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر. قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

قال ابن كثير:

جعلناهم حديثًا للناس، وسمراً يتحدثون به عن خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنى، تفرقوا فى البلاد ها هنا وها هنا، ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا: أيدى سبأ، وأيادى سبأ، وتفرقوا شذر مذر.

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم:

يقول صاحب الظلال:

عادوا أحاديث يرويها الرواة، وقصة على الألسنة والأفواه، بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة، أصبحوا أثرًا بعد عين، وحديثًا يُروى، وقصة تحكى.

ويقول:

وهناك فهم آخر فقد يكون المقصود بقوله: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أى قرى غالبة ذات سلطان، بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء، حياتهم صحراوية جافة، كثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى، ومواضع الماء، فلم يصبروا على الابتلاء

(١) سورة النحل: ١١٢.

وقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أى قلل من أسفارنا، فقد تعبنا، ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم، ففعل الله بهم ما فعل، وهو وجه رأيته فى الآية والله أعلم بمراده.

قال ابن كثير:

عن الشعبى: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق، رواه ابن أبى حاتم وابن جرير.

يقول الأعشى:

وفى ذاك للمتوسى أسوة	ومأربُ عفّى عليها العَرِمْ[1]
رخامٌ[2] بنته لهمْ حميرٌ	إذا جاء مواره[3] لم يرمْ
فأروى الزروع وأعتابها	على سعة ماؤهمْ إذ قسمْ
فصاروا أيادىَ ما يقدرو	ن منه على شرب طفلى فُطمْ

والجزاء من جنس العمل.

يقول القشيرى فى اللطائف:

أعرضوا عن الوفاق، وكفروا بالنعمة، وضيعوا الشكر، فبدلوا وبُدِّل بهم الحال، كما قالوا:

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن	ابتغى عوضًا لسلمى فلم يجد

ما عوملوا إلا بما استوجبوا، ولا سُقُوا إلا مما ثَبِطوا[4]، أو ما وقعوا إلا فى الوهدة التى حفروا، وما قُتلوا إلا بالسيف الذى صنعوا.

---

(١) العرم: المسَنَّاة التى تحبس الماء. وقال سيد قطب: العرم: الحجارة.

(٢) حجر أبيض.

(٣) الشديد المور - مار يمور مورًا أى جعل يذهب ويجىء، وعند ابن جرير: إذا جاء ماؤه لم يرم.

(٤) حَمُقَ فى عمله.

كذلك من الناس من يكون فى رغد من المال، واتصال من التوفيق، وطرب من القلب، ومساعدة من الوقت فيرتكب زلة أو يسىء أدبًا أو يتبع شهوة، ولا يعرف قدر ما هو به، فيتغير عليه الحال، فلا وقت ولا حال، ولا طرب ولا وصال.

فتذكر.. ما الذى سبى قوم سبأ؟ إن للنعم أجنحة فمن قصها بمقراض الشكر جنحت إليه، ومن أهمل ريشها حتى نَبَتَ نَبتْ من بين يديه، أخصبت ديار قوم سبأ فطابت، فما يُخرج حيهم حية، ولا يقال: هذا عقير عقرب، ولا يُرى فى بلادهم بعوضة، ولا لأذلهم بباب ذباب، فلما تمت النعمة، قام متقاضى الشكر يقول: ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا**﴾، فقابلوا الرسل مقابلة معاند، فرفعت قصة الشكوى فى مسطور ﴿**فَأَعْرَضُوا**﴾، فكان مما أرسلناهم عليهم أن أرسلنا ﴿**سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾، بعث الله عز وجل عليهم جُرذًا أجرد، نقب سِكْرَهم(١)، وهم فى سُكرهم فأغرق فيما جنى به عَلِىَّ جنابهم، حتى أغرق جناتهم، فخرّت الأشجار، بعد أن فُجرت الأنهار، وعثت كف الفساد فى ديارهم ودام البكاء، وعلا العويل، وخَلَف غرابُ البَيْن الوُرقَ على الوَرَق، وبئس البديل، ﴿**وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾.

[١١] عمرو بن لحى الخزاعى

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحى أبو خزاعة**».

وفى حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه، مرفوعًا: «وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام».

لما وليت خزاعة البيت، وصار أمره إليهم، كانوا قوم سوء فى ولايتهم.

---

(١) السدّ.

يقول الحافظ ابن كثير:

وذلك لأن فى زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحى -لعنه الله- فإنه أول من دعاهم إلى ذلك، وكان ذا مال جزيل جدًا، يقال: إنه ملك عشرين ألف بعير، ومما ذكر الأزرقى والسهيلى: إنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة، وكسى عشرة آلاف حلة فى كل سنة، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويَلتُّ لهم السويق، قالوا: وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع؛ لشرفه فيهم، ومحلته عندهم، وكرمه عليهم.

قال ابن هشام:

حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق، ويقال: ولد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطونى منها صنمًا، أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنمًا يقال: له هبل، فقدم به مكّة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[1].

قال ابن إسحق:

كانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وقد ذكر السهيلى وغيره. أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحى، وأن إبليس تبدى له فى صورة شيخ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه، ويقول كما يقول واتبعه العرب فى ذلك، ولم يقف شيطانه عند هذا الحد، وابتدع -لعنه الله- لهم أشياء فى الدين غيَّر بها دين الخليل فاتبعه العرب فى ذلك.

---

(١) الروض الأنف، للسهيلى (١/ ٣٥٠).

وانظر أيضًا إلـى ما ابتدعـوه من الشرائع البـاطلة الفاسدة، الـتى ظنها كبيرهم عـمرو بن لحى -قبحه الله- أنها مصلحة ورحـمة بالدوابِّ والبهائم، فهـو أول من سيَّب السَّـوائب، وهو كاذب مـفترٍ فى ذلك، ومـع هذا الجهل والضلال اتبـعه هؤلاء الجهلة الطـغام، بعد مـا تابعوه فيـما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير، وهو عبادة الأوثان، وقد قال تعالى: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾[1].

فيا له من قزم دعا رعاعًا فأجابوه!

فهل كان جزاؤه من جنس عمله؟

قال -ﷺ-: «**رأيت عمرو بن عـامر الخزاعى يجر قُـصْبَه[2] فى النار، وكان أول من سَيَّب السوائبَ، وبحرَ البَحيرةَ**».

قال المناوى:

لكونه استـخرج من باطنه بدعة جـرّ بها الجريرة إلى قومـه، فكذا يجر أمعاءه فى النار، والجزاء من جنس العمل.

وقال -ﷺ-: «**رأيت عـمرو بن لُحَى بن قَـمْـعَة بن خِنْدِف، أخـا بنى كعب، وهو يجر قصبه فى النار**».

وعن ابن مسـعود -رضي الله عنه- قال: قـال رسول الله -ﷺ-: «**إن أول من سيّب السوائب، وعبد الأصنام أبو خزاعـة عمرو بن عامر، وإنى رأيته فى النار يجرُّ أمعاءه فيها**».

وعن عـائشة -رضي الله عنها- قـالت: قال رسـول الله -ﷺ-: «**رأيت جهنم**

---

(١) سورة المائدة: ١٠٣.

(٢) القُصْب: بضم القاف وسكون الصاد أمعاءه. قال الزمـخشرى: القصب واحد الأقصاب، وهى الأمعاء ومنه القصّاب؛ لأنه يعالجها، وقال ابن الأثير: اسم للأمعاء كلها، وقيل: ما كان أسفل البطن من الأمعاء (فيض القدير ٤/ ٩).

يحطم بعضها بعضًا، ورأيت عمرًا يجر قصبه، وهو أول من سيّب السوائب».

وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول لأكثم بن الجون الخزاعى: «**يا أكثم، رأيت عمرو بن لُحَيٍّ بن قمعة بن خندف يجر قُصبه فى النار، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به، ولا بك منه**». فقال أكثم: عسى أن يضرّنى شبهه يا رسول الله؟ قال: «**لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غيّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى**».

[١٢] فرعـــون

انظر كيف كان جزاء هذا الطاغوت المطموس المتعجرف المتكبر من جنس قوله وعمله.

انظر كم ذبح من الأطفال من أجل ذبح موسى، ولسان القدر يصيح به: لن نربيه إلاّ فى حجرك.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾(١).

تجبر وعتا وطغا وبغى وآثر الحياة الدنيا، وجعل أهلها شيعًا، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحاق، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها، ومع هذا ﴿**يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**﴾ وكان الحامل له

---

(١) سورة القصص: ٤-٦.

على هذا الصنيع القبيح؛ أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما حفظوه عن إبراهيم -عليه السلام-، من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاك مصر على يديه، وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل؛ حذرًا من وجود هذا الغلام، فجعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذابحون من ساعته.

لقد ولد موسى والخطر محدق به، والموت يتلفت عليه، والشفرة مشرعة على عنقه تهمّ أن تحتز رأسه، وها هى ذى أمه خائفة عليه، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين، ها هى ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينمّ عليه.

ويوحى الله إليها أن ترضعه، فإذا خافت عليه فلتلقه فى اليم، فهو فى رعاية الله الذى لا أمن إلا فى جواره، لا خوف معه، لا تقرب المخاوف من حماه، الذى جعل النار بردًا وسلامًا، ويجعل من ثبج البحر ملجأ ومنامًا.

يقدر الطاغوت شيئًا، ويقدر الله شيئًا غيره، والله يريد غير ما يريد فرعون.

وإرادة الله وقدرته تتحدى، تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة فرعون وهامان وجنودهما، إنهم ليتبعون الذكور من بنى إسرائيل خوفًا على ملكهم وعرشهم وذواتهم، ويبثون العيون والأرصاد كى لا يفلت منهم ذكر، فها هى ذى إرادة الله تلقى فى أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكى وأى طفل؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين، ها هى ذى تلقيه فى أيديهم، مجردًا من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزًا عن نفسه، أو حتى يستنجد، ها هى ذى تقتحم به على فرعون حصنه، وهو الطاغية السفّاح المتجبر، ولا تعبه فى البحث عنه فى بيوت بنى إسرائيل، وفى أحضان نسائهن الوالدات، ها هى

ذى تعلن عن مقصدها سافرة متحدية؛ ليكون لهم عدوًا وحزنًا، عدوًا يتحداهم، وحزنًا يدخل الهمّ على قلوبهم.

يا فرعون: موسى لن يكون مربّاه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولن يُغذَّى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتعدّاه، ولا تطلع على سر معناه، لتعلم أن رب السموات هو الفعّال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد.

اقتحمت إرادة الله على فرعون قلب امرأته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه، لقد حمته بالمحبة، ذلك الستار الرقيق الشفيف، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة، وتحدّث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره، وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الرضيع الضعيف بغير هذا الستار الشفيف، إرادة الله وقدرته ترعى موسى، تدبر أمره.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[1] فقال فرعون: أمّا لك فنعم، وأمّا لى فلا. والبلاء مُوكل بالمنطق، يداك أوكتا وفوك نفخ، فكان كذلك وهداها الله به، وأهلكه الله على يديه.

إرادة الله تكيد لفرعون وآله، كما كادوا لبنى إسرائيل، تحرم عليه المراضع، يبحثون له عن ظئر ترضعه، وهم يخشون عليه الموت والذبول، حتى تبصر به أخته من بعيد، فتعرفه فتقول: ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[2]، فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون، يودون لو تصدق فينجو العزيز المحبوب، ويعود الطفل الغائب لأمه الملهوفة.

من لجأ إلى الله وتوكل عليه، وفوّض الأمور إليه، يكن حاله كحال أم موسى ترضع ولدها، وتأخذ كظئر أجرها.

---

(١) سورة القصص: ٩.
(٢) سورة القصص: ١٢.

فكيف كان جزاء فرعون من جنس قوله وعمله؟

دعاه موسى إلى عبادة الله عز وجل، فأعرض واستكبر ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(١).

أليس لى ملك مصر!! يا هذا حمارك ينهق من كف شعير، وما تساوى مصر؟ إن كانت الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

وقال موسى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾(٢).

قال ابن عباس ومجاهد: اطمس على أموالهم: أهلكها.

وقال الضحّاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت.

وقال محمد بن كعب القرظى: اجعل سكرهم حجارة.

فما كانت النهاية: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾(٣).

قال فرعون: ﴿ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾(٤).

إن الذى ينسى نعمة الله عليه، ويتيه بها، يعذبه الله بها وينغص عليه بها، فكانت معظم الآيات تدور حول الماء الذى تاه به واستكبر. هذا فى حياته.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾(٥).

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة الزخرف: ٥١.
(٢) سورة يونس: ٨٨.
(٣) سورة الدخان: ٢٥.
(٤) سورة الزخرف: ٥١.
(٥) سورة الأعراف: ١٣٠.
(٦) سورة الأعراف: ١٣٣.

يا فرعون، الطوفـان ماء من جنس ما تفتخـر به، ولكنه متلف للزروع والثمار.

والقُمَّل: قال ابن جرير: واحدتها قمّلة، وهى دابة تشبه القَمْل، أو كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: البراغيث.

كأن الماء لم يُجْـد شيـئًا فى نظافـتك، فها هى البـراغيث والضـفادع، تتعصيى عليك فى قدحك وآنيتك وثوبك.

والدم، استحال نهرك دمًا عبيطًا، فما جدوى نهرك ومياهك.

الآيات التى نغّصت عيشك من جنس ما استكبرت به، ومتعلقة بالماء.

قال ابن جرير:

عن سعيد بن جبير قال: لمّا أتى موسى -عليه السلام- فرعون قال له: أرسل معى بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان، وهو المطر، فصبّ عليهم منه شيئًا، خافـوا أن يكون عذابًا، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنّا المطر، فنؤمن لك، ونرسل مـعك بنى إسرائيل، فدعـا ربه، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فأنبت لهم فى تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمـر والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتـمنى، فأرسل الله عليهم الجـراد فسلّطه على الكلأ، فلما رأوا أثره فى الكلأ عـرفوا أنه لا يبقى، فقـالوا: يا موسى، ادع لنا ربك، ليكشف عنّـا الجراد، فنؤمن لك ونرسل مـعك بنى إسـرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمـنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فدرسوا الحب وأحـرزوه فى البيوت، فقالوا: قد أحـرزنا، فأرسل الله عليهم القمل -وهو السوس الذى يخرج منه- فكان الرجل يـخرج عشرة أجربة إلى الرحى فـلا يرد منهـا ثلاثة أقفـزة، فـقالوا لموسى: ادع لـنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك، ونرسـل معك بنى إسرائيل. فـدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفـدع، فقال لفرعـون: ما تلقى أنت وقومك من هذا. قال: ومـا عسى أن

يكون كيد هذا؟. فما أمسـوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع فى فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفـادع، فنؤمن لك، ونرسل معـك بنى إسرائيل [فدعـا ربه، فكشف عنهم فلم يؤمنـوا]. وأرسل الله عليهم الدم، فـكان ما اسـتـقوا من الأنهـار والآبار، وما كـان فى أوعيتـهم، وجدوه دمًا عـبيطًا[1]، فشكوا إلى فـرعون فـقالوا: إنا قـد ابتلينا بالدم، وليس لنا شـراب. فـقال: إنه قـد سحـركم!! فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعـيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا؟

قال ابن إسحاق:

تابع الله عليهم الآيات، وأخـذه بالسنين، فأرسل عليـهم الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مـفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء، ففـاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقـدرون على أن يحرثوا أو يعملوا شيـئًا، حتى جُهدوا جوعًـا، فلما بلغهم ذلك: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[2] فـدعا مـوسى ربه فكشف عنهم، فـلم يفوا له بشـىء مما قالوا، فـأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر -فيما بلغنى- حتى إنه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حـتى تقع دورهم ومساكـنهم، فقالوا مـثل ما قالوا، فـدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لى أن موسى -عليه السلام- أمر أن يمشى إلى كثـيب حتى يضربه بعصـاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانثـال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فأجهدهم، قالوا له مثلما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفـوا له بشىء مما قـالوا، فأرسل الله عليـهم الضفـادع، فملأت البيـوت والآنية والأطعمة، فلا يكشف أحد ثـوبًا ولا طعامًا إلاَّ وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جـهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل

(1) أى دمًا طريًا.

(2) سورة الأعراف: ١٣٤.

الله، فكشف عنهم، فلم يفوا له بما قالوا، فـأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دمًا، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا.

يالله.. هان فرعون على ربه حتى ما يساوى ضفدعًا ولا جرادًا.

هانوا عليه فعصوه وكفروا به؛ ولو عزوا عليه لعصمهم.

أيهـــا المعـــرض عنَّا	**إن إعــــراضك منَّـا**
لـو أردنـاك جــعلنـا	**كل مــا فــيك يُـردنَا**

عن ابن عـباس قال: كـانت الضفـادع بريّة، فلما أرسلهـا الله على آل فرعون سمعت وأطاعت، وجعلت تغرق أنفسها فى القدور وهى تغلى، وفى التنانير وهى تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء.

والجزاء عند الله من جنس العمل.

قال -ﷺ-: «**لا تقتلوا الضفادع..**».

وقال -ﷺ-: «**لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم**».

وكان غرقه فى جنس ما افتخر به.

قال الشنقيطى:

أما فرعون، فقد كان يقول: ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي**﴾(١) فلمّا كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها، أى فى جنسها.

قال تعالى: ﴿**فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ**﴾(٢).

كاد فـرعون فكيد له، وأراد فـارتدَّ إليه، ودعـا للاستعـداد فأذل وأذيق البأس.

﴿**قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ**

---

(١) سورة الزخرف: ٥١.   (٢) سورة طه: ٦٠.

افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[1].

هزأ به من جمعهم لموسى ومن قالوا له يومًا: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾[2] ومَنْ قالوا يومًا: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾[3].

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر وواجهته بكلمة الإيمان القوية، وباستعلاء الإيمان الواثق، وبتحذير الإيمان الناصع، وبرجاء الإيمان العميق.

وقال تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾[4].

قال القشيرى:

أراد فرعون إهلاك بنى إسرائيل واستئصالهم وأراد الحق نصرتهم وبقاءهم، فكان ما أراد الحق لا ما أراد اللعين.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾[5].

يقول ابن كثير:

نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم، فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم، فخرجوا من النعيم إلى الجحيم.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[6].

---

(١) سورة طه: ٦١-٧٣.
(٢) سورة الشعراء: ٤١.
(٣) سورة الشعراء: ٤٤.
(٤) سورة الإسراء: ١٠٣.
(٥) سورة الشعراء: ٥٤-٥٦.
(٦) سورة القصص: ٤.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾(٢).

منطق الطغيان الغليظ، فكلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، وخاف أن يستعلى الحق.

قال ابن كثير:

نكل فرعون ببنى إسرائيل قبل ولادة موسى؛ حذرًا من وجوده، فكان خلاف ما رامه، وضد ما قصده فرعون، وهكذا عومل فى صنيعه أيضًا، إنما أراد قهر بنى إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد، نصرهم الله عليه، وأذله وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

لما استذل فرعون بنى إسرائيل أورثهم الله ملكه.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٤).

لقد خرجوا يتبعون خطى موسى وقومه، ويقفون أثرهم، فكانت خرجتهم هذه هى الأخيرة، وكانت إخراجًا لهم من كل ما هم فيه، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم جزاء الظلم والبطر والبغى الوخيم، لما اقتفوا أثر المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٧.
(٢) سورة غافر: ٢٥.
(٣) سورة الأعراف: ١٣٧.
(٤) سورة الشعراء: ٥٧-٥٩.

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[1].

يقول صاحب الظلال:

انظر إلى هوانه وهوانهم على الله، وعلى هذا الوجود الذى كان يشمخ فيه بأنفه، فيطأطئ له الملأ المفتونون به، وهو أضل وأزهد من أن يحس به الوجود، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال، ولا يرثى له أحد على سوء المآل، لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها، ذهبوا ذهاب النمال، وهم كانوا جبارين فى الأرض، يطأون الناس بالنعال، ذهبوا غير مأسوف عليهم.

يقول القشيرى:

تكبر فرعون بغير حق فأقمأه الله بحق، وتجبّر بغير استحقاق، فأذله الله باستحقاق: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[2].

أبى إلا أن يدوم جحوده وعنُوده، فأغرقه الله فى البحر، كما أغرق قلبه فى بحر الكفر.

«من لا يرحم لا يُرحم».

هذا الطاغية الذى ذبح الطفولة وملاحتها وبراءتها المحبوبة، ولثغتها التى تبتسم لها القلوب والوجوه، كذا لم يرحم فى دنيا ولا آخرة.

يقول رسول الله -ﷺ-: **«قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حمأ البحر، فأدسه فى فىّ فرعون مخافة أن تدركه الرحمة»**.

قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾[3] واللعنة طرد من الرحمة.

---

(١) سورة الدخان: ٢٥-٢٩.
(٢) سورة القصص: ٣٩، ٤٠.
(٣) سورة القصص: ٤٢.

صار مآله إلى الطين المنتن، ألم يقل يومًا لهامان: يا هامان، أوقد لى على الطين.

واليوم كما يقول الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[1].

يقول صاحب الظلال:

ضربة واحدة فإذا هم هالكون، ومن التعالى والتطاول والاستكبار إلى الهوىّ فى الأعماق والأغوار جزاءً وفاقًا.

لقد سقطت من فرعون الباغى العادى المتجبر الطاغى كل أرديته التى تنفخ فيه، فتضاءل وتصاغر واستخذى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[2] لا تذهب منكرًا مع التيار، هذا الذى تطاول وقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[3] كلمة فاجرة من فرعون كانت تبجحًا واستهتارًا، لقى جزاءه بها فى نهاية مطافه.

قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[4].

ضاعت عزة فرعون واقتداره على البغى والظلم، ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم، وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر صدقًا، أخذهم أخذًا شديدًا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت.

لما تطاول فرعون وقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾[5]، فكان الهوىّ إلى الأعماق والأغوار، ونتن الطين فى فمه يوم الغرق فى عاشوراء جزاء للقولة الفاجرة.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٦.
(٢) سورة يونس: ٩٢.
(٣) سورة غافر: ٢٦.
(٤) سورة القمر: ٤٢.
(٥) سورة القصص: ٣٨.
(٦) سورة غافر: ٤٦.

قال ابن كثير:

الغرق فى اليم، ثم النقلة إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾[1]، قالها فرعون لقومه الذين استخفهم، ويعنى بها نبى الله موسى، وهو الشريف الرئيس الصادق البار المرشد، فكان جزاؤه من جنس قولته، أنه هو المهين خلقة ودينًا ومالاً..

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[2].

يقول القشيرى:

لا لشرفهم جعلهم أئمة، ولكن لسبب تلفهم قدّمهم فى الخزى والهوان على كل أمة، ولكن لم يُرشدوا إلاّ إلى الضلال، ولم يدلوا الخلق إلا على المحال، وما حصلوا إلا على سوء الحال، وما ذاقوا إلا خزى الوبال، أفاضوا على متبعيهم من ظلمات قلوبهم، فافتضحوا فى خسة مطلوبهم.

كانوا فى الدنيا مبعدين عن معرفته، وفى الآخرة مبعدين عن مغفرته، فانقلبوا من طرد إلى طرد، ومن هجر إلى بعد، ومن فراق إلى احتراق.

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾[3].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾ فيا بئساها دعوة! ويا بئساها إمامة الهزيمة فى الدنيا والهزيمة والهزيمة فى الآخرة، جزاء البغى والاستطالة، وليست الهزيمة وحدها، إنما هى اللعنة فى الأرض، والتقبيح فى يوم القيامة،

---

(١) سورة الزخرف: ٥٢.　　(٢) سورة القصص: ٤١، ٤٢.
(٣) سورة القصص: ٤١، ٤٢.

و ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع، وجو التَّقَزُّز والاشمئزاز، ذلك فى مقابل الاستعلاء والاستكبار فى الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله وعلى عباد الله.

وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾(1).

قاد فرعون قومه إلى الضلال فى الحياة.

قال ابن كثير:

وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا، وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها. وشربوا من حياض رَدَاها، وله فى ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر.

يقول صاحب الظلال:

لما كانوا تبعًا لفرعون فى هذا الأمر، يمشون خلفه ويتبعون خطواته الضالَّة بلا تدبر ولا تفكر، ودون أن يكون لهم رأى، لما كانوا كذلك، فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعًا.

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضى، ووعدًا عن المستقبل، إذا المشهد ينقلب، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النَّار، وانتهى فأوردهم النار، أوردهم كما يورد الراعى قطيع الغنم، ألم يكونوا قطيعًا يسير بدون تفكير، ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهى حرية الإرادة والاختيار؟ ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ويا بئساه من ورد لا يروى غلة، ولا يشفى صدى إنما يشوى البطون والقلوب ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾. هذه النار هى الرفد والعطاء والمنة التى رفد بها فرعون قومه!! ألم يعد السحرة عطاءً جزيلاً ورفدًا مرفودًا، فهذا رفده لمن اتبعه.. النار ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ و﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

---

(1) سورة هود: ٩٨، ٩٩.

[١٣] نهايـة السامـــرى(١)

وانظر إلى بلاهة الفكر، وبلادة الروح، وتفـاهة بنى إسرائيل فى قــصة السامرى.

قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾(٣).

حين ذهب موسى لميقات ربه، عمد رجل منهم يقال له السامرى فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عـجلاً، وألقى فيه قبضة من التراب كان

(١) «الجزاء» (١/ ٣٢٤ : ٣٢٦).

(٢) سورة الأعراف: ١٤٨.

(٣) سورة طه: ٨٣: ٩٧ .

أخذه من فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى، ويقال: إنه استحال عجلاً جسداً، أى: لحمًا ودمًا حيًّا يخور، قال قتادة وغيره: وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أى: فنسى موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هاهنا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه.

وأقبل عليهم موسى فعنفهم ووبخهم فى صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ تحرجوا من تملك حُلى آل فرعون، وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتحرجوا -بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم- من عبادة العجل الجسد؛ الذى له خوار، مع الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القهار. وأقبل موسى على السامرى ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ ما حملك على ما صنعت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى رأيت جبرائيل وهو راكب فرسًا ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى من أثر فرس جبريل، فأخذ من أثر حافرها. فلما ألقاه فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان، ولهذا قال: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾.

قال ابن كثير:

هذا دعاء عليه أن لا يمس أحداً؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه.

قال القرطبى: «قال الحسن: جعل الله عقوبة السامرى ألا يماس الناس، ولا يماسوه؛ عقوبة له، ولما كان منه إلى يوم القيامة».. لا أمس ولا أمس.

تميم كرهط السامرى وقوله ... ألا لا يريد السامرى مساسًا

قال ابن كثير: أى: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه

من أثر الرسول، فعقوبتك فى الدنيا أن تقول ﴿لا مِسَاسَ﴾ أى: لا تماس الناس ولا يماسونك. فمن كان يمسه تصيبه الحمى.

قال الألوسى، مبينًا كون الجزاء من جنس العمل: إنه لما أنشأ الفتنة لما كانت ملامسته سببًا لحياة الموات، عوقب بما يضاده؛ حيث جعلت ملامسته سببًا للحمى التى هى من أسباب موت الأحياء، وقيل: عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل. نَبَذَ فَنُبِذْ، فإن ذلك التحامى أشبه شىء بالنبذ. اهـ.

[١٤] نهاية قارون[(١)]

هذه قصة البطر والاستعلاء فى الأرض، وترك شكر الله على النعم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[(٢)] إلى قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٣)].

قال ابن حجر: روى ابن أبى حاتم، بإسناد صحيح، عن ابن عباس: أنه كان ابن عم موسى عليه السلام. قال: وكذا قال قتادة، وإبراهيم النخعى، وعبد الله بن الحارث، وسماك بن حرب، واختلف فى تفسير بغى قارون فقيل: الحسد؛ لأنه قال: ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لى شىء، وقيل: إنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذى حملها على ذلك، وقيل: الكبر لأنه طغى بكثرة ماله، وقيل: هو أول من أطال ثيابه حتى زادت على قامته شبرًا.

(١) «الجزاء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٣٢٠ : ٣٢٤).
(٢) سورة القصص: ٧٦ - ٧٨ .
(٣) سورة القصص: ٨٣ .

عن علی بن أبی طلحة عن ابن عباس: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ تثقل.

﴿بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾: لا یرفعها العصبة من الرجال، واختلف فی العصبة فقیل: عشرة، وقیل: خمسة عشر، وقیل: أربعون، وقیل: من عشرة إلى أربعین.

وكان من قصة قارون أنه حصل أموالاً عظیمة جداً حتى قیل: كانت مفاتیح خزائنه من جلود تحمل على أربعین بغلاً.

أخرج ابن أبی حاتم بإسناد صحیح عن ابن عباس قال: كان موسى یقول لبنی إسرائیل: إن الله یأمركم بكذا، حتى دخل علیهم فی أموالهم، فشق ذلك على قارون، فقال لبنی إسرائیل: إن موسى یقول: من زنى رجم، فتعالوا نجعل لبغی شیئًا حتى تقول: إن موسى فعل بها، فیرجم فنستریح منه، ففعلوا ذلك، فلما خطبهم موسى قالوا له: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. فقالوا: فقد زنیت، فجزع، فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم علیها موسى، وسألها بالذی فلق البحر لبنی إسرائیل إلا صدقت، فأقرت بالحق، فخر موسى ساجداً یبكی، فأوحى الله إلیه: إنی أمرت الأرض أن تطیعك فأمرها بما شئت، فأمرها، فخسفت بقارون ومن معه.

وكان یسكن تنیس، فحكی أن عبد العزیز الحروری ظفر ببعض كنوز قارون -وهو أمیر تنیس- فلما ماتَ تأمر ابنه على مكانه وتورع ابنه الحسن بن عبد العزیز عن ذلك، فیقال: إن علیًّا كتب إلى أخیه الحسن: إنی استطیبت لك من مال أبیك مائة ألف دینار فخذها فقال: أنا تركت الكثیر من ماله؛ لأنه لم یطب لی، فكیف آخذ هذا القلیل؟!.

قال ابن كثیر: خسف به إلى الأرض السابعة. قال قتادة: كان یسمى النور لحسن صوته بالتوراة.

وقال قتادة فی قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[1] ما أغنى عنه ماله وما جمعه، ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا غيره.

يقول صاحب الظلال رحمه الله:

فى كل زمان ومكان تستهوى زينة الأرض بعض القلوب فتطير لها قلوب، وتتهاوى لها نفوس، وتتشهاها أفئدة وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها، فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحب الزينة زينته، ولا بأى الوسائل نال ما نال من عرض الحياة، من مال، أو منصب، أو جاه، ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى.

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة، وفى نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع، وهم أعلى نفسًا وأكبر قلبًا من أن يتهاووا أو يتصاغروا أمام قيم الأرض جميعًا، ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد، وهؤلاء هم الذين أوتوا العلم؛ العلم الصحيح الذى يقوِّمون به الحياة حق التقويم.

﴿تلك الدار الآخرة﴾: الدار الآخرة العالية الرتبة، البعيدة الآفاق، للذين لا يريدون علوًّا، فلا يقوم فى نفوسهم خاطر استعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجس فى قلوبهم الاعتزاز بذواتهم، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الدنيا وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابًا، ولا يبغون فيها كذلك فسادًا.

قال أبو معاوية: الذى لا يريد علوًّا هو من لم يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا، وأعزهم غدًا ألزمهم لذل اليوم.

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

لما طغى بماله وكنوزه، والكنز: هو المخبوء المدخر من المال، ذهبت به الأرض. فهنا استكبار لئيم، وبطر ذميم لمغرور مطموس.

---

(١) سورة القصص: ٨١.

فهـوى فى بطن الأرض التى علا فـيها واسـتطال فوقـها جزاءً وفـاقًا، وذهب ضعيفًا عاجزًا، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال. ليعلم أنه هو وأمثـاله من المجرمين أهون على الله حـتى من أن يسألهم عن ذنوبهم فليـسوا هم الحكم ولا الأشهاد، ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[1].

لطيفة:

كان قـارون غاية فى فـقهـه وفهمـه، وكان فى النسب إلى مـوسى ابن عمـه، فلما فاضت الدنيـا عليه، فاضت نفس علمـه، كانت مقاليـد خزاين خزاياه وقر ستين بغلاً، غيـر أن الذى فاته أعلى وأغلى، ملك الكثير والقليل ولم يسمح، نبـه فلم يَزُل نومه، وليم فلا ينفع لومـه. سحب ذيل ﴿فبغى﴾ فقـام قومـه قومـة زجر ﴿لا تفرح﴾ وألقوا إليـه نصائح: ﴿وابتغ﴾، ﴿ولا تنس﴾، ﴿وأحسن﴾، ﴿ولا تبغ﴾، فركب يومًـا فى وقت اقتـداره فى أربعة آلاف مقاتل، وسم الهوى يعـمل فى المقاتل، وركب معه فى معمعـته ثلثمائة جارية، وقد أنسـاه سفه الأمل أن سفينة الأمل جارية. فلمـا غلا وعلا، حُط إلى حضيض ﴿فخسفـنا بـه﴾ فقال الجاهلون: إنما بادر موسى بادرته لأخذ بدرة[2] بداره، فقال حاكم الغيب لإزالة الريب: ﴿وبداره﴾. فقال موسى: يا أرض خذيه فاستخذت[3] لأمره، فسرت بسريره، فنـاشده قارون بالرحم فما رُحم، فأخذته لتقدمه حتى غيبت قدمه، فما زال يردد القول حتى ذهب الغبى الغنى.

إن الدنيا إذا طلعت على الطغام تطغى، وإذا بغى نكاحـها على العفاف تبغى، ثم إنها تقصد هلك محبها وتبغى، أما سحبت قرون قارون، مع أقرانه إلى القران فى قرن؟!.

فـأين من جمع الأمـوال وتمولها، وطـاف البلاد وجـولها وشق أنهـار الأرض وحولها رأت والله كل عاملة عملها، ونزلت بعد سفرها منزلها؟.

---

(١) سورة القصص: ٧٨.

(٢) أى: ماله.

(٣) أى: استرخت.

أين قارون؟ وقد هلك فى الزمان ماله وجسده، ولقد ذهب من كان وكان اسمه، فلا عينه تُرى ولا رسمه، ولا جوهره يُحس ولا جسمه، تبدد والله بالممات نظمه، ولحق بالرفات عظمه.

كم طوفوا بالبلاد وجولوا، كم أوعدوا وهولوا، كم جمعوا وتخولوا، كم اقتنوا وتمولوا، كم تطاولوا وما تطولوا، فانظر الآن: أى غول تغولوا، وأقاموا، فما قيل: فازوا، ولكن تحولوا.

أطاعوا ذا الخدع وصدقوه ... وكم نصح النصيح فكذبوه
ولم يرضوا بما سكنوا مشيداً ... إلى أن فضضوه وذهبوه
أظلوا بالقبيح فتابعوه ... ولو أمروا به لتجنبوه
نهاهم عن طلاب المال زهد ... ونادى الحرص ويلكم اطلبوه
فألقاها إلى أسماع غثر[1] ... إذا عُرف الطريق تنكبوه
حسبتم يا بنى حوا شقاء ... نجاؤكم الذى لم تحسبوه
أُدين الشر منكم فاحذروه ... ومات الخير فيكم فاندبوه

[١٥] بلعام بن باعوراء

اختلف المفسرون فى هذه القصة اختلافًا كثيراً، فمنهم من ضعفها كالقاسمى فى محاسن التأويل، ومن ذهب إلى أن الآيات من سورة الأعراف لم تنزل فى معين، وهناك روايات كثيرة أوردها الطبرى وابن كثير والألوسى فى تفاسيرهم.

قال ابن كثير:

وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف.

---

(١) أى: سفلة الناس.

عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: بلعام. وكان يعلم اسم الله الأعظم.

قال محمد بن إسحاق، عن سالم عن أبى النضر أنه حدث: أن موسى -عليه السلام- لما أنزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه، فقالوا له: هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا، ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فاتتن، فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل، وهو جبل حُسبان، فلما سار عليها غير كثير، ربضت به فنزل عنها فضربها، حتى إذا أذلقها[1] قامت فركبها، فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها، أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعام، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة تردنى عن وجهى هذا؟. أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو هم؟ فلم ينزع عنها بضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل، فقال له قومه: أتدرى يا بلعام ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شىء قد غلب الله عليه!. قال: واندلع[2] لسانه فوقع على صدره. فقال لهم: قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال. جَمِّلوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة من رجل أرادها، فإنهم إن زنا رجل منهم واحد كُفيتموهم، فافعلوا.

فلما دخل النساء المعسكر، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها: كُسبى ابنة

---

(١) الإذلاق: أن يبلغ منه الجَهد.

(٢) خرج من الفم، واسترعى كلسان الكلب.

صور رأس أمنه. برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمرى بن شلوم رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحاق -عليهم السلام- فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى -عليه السلام- فقال: إنى أظنك ستقول: هذا حرام عليك؟ قال: أجل، هى حرام عليك، لا تقربها. قال: فوالله، لا نطيعك فى هذا. ثم دخل بها قبته فوقع عليها، وأرسل الله -عز وجل- الطاعون فى بنى إسرائيل.

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

قال تعالى: ﴿ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾[1].

اختلف المفسرون فى معناها، فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبى النضر: أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب فى لهثه فى كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك.

وقيل: معناه فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء والإيمان، وعدم الدعاء كالكلب فى لهثه فى حالتيه إن حملت عليه وإن تركته، فهو يلهث فى الحالتين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه.

فلما اندلع لسانه -الذى دعا به على نبى الله موسى- على صدره كان جزاؤه من جنس عمله.

يقول صاحب الظلال:

آتاه الله آياته فانسلخ منها، وتعرى عنها، ولصق بالأرض، واتبع الهوى، استولى عليه الشيطان، وأمسى مطرودًا من حمى الله، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار.

إنسان يؤتيه الله آيات، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع، ولكن ها هو ذا ينسلخ من

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٦. وانظر للأهمية «أعلام الموقعين» (١/ ١٨١) ط. التوفيقية.

هذا كله انسلاخًا، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه، أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟.

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقى، وينحرف عن الهدى؛ ليتبع الهوى، ويهبط من الأفق المشرق، فيلتصق بالطين المعتم، فيصبح غرضًا للشيطان، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه، مشهد بائس نكد، إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقًا بالأرض ملوثًا بالطين، ثم إذا هو مسخ فى هيئة الكلب، مشهد اللهاث القلق الذى لا ينقطع ولا يطمئن أبدًا، والذى لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبدًا.

مسخ شأنه الكيان، هابط عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان، مكان الكلب الذى يتمرغ فى الطين، وكان له من الإيمان جناح يرف به إلى عِلّيين، وكان من فطرته الأولى فى أحسن تقويم، فإذا هو ينحط منها إلى أسفل سافلين.

فخلِّ سبيلَ العين بعدك للبكا فليس لأوقات الصفاء رجوعُ

[١٦] مسخ بنى إسرائيل إلى قردة وخنازير[١]

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

قال صاحب الظلال:

وإيذاء بنى إسرائيل لموسى -وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم- إيذاء متطاول متعدد الألوان، وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مُضن عسير شاق.

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم، ويتعرض

(١) «الجزاء» (١/ ٣١١ : ٣١٩).

(٢) سورة الصف: ٥.

لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1] كأنهم لا يرون فى رسالته خيراً، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير. وما كاد ينقذهم من ذل فرعون، باسم الله الواحد الذى أنقذهم من فرعون، وأغرقه، وهم ينظرون، حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه.. ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[2] وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح، حتى أضلهم السامرى ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾[3].

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم فى الصحراء: المن والسلوى، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[4].

وفى حادث البقرة التى كلفوا ذبحها، ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾[5].. ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾[6]. ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[7]. ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[8]..

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسًا، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه.

وأمام الأرض المقدسة -التى بشرهم الله بدخولها- وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم فى الوقت ذاته لموسى ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[9] فلما كرر عليهم

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٩.
(٢) سورة الأعراف: ١٣٨.
(٣) سورة طه: ٨٨.
(٤) سورة البقرة: ٦١.
(٥) سورة البقرة: ٦٨.
(٦) سورة البقرة: ٦٩.
(٧) سورة البقرة: ٧٠.
(٨) سورة البقرة: ٧١.
(٩) سورة المائدة: ٢٢.

التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1].

وذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة، والاقتراحات، والعصيان، والتمرد، والاتهام الشخصى بالباطل، كما جاء فى بعض الأحاديث.

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم فى عتاب ومودة: ﴿يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم﴾؟! وهم كانوا يعلمون عن يقين.. إنما هى لهجة العتاب والتذكير.

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد ما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة، فزادهم الله زيغًا، وأزاغ قلوبهم، فلم تعد صالحة للهدى. وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدًا ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2] وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر، وهم على هذا الزيغ والضلال.

قال القشيرى:

لما زاغوا بترك الحد أزاغ الله قلوبهم بنقض العهد.

ويقال: لما زاغوا عن طريق الرشد أزاغ الله قلوبهم بالصد والرد والبعد عن الوُدِّ.

ويقال: لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرهم.

ويقال: لما زاغوا عن خدمة الباب أزاغ الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط.

ويقال: لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: ٢٤.

(٢) سورة التوبة: ٨٠.

(٣) سورة البقرة: ٤٠.

قال الرازى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال الحسن: المراد منه العهد الذى أخذه الله تعالى على بنى إسرائيل فى قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾[1] الآية، فمن وفى لله بعهده، وفى الله له بعهده.

قال ابن جرير:

عن ابن عباس: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذى أخذت فى أعناقكم للنبى -ﷺ- إذا جاءكم ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أى: أُنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم؛ بذنوبكم التى كانت من أحداثكم. وعن أبى العالية ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: عهده إلى عباده دين الإسلام، أن يتبعوه ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يعنى: الجنة.

قال ابن كثير:

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أرض عنكم وأدخلكم الجنة.

قال القرطبى:

وقيل: أوفوا بعهدى فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص، أوف بقبولها منكم ومجازاتكم عليها. وقال بعضهم: أوفوا بعهدى فى العبادات أوف بعهدكم، أى: أوصلكم إلى منازل الرعايات، أوفوا بعهدى فى حفظ أدب الظواهر، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم.

وقيل: هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه، فيدخل فى ذلك ذكر محمد -ﷺ- الذى فى التوراة وغيره، هذا قول الجمهور من العلماء وهو الصحيح، وعهده -سبحانه وتعالى- وهوأن يدخلهم الجنة.

---

(١) سورة المائدة: ١٢.

يقول صاحب الظلال:

يبدأ هذا الدرس بنداء علوى جليل إلى بنى إسرائيل، يذكرهم بنعمته -تعالى- عليهم، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفى بعهده معهم.

يقول القشيرى:

عهدُه -سبحانه- حفظ المعرفة، وعهدنا اتصال المغفرة. عهده حفظ محابه، وعهدنا لطف ثوابه. عهده حضور الباب، وعهدنا جزيل المآب. أوفوا بعهدى بحفظ السر، أوف بعهدكم بجميل البر، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق، أوف بعهدكم الذى ضمنت لكم يوم التلاق. أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا علىّ غيرى؛ أوف بعهدكم فى ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى. أوفوا بعهدى برعاية ما أثبتُ فيكم من الودائع؛ أوف بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع. أوفوا بعهدى بحفظ أسرارى؛ أوف بعهدكم بجميل مبارى. أوفوا بعهدى باستدامة عرفانى؛ أوف بعهدكم فى إدامة إحسانى. أوفوا بعهدى فى القيام بخدمتى؛ أوف بعهدكم فى المنة عليكم بقبولها منكم. أوفوا بعهدى فى القيام بحسن المجاهدة والمعاملة؛ أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة. أوفوا بعهدى بالتبرى عن الحول والمنَّة؛ أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمنَّة. أوفوا بعهدى بالتفضل والتوكل؛ أوف بعهدكم بالكفاية والتفضل. أوفوا بعهدى بصدق المحبة؛ أوف بعهدكم بكمال القربة. أوفوا بعهدى اكتفوا منى بى؛ أوف بعهدكم أرضى بكم عنكم. أوفوا بعهدى المطالبات بترك الشهوات؛ أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات. أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبدًا: ربى ربى؛ أوف بعهدكم بأن أقول لكم: عبدى عبدى.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...﴾(١) الآية.

قال ابن كثير:

---

(١) سورة المائدة: ١٣.

لما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردًا عن بابه وجنابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق؛ وهو العلم النافع والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾(١).

قال ابن كثير:

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل، وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضُيق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أىَّ بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(٢).

قال ابن كثير:

قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لما كان كفرهم سببه البغى والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(٤).

قال ابن كثير:

---

(١) سورة البقرة: ٦٨-٧١.
(٢) سورة البقرة: ٩٠.
(٣) سورة غافر: ٦٠.
(٤) سورة البقرة: ٦١.

ولهـذا لما ارتكب بنو إسرائيل مـا ارتكبـوه، من الكفر بآيات الله وقـتل أنبيـائهم، أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وكـساهم ذلاً فى الدنيا مـوصولاً بذل الآخرة؛ جزاءً وفاقًا.

قال تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾[1].

قال ابن كثير:

يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة- بأنهم وصفوا الله، عز وجل وتعالى عن قولهم علوًّا كبيراً؛ بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبرو عن البخل بقولهم: ﴿ **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾.

وقد رد الله عز وجل عليـهم ما قالوه، وقابلهم فـيما اختلقـوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿ **غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا** ﴾ وهكذا وقع لهم. فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلـة أمر عظيم، قال تعالى: ﴿ **ضربـت عليهـم الذلة...** ﴾ الآية.

قال صاحب الظلال:

﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾. وذلك من سوء تصور يهود لله سبـحانه، فقد حكى القرآن الكريم عن كثير من سوء تصورهم ذاك، وقد قالوا: ﴿ **إن اللـه فقيـر ونحـن أغنياء** ﴾ عندما سئلوا النفقة! وقالوا: ﴿ **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾ يعللون بذلك بخلهم، فالله -بزعمهم- لا يعطى الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون؟.

وقـد بلغ من غلظ حسـهم، وجـلافة قلوبهـم، ألا يعبـروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه، وهو البـخل بلفظه المباشر، فاختـاروا لفظًا أشد وقاحة وتهجمًا وكفرًا، فقالوا: ﴿ **يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾.

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله، جزاءً على قولهم: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾ وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله بمال.

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب. ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[1].

قال ابن كثير:

يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ**﴾ يا معشر اليهود، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعًا لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة قردة، وهى أشبه بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم، لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم.

هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام.

عن أبى هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**».

---

(١) سورة البقرة: ٦٥، ٦٦.

قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[(١)].

قال ابن كثير:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيُمدحوا، ولا ارتكبوا إثمًا عظيمًا فيُذمُّوا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم.

قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا﴾ إلى قوله: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[(٢)].

قال ابن كثير:

ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى -عليه السلام- لبنى إسرائيل على الجهاد، ودخول بيت المقدس؛ الذى كان فى زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى أرض مصر أيام يوسف -عليه السلام- ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قومًا من العمالقة، فأمرهم رسول الله موسى -عليه السلام- بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب فى التيه، والتمادى فى سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم فى أمر الله.

وقوله تعالى: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلية لموسى -عليه السلام- عنهم، أى لا تتأسف ولا تحزن عليهم، فمهما حكمت عليهم به فإنهم يستحقون ذلك.

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٣-١٦٦.
(٢) سورة المائدة: ٢١-٢٦.

وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ورسوله، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله -ﷺ-، وكليمه وصفيّه من خلقه فى هذا الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال، والغرق له ولجنوده فى اليم، وهم ينظرون لتقر به أعينهم، وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هى بالنسبة إلى ديار مصر لا توازى عشر المعشار فى عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم فى جهلهم يعمهون، وفى غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه. ويقولون مع ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1] فقبح الله وجوههم التى مسخ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضى لهم فيها بتأبيد الخلود وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود.

لمّا قالوا: ﴿إنا لن ندخلها﴾ ونكصوا حرموا من دخولها أربعين سنة والجزاء من جنس العمل.

[١٧] مدين قوم شعيب

كان أهل مدين قومًا عربًا، يسكنون مدينتهم مدين، التى هى قرية من أرض معان فى أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة، وكان بها غيضة من الأشجار فأرسل الله إليهم أخاهم شعيبًا.

وعن أبى ذر الغفارى قال رسول الله -ﷺ-: «**أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر**».

---

(١) سورة المائدة: ١٨.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

كان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك، حولها غيضة[4] ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون[5] فيهما، يأخذون

---

(١) سورة الأعراف: ٨٥-٨٧.

(٢) سورة هود: ٨٤-٨٦.

(٣) سورة الشعراء: ١٧٦-١٨٩.

(٤) مجتمع الشجر.

(٥) الطفيف: القليل.

بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله إليهم شعيبًا، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفعال القبيحة، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد.

[illegible] عن الظلم ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾[1].

قال ابن عباس: كانوا قومًا طغاة بغاة، يجلسون على الطريق، يبخسون الناس يعنى يعشرونهم، وكانوا أول من سن ذلك.

﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية.

وذكّرهم بنعمة الله عليهم فى تكثيرهم بعد القلة: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم، وعذابه الأليم فى أخراهم.

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قلّ، وإن الحرام ممحوق وإن كثر.

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾[2] معناه فى الزمان، أى ما بالعهد من قدم ممّا بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم.

وقيل: معناه ما هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان.

وقيل: فى الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية، بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا فى الصفات.

فماذا كان موقف أهل مدين:

---

(١) أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك، وتخيفون السبل.

(٢) سورة هود: ٨٩.

فى تبجح تتجلى طبيعة الجاهليـة ومذاقها الكريه، يقولون قولة فاجرة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[(١)].

وقالوا أيضًا: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[(٢)].

وهو رد واضح التهكم، بيّن السـخرية فى كل مقطع من مـقاطعه، وإن كانت سـخرية الجاهـل المطموس والمعاند بلا مـعرفة ولا فـقه، يتـوقّح القوم بالسخرية فـيقولون: ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وهم يعنون عكس معناها، فالحلم والرشـد عندهم ما يعـبد آباؤهم بلا تفكيـر، وأن يفصلوا بين العـبادة والتعامل فى السوق.

وقالوا أيضًا: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾[(٣)] فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح، لا يريدون أن يدركوه، وهم يقيسون القيم فى الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[(٤)] ففى حسابهم عصبية العشيرة لا عصبية الاعتقاد، وصلة الدم لا صلة القلب، ثم هم يغـفلون عن غيـرة الله على أوليائه، فـلا يضعـونها فى الحساب.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[(٥)]. حين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة، فإنها تقبع على الأرض ومـصالحها الـقريبة وقيـمها الدنيـا، فلا ترى حرمة يومـئذ لدعوة كـريمة، ولا لحقيقـة كبيـرة، ولا تتحرج عن البطش بالداعـية، إلا أن تكون عصبـة تؤيده، وإلا أن تكون معه قوة مادية تحـميه، أما حرمة العـقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل فى تلك النفوس الفارغة الخاوية.

يقول لهم نبيهم شعيب: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ

---

(١) سورة الأعراف: ٨٨.
(٢) سورة هود: ٨٧.
(٣) سورة هود: ٩١.
(٤) سورة هود: ٩١.
(٥) سورة هود: ٩١.

وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[1] هؤلاء أشد قوةً ورهبة فى نفوسكم من الله، لا تلتفون إليه: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ترك وإعراض وشناعة فعل.

وقالوا له أيضًا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾[2] فهو عندهم من المسحورين يخلط ويهذى ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3] فى تحدى المستهتر الهازئ المستهين، طلبوا منه أن يسقط عليهم جانبًا من السماء، أو كما يقول قتادة: قطعًا من السماء إن كان من الصادقين.

قال ابن حجر:

جاء عن قتادة: أنه -أى شعيب- أرسل إلى أمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، ورجّح بأنه وُصف فى أصحاب مدين بأنه أخوهم بخلاف أصحاب الأيكة، وقال فى أصحاب مدين ﴿أخذتهم الرجفة﴾ و ﴿الصيحة﴾ وفى أصحاب الأيكة ﴿أخذهم عذاب يوم الظلة﴾.

والجمهور على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، وأجابوا عن ترك ذكر الأخوة فى أصحاب الأيكة، بأنه لما كانوا يعبدون الأيكة، ووقع فى صدر الكلام بأنهم أصحاب الأيكة ناسب ألا يذكر الأخوّة، وعن الثانى بأن المغايرة فى أنواع العذاب إنْ كانت تقتضى المغايرة فى المعذبين فليكن الذين عُذبوا بالرجفة غير الذين عذبوا بالصيحة؛ والحق أنهم أصابهم جميع ذلك؛ فإنهم أصابهم حر شديد، فخرجوا من البيوت فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها، فرجفت بهم الأرض من تحتهم، وأخذتهم الصيحة من فوقهم. اهـ.

قال قتادة: قال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: إن الله سلّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شىء، ثم إن الله أنشأ سحابة فانطلق إليها أحدهم واستظل بها، فأصاب تحتها بردًا وراحة، فأعلم بذلك قومه، فأتوها

---

(1) سورة هود: ٩٢. (2) سورة الشعراء: ١٨٥.

(3) سورة الشعراء: ١٨٦، ١٨٧.

جميعًا، فاستظلوا تحتها فأُجّجت نارًا، وهكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

وقال محمد بن كعب القرظى: إن أهل مدين عُذِّبُوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة فى دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبردَ من هذا، هلمّوا، أيها الناس، فدخلوا جميعًا تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعًا ثم تلا محمد بن كعب: ﴿**فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾.

وسُئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: بعث الله عليهم وَمَدَةَ[1] وحرًّا شديدًا، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله على الناس، قال ابن عباس: فذلك: ﴿**عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم**﴾.

فكيف كان الجزاء من جنس العمل؟

قال ابن كثير:

قد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وصنوفًا من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات؛ سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار فى سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها:

فى سياق قصة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه، وتوعدوهم

---

(١) ندىٍ من البحر يقع على الناس فى شدة الحر وسكون الريح.

بالإخراج من قريتهم، أو ليعودنّ فى ملتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾، فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق، ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما فى سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة ﴿ **فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾(1)؛ وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿ **أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾(2) فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح، الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم، مع رجفة أسكنتهم.

وأما فى سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريبًا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿ **وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾(3).

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف، وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما: أنه قال: ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ** ﴾(4) ولم يقل: أخوهم كما قال: ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(5).

والثانى: أنه ذكر عذابهم يوم الظلة، وذكر فى أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله: ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(6) لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها

---

(1) سورة هود: 94.
(2) سورة هود: 87.
(3) سورة الشعراء: 186، 187.
(4) سورة الشعراء: 176، 177.
(5) سورة هود: 84.
(6) سورة الشعراء: 176.

هنا، ولـمَّا نسبـهم إلى القبيلة شاع ذكر شعـيب بأنه أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجـاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليـلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعدد الانتقام بالرجفة والصيـحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان؛ وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن.

قال ابن كثير:

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[1] وهذا فى مقابلة قولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾.

والجزاء من جنس العمل.

ولننظر إلى عبارات المفسرين التى تدور حول هذا المعنى.

قال الألوسى:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾[2] أى لم يقيموا فى دارهم، عوقبوا بتـوعدهم السابق بالإخراج، وصاروا هُم المخرجين مـن القرية إخراجًا لا دخول بعده دون شعيب.

وقال الألوسى: فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾[3].

الذين كذبوه -عليه السلام- عوقبـوا بقولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[4] فصـاروا هم الخاسـرين للدنيا والدين لتكذيبـهم، لا المتبـعون لشعيب -عليه السلام-، الرد عليهم بعـين ما تلفظوا به، ما جـعلوه نصيحـة صار فضيحة.

---

(١) سورة الأعراف: ٩٠-٩٢.
(٢) سورة الأعراف: ٩٢.
(٣) سورة الأعراف: ٩٢.
(٤) سورة الأعراف: ٩٠.

قال القرطبى:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[1] ولما قالوا: من اتبع شعيبًا خاسر، قال الله: الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2].

يقول صاحب الظلال:

الرجفة والجثوم جزاء التهديد والاستطالة، وبسط الأيدى بالأذى والفتنة، ويرد السياق على قولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[3] وهى التى قالوا مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة، فيقرر -فى تهكم واضح- أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبًا، إنما كان من نصيب قوم آخرين.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[4] ففى ومضة ها نحن أولاء فى دارهم جاثمين، لا حياة ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الدار، وكأن لم يكن لهم فيها آثار.

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال، والمفارقة والانفصال، من رسولهم الذى كان أخاهم، ثم افترق طريقه عن طريقهم، فافترق مصيره عن مصيرهم، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم، وعلى ضيعتهم فى الغابرين ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[5].

خلت منهم الدُّور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمروها حينًا من الدهر، مضوا مشيعين باللعنة، طُويت صفحتهم السوداء فى الوجود، وصفحتهم فى القلوب ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[6].

يقول ابن كثير:

---

(١) سورة الأعراف: ٩٢.
(٢) سورة الأعراف: ٩١.
(٣) سورة الأعراف: ٩٠.
(٤) سورة الأعراف: ٩٢.
(٥) سورة الأعراف: ٩٣.
(٥) سورة هود: ٩٥.

لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾[1] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2] أرجفوا بنبى الله ومَن اتبعه، فأخذتهم الرجفة، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها.

وفى قوله تعالى: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا....﴾[3].

قال ابن كثير:

لما أساءوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم، وتهكموا به، فجاءت الصيحة التى أسكتتهم وأخمدتهم، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم.

وقال رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ...﴾[4] وكذلك وقع بهم كما سألوا جزاءً وفاقًا، فقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾[5] وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكسف عليهم، قالوها على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه.

وقال ابن كثير -رحمه الله- فى قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بدارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها، ثم قال مقابلاً لقيلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[6].

وقال -رحمه الله-:

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن فى الأعراف، وهود، والشعراء، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا.

يقول الألوسى:

---

(1) سورة الأعراف: 88.
(2) سورة الأعراف: 91.
(3) سورة هود: 87.
(4) سورة الشعراء: 187-189.
(5) سورة الشعراء: 189.
(6) سورة الأعراف: 92.

فى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها؛ إيذانًا بأن لهم عذابًا آخر غير عذاب الظلة، وفى ترك بيانه تعظيم لأمره.

نكت بلاغية:

قال تعالى فى سورة هود فى قصة ثمود ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا** ﴾[1] وقال فى هود ومدين ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا** ﴾[2]، ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا** ﴾[3].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا:

من دقيق نكت البلاغة فى الآيات فى قوله تعالى فى إهلاك مدين هنا ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا** ﴾ فعطف لَمّا على ما قبلها بالواو، ومثله فى قوم هود، ولكنه عطفها بالفاء فى قصة ثمود وقصة قوم لوط، ووجه هذا الأخير أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب، واستحقاقه وحلول موعده، فعطفتا بالفاء الدالة على التعقيب، وأما عطف مثلهما فى قوم هود، وقوم شعيب فليس كذلك، فعطف بالواو على الأصل، أما الأول فظاهر؛ لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب، وأما الثانى ففيه وعيد مسوّف فيه مقرون بالارتقاب لا الاقتراب، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التى تفيد التعقيب بدون انفصال، فهل تَصَادَف مثل هذه الدقائق اللغوية فى غير القرآن. اهـ.

[١٨] نهاية قاتلة يحيى بن زكريا[4]

قال الحافظ ابن كثير: روى الحافظ ابن عساكر فى «المستقصى فى فضائل الأقصى عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة -يعنى: دمشق- هداد بن هدار وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف

---

(١) سورة هود: ٦٦.
(٢) سورة هود: ٥٨.
(٢) سورة هود: ٩٤.
(٤) «الجزاء» (١/ ٣٢٦ : ٣٢٧).

بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا؛ وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها، ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه - وهو قائم يصلي في مسجد جيرون- من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره، فأخذت المرأة الطبق، وحملته على رأسها، وأتت به أمها، وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميها، ثم إلى حقويها، وجعلت أمها تولول، والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكبيها، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها، لتتسلى برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا فى الذل والفناء، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا.

وكان جزاؤها من جنس عملها: لما اجتزت رأس يحيى بن زكريا - عليهما السلام- اجتز رأسها، جزاءً وفاقًا.

[١٩] أصحاب الأخدود

قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾(١).

وعن صهيب -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت، فابعث إلىّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان فى طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب، وقعد إليه، فإذا

(١) سورة البروج: ٤-١٠.

أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضى الناس. فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب: أى بنّى، أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علىّ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى. فقال: إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك. فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربى. قال: ولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله. فأخذه فلم يزل به حتى دلّ على الغلام، فجىء بالغلام، فقال له الملك: أى بنّى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل؟!. فقال: إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، فجىء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوضع فى مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه. ثم جىء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك: فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جىء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم، اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه فى قُرقُور[1] فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، ولا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء

(١) السفينة الصغيرة.

يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟. قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلى، حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟. قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام. ثم ارمنى، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى، فجمع الناس فى صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام. ثم رماه فوقع السهم فى صُدْغه، فوضع يده فى صُدْغه فى موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فَخُدَّث، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها -أو قيل له: اقتحم: ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبىّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه، اصبرى فإنك على الحق».

فكيف كان جزاء الظالمين من جنس عملهم:

القوم الذين أرادوا أن يلقوا بغلام الراهب من فوق الجبل، رجف بهم الجبل فسقطوا، والذين أرادوا أن يقذفوا به فى البحر غرقوا هم.

قال ابن كثير:

روى ابن أبى حاتم عن الربيع -هو ابن أنس- فى قوله تعالى: ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾ سمعنا أنهم كانوا قومًا فى زمان الفترة، فلما رأوا ما وقع فى الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، اعتزلوا إلى قرية سكنوها، وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين، وحدث حديثهم، فأرسل إليهم، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التى اتخذوا، وإنهم أبوا عليه كلهم، وقالوا: لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، فقال لهم: إن لم تعبدوا هذه الآلهة التى عبدت، فإنى قاتلكم. فأبوا عليه،

فخد أخدودًا من نار، وقال لهم الجبار ووقفهم عليها فقال: اختاروا هذه أو الذى نحن فيه. فقالوا: هذه أحب إلينا، وفيهم نساء وذرية ففزعت الذرية، فقالوا لهم -أى آباؤهم-: لا نار من بعد اليوم، فوقعوا فيها. فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بها، ففى ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**والله على كل شىء شهيد**﴾.

قال تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾ أى حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

قال ابن جرير: ﴿**إن الذين فتنوا..**﴾ قال قتادة: حرّقوهم بالنار، قوله تعالى: ﴿**ثم لم يتوبوا**﴾ أى لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا ﴿**فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

وعن الربيع: ﴿**فلهم عذاب جهنم**﴾ فى الآخرة، ﴿**ولهم عذاب الحريق**﴾ فى الدنيا.

قال الألوسى:

﴿**فلهم عذاب جهنم**﴾ بسبب كفرهم، ﴿**ولهم عذاب الحريق**﴾ بسبب فتنتهم المؤمنين والمؤمنات، وفى جعل ذلك جزاء للفتنة من الحُسن ما لا يخفى.

قال القرطبى:

روى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود، فصارت على الملك وأصحابه، أربعين ذراعًا فأحرقتهم.

وقال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿**فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾.

قال: ﴿**عذاب جهنم**﴾ لكفرهم، ﴿**ولهم عذاب الحريق**﴾ فى الدنيا، لإحراقهم المؤمنين بالنار، وقد تقدم عن ابن عباس، وقيل: ﴿**ولهم عذاب الحريق**﴾ أى ولهم فى الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم، بما أحرقوا المؤمنين.

قال القمى النيسابورى فى قوله تعالى: ﴿**فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾.

عذاب جهنم، وعذاب الحريق مختلفان فى الدركة، الأول لكفرهم، والثانى لأنهم فتنوا أهل الإيمان، وجوز أن يكون الحريق فى الدنيا، لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.

قال ابن كثير:

قال ابن أبى حاتم عن صفوان بن عبد الرحمن بن زهير، قال: كانت الأخدود فى اليمن زمان تُبّع، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين، حين حرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتونًا وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفى العراق فى أرض بابل. بختنصر الذى صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتونًا وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه، فجعلها الله عليهما بردًا وسلامًا، وأنقذهما منها، وألقى الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار.

والجزاء من جنس العمل.

يقول صاحب الظلال:

﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾. ومضوا فى ضلالتهم سادرين، لم يندموا على ما فعلوا، ﴿**ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ وينص على الحريق، وهو مفهوم من عذاب جهنم، ولكنه ينطق به وينص عليه؛ ليكون مقابلاً للحريق فى الأخدود، وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث، ولكن أين حريق؟! فى شدته أو مدته؟! وحريق الدنيا يوقدها الخلق، وحريق الآخرة يوقدها الخالق، وحريق الدنيا لحظات وتنتهى، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله، ومع حريق الدنيا رضا الله على المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنسانى، ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاس الهابط الذميم.

[٢٠] إن أبيت إلا ذبحى فاذبحنى عند تلك الصخرة[١]

ذكر بعض العلماء أن رجلاً كان عنده والد كبير لا يستطيع أن يخدم نفسه، وكان ولده يخدمه، فتأفف من خدمته ومن القيام بأمره، ففكر فى قتله، فأخذه إلى الصحراء ليذبحه، فلما وصل إلى صخرة أنزله هناك. فقال الرجل: يا بنى، ماذا تريد أن تفعل بى؟ فقال الولد: أريد أن أذبحك فقد أتعبتنى وأسأمتنى، فقال الرجل: إن أبيت إلا ذبحى فاذبحنى عند الصخرة التالية، أنا كنت قبلك عاقًّا لوالدى، وذبحته عند تلك الصخرة، ولك يا بنى مثلها.

[٢١] النضيرة بنت الساطرون قتلت أباها فقتلها القاتل[٢]

الساطرون هو الضيزن بن معاوية صاحب الحضر، وهو حصن على حافة الفرات، وبداخله مدينة عظيمة.. أغار عليه سابور وحصره سنتين، فأشرفت النضيرة بنت الساطرون فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلاً، فدسّت إليه أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحضر؟ فقال: نعم، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه، وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب - ويقال: بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع- فولجوا منه إلى الحضر، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخرّبه، وسار بها معه فتزوجها، فبينا هى نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تململ لا تنام، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس. فقال لها سابور: أهذا الذى أسهرك! قالت: نعم. قال: فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت: كان يفرش لى الديباج، ويلبسنى الحرير،

(١) ذكرها الشيخ على القرنى فى شريط «هكذا علمتنى الحياة».
(٢) انظر «الجزاء من جنس العمل» (٢/ ١٩١) وانظر أيضًا «أخبار النساء» باب غدر النساء وهو بتحقيقى ط التوفيقية.

ويطعمنى المخ، ويسقينى الخمر. قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعت به؟ أنت إلىّ بذلك أسرع، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها.

كما كانت سببًا فى مقتل أبيها.

[٢٢] أبرهة صاحب الفيل

قال ابن جرير:

عن ابن إسحاق أن أبرهة -الأشرم- بنى كنيسة بصنعاء، وكان نصرانيًا، وسماها: القليس.

وانظر إلى أبرهة اللعين -صاحب الفيل- والصاحب يكون من جنس القوم. فكأن الله أشار إلى أنه من جنس البهائم بل أضلّ. لما ابتنى كنيسته القليس بصنعاء وأراد حج الناس إليها، وأراد بذلك صرف الناس عن الحج إلى البيت.

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

فصرف الله عنها الناس، وأوقد الحريق فيها كما قال القمى النيسابورى.

والجزاء من جنس العمل.

يقول الشنقيطى فى أضواء البيان:

وكذلك جيش أبرهة، لما جاء مدلاً بعدده وعدته، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾[1].

يقول ابن كثير:

يقول ابن إسحاق: أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف،

---

(١) سورة الفيل: ٣-٥.

مع كل طائر منهـا ثلاثة أحجـار يحملهـا، حجـر فى منقاره، وحـجران فى رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجـوا هاربين يبتدرون الطريق التى منها جـاءوا يسألون عن نفيل ابن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن، وفى ذلك يقول نفيل:

حمدت الله إذ أبصرت طيراً وخـفت حجـارة تلقى علينا
وكل القـوم يسأل عن نفير كـأن علىّ للـحبـشـان دَينا

قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك، على كل منهل، وأصـيب أبرهة فى جسـده، وخرجوا بـه معهم يسـقط أنملة أنملة، كلما سـقطت أنملة اتبعـتها منه مـدّة تمثّ قيحًـا ودمًا، حتى قـدموا به صنعـاء وهو مثل فرخ الطـائر فما مـات حتى انصـدع صدره عن قلبـه فيـما يزعمون.

فلما أراد أبرهة هدم البيت حجراً حجراً، كذلك سقط أنملة أنملة.

لما أراد تصديع البيت فكذا انصدع صدره عن قلبه.

لما زها وعتا بنفسه، وخـرج بقوته يريد مكة، فالآن يعود إلى بلاده مثل فرخ الطائر.

قال تعالى: ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾[١].

أبابيل: أى متفرقـة يتبع بعضها بعضًا من نواحٍ شـتى، قال ابن عباس: يتبع بعضـها بعضًا. وقال عبـد الله: فرق. وقال ابن عباس: كـانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأف الكلاب.

والسجيل: هو الطين فى حجارة، كما قال ابن عباس.

فـانظر رحـمك الله.. لما تتابـعوا على البـيت أرسل الله عليـهم طيـرًا أبابيل، يتبع بعضها بعضًا.

---

(١) سورة الفيل: ٣-٥.

ولما أرادوا نقض البيت، وهدمه حجرًا حجرًا عذَّبهم الله بالحجارة.

والجزاء من جنس العمل.

لا هم إنَّ العــبــد يمـ	ـنع رَحْلـه فـامنع رحـالك
لا يغـلبن صـليـبـهمْ	ومـحـالهم غـدْوًا مـحـالك

قال ابن كثير:

قال ابن إسحـاق: بعثت ثقيف أبا رغـال مع أبرهة، ليدله على الطريق إلى مكة، فـخرج أبرهة ومعـه أبو رغال حـتى أنزله بالمغمس، فلمـا أنزله به مات أبو رغـال هنالك، فرجمت قبـره العرب، فهو القـبر الذى يرجم الناس بالمغمس، كقول جرير:

إذا مات الفرزدق فـارجموه	كـرجمكمُ لقـبر أبى رغـال

فلما أعان القوم كـدليل لهدم الكعبة، وجعلها أنقـاضًا وحجارة، فكذا يرجم قبره بالحجارة.

والجزاء من جنس العمل.

أما قائد الفيل وسائسه: روى ابن إسـحاق عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفـيل، وسائسه بمكـة أعميين مـقعدين يسـتطعمان. تحـركت أقدامهـما بالفيل، فأصبحا يقادان فى شوارع مكة، وأقعدهما الله.

والجزاء من جنس العمل.

يقول صاحب الظلال:

ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعزَّ بالفيل -وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسـمًـا- ويهلك بحيـوان صغـير، لا يظهـر للنظر، ولا يدرك بالبصر، حيث ساقه القدر، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر.

فلما شـرفت الكعبة بإضـافة ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾[1]، قصدها فـوج الفيل،

---

(١) سورة الحج: ٢٦.

فَفِيلَ[1] مرادهم، لما باتوا على ما بيتوا، أقبل الطير الذى رمى كالغمام، فكانت قطراته للحصاد لا للبذر، فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم؛ ليكون معجزًا لظهور بنى هاشم، فأمسوا فى بيدر الدياس ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾.

[٢٣] عاقبة التكبر على الناس[2]

ذكر ابن كثير قصة الرجلين المؤمن والكافر:

قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[3].

قال بعض الناس: هذا مثل مضروب، ولا يلزم أن يكون واقعًا، والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً ﴾، أى لكفار قريش كما قال تعالى: ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾.

قال تعالى: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[4].

قال ابن عباس وقتادة: حسبانا؛ أى عذابًا من السماء. والظاهر أنه المطر المزعج الباهر، الذى يقتلع زروعها وأشجارها.

﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾[5] وهو التراب الأملس الذى لا نبات فيه.

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾[6] وهو ضد المعين السارح.

---

(١) خاب. والسياق من «الجزاء من جنس العمل».
(٢) «الجزاء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٥١٧ : ٥١٨).
(٣) سورة الكهف: ٣٢ - ٣٦ .
(٤) سورة الكهف: ٤٠ .
(٥) سورة الكهف: ٤٠ .
(٦) سورة الكهف: ٤١ .

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾[1] فلا تقدر على استرجاعه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾[2] أى جاءه أمر أحاط بجميع حواصله، وخرب جنته ودمرها.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أى خربت بالكلية فلا عودة لها، وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال: ﴿وما أظن أن تبيد هذه أبدًا﴾.

إن من قدم شيئًا على طاعة الله، والإنفاق فى سبيله عذب به، وربما سُلب منه معاملة له بنقيض قصده، والجزاء من جنس العمل.

[٢٤] نهاية معذبة زنيرة[3]

كانت زنيرة فتاة صغيرة مملوكة عند امرأة مشركة فى قريش، ولما أسلمت قامت سيدتها تعذبها بالليل والنهار، وذات يوم جمعت الجوارى وأمرتهن أن يضربنها على رأسها، حتى فقدت البصر، فإذا عطشت قالت: اعطونى ماءً. قالت: الماء أمامك فابحثى عنه. قالت لها سيدتها: يا زنيرة، إن كان ربك الذى تؤمنين به حقًّا كما تزعمين، ادعيه فليرد عليك بصرك لكى ترى الماء والطعام. فرفعت يديها إلى الله، وقالت: اللهم، إنى أسألك أن ترد علىَّ بصرى: فأبصرت، وإذا بسيدتها تصرخ، وتصيح من رأسها وارأساه. وتقول للجوارى: احملن النعال والقباقيب، واضربونى على رأسى. فضربنها حتى فقدت البصر.

وهكذا ينتقم الله لأوليائه والجزاء من جنس العمل.

وكان العمى جزاءً على الكفر.

---

(١) سورة الكهف ٤١ .   (٢) سورة الكهف: ٤٢ .

(٣) «الجزاء» (١/ ٢٦٤) بواسطة عن شريط حلاوة الإيمان للشيخ أحمد القطان.

[٢٥] نهـــــاية أبى لهب
[٢٦] نهاية امرأته حمالة الحطب
[٢٧] نهـــاية ولدهمـــا[١]

وأبو لهب هذا الذى أفرد الله ذكره من كفار قريش، هو أحد أعمام رسول الله -ﷺ-، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمى أبا لهب؛ لإشراق وجهه، ولتلهب وجنتيه، وكأن كنيته من جنس عمله ومآله إلى ذات اللهب، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها، وامرأته أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهى أخت أبى سفيان.

ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله -ﷺ- والبغض له، والازدراء به. والتنقص له ولدينه.

وانظر إلى نموذج من نماذج كيد أبى لهب لدعوة الرسول -ﷺ-، التى عاداها من اليوم الأول للدعوة.

روى الإمام أحمد، عن ربيعة بن عباد من بنى الديلى -وكان جاهليًّا، فأسلم- قال: رأيت النبى -ﷺ- فى الجاهلية، فى سوق ذى المجاز وهو يقول: «**يأيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**». والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

وروى محمد بن إسحاق عن ربيعة بن عباد الديلى قال: إنى لمع أبى غلام شاب، أنظر إلى رسول الله -ﷺ- يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضىء ذو جُمة، يقف رسول الله -ﷺ- على القبيلة فيقول: «**يا بنى فلان، إنى رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا وأن تصدقونى وتمنعونى، حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به**» وإذا فرغ من مقالته قال الآخر، من

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (١/ ٢٥١ : ٢٦٠).

خلفه: يا بنى فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيس، إلى ما جاء به من البدعة والضلة، فلا تسمعوا له وتتبعوه.

فقلت لأبى: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب.

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1].

روى البخارى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبى -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى البطحاء فصعد الجبل، فنادى: «**يا صباحاه**». فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى؟**» قالوا: نعم. قال: «**فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبًّا لك. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وفى رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

من أول يوم ينفرد هذا الكافر بالكيد للرسول -صلى الله عليه وسلم- وتتبع خطوه، والرد على مقالته، فأفرد الله ذكره، وشهره بكنيته دون بقية صناديد الكفر من قريش.

ولما قال للرسول -صلى الله عليه وسلم-: تبًّا لك وقام ينفض يديه، فتتنزل السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبى لهب وامرأته، وتولى الله سبحانه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر المعركة.

قال: تبًّا لك، فكان الجزاء: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.. دعاءٌ بدعاء، ولفظٌ بلفظ.

---

(١) سورة المسد: ١-٥.

نفض يديه، فجاء ذكر اليدين: ﴿تَبَّتْ يَدَا﴾.. واحدة بواحدة.. يداك أو كتا وفوك نفخ أبا لهب.

سائر اليوم: سائر الدهر وأنت بعد فى دار الدنيا ﴿وَتَبَّ﴾.

ولم يقيض الله له ولا لامرأته أن يؤمنا، ولا لواحد منهما ولا ظاهرًا ولا باطنًا، ولا سرًّا، ولا معلنًا؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ تباب وهلاك وبوار وقطع.. فى آية قصيرة واحدة، تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهى المعركة، ويسدل الستار!

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبى طالب على حماية النبى -ﷺ- ولو لم يكونوا على دينه؛ تلبية لدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشًا، وكان معهم فى الصحيفة التى كتبوها بمقاطعة بنى هاشم، وتجويعهم كى يسلموا لهم محمدًا -ﷺ-، وكان قد خطب بنتى الرسول -ﷺ- رقية وأم كلثوم، لولديه قبل بعثة النبى -ﷺ- فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما، حتى يثقل كاهل محمد بهما!

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعنى ولده، وروى عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله. لما دعا الرسول -ﷺ- قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخى حقًّا، فإنى أفتدى نفسى يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى. قال الله -عز وجل- لنبيه محمد -ﷺ-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[1].

عن عطاء: نزلت فى أبى لهب، وذلك حين مات ابن الرسول -ﷺ-، فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بتر محمد الليلة. فأنزل الله فى ذلك ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

---

(١) سورة الكوثر: ٣.

والجزاء من جنس العمل.

قال القاسمى:

قال الشـهاب: والذى صحـحه أهل الأثر أن أولاده -لعنه الله- ثلاثة: معتب، وعتبة، وهما أسلما، وعُتيبة -مصغرًا- وهذا هو الذى دعا عليه النبى -ﷺ- لما جاهر بإيذائه وعداوته، وردّ ابنته وطلقـها. وقال صلوات الله عليه وسلامه: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**». وفيه يقول حسان -رضي الله عنه-:

من يرجع العام إلى أهله　　　فما أكيل السَّبع بالراجع

قال ابن كثير:

روى ابن عسـاكر فى ترجمـة عتبـة بن أبى لهب من طريق محـمد بن إسحـاق عن هبار بن الأسـود قال: كان أبو لـهب وابنه عتبـة قد تجـهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلق إلى محمد ولأوذينه فى ربه -سبحـانه- فانطلق حتى أتى النبى -ﷺ- فقـال: يا محمـد، هو يكفر بالذى دنا فتـدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. فـقال النبى -ﷺ-: «**اللهم، ابعث إليه كلبًا من كلابك**». ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه، فقال: يا بنى ما قلت له؟. فذكـر ما قال له، قال: فـما قال لك؟. قـال: اللهم، سلط عليه كلبًا من كلابك. قال: يا بنى والله ما آمن عليك دعاءه.

وفى رواية عروة بن الزبير: أن عتبة بن أبى لهب وكان تحته بنت رسول الله -ﷺ- أراد الخـروج إلى الشام، فـقال: لآتين مـحمـدًا فلأوذينه. فـأتاه فقال: يا مـحمد، هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالـذى دنا فتدلى، ثم تفل فى وجه رسول الله -ﷺ- وردّ عليه ابنتـه وطلقها، فقـال رسول الله -ﷺ-: «**اللهم، سلط عليـه كلبًا من كـلابك**» وكان أبو طالب حـاضرًا، فـوجم لها وقـال: ما كـان أغناك يابن أخى عن هـذه الدعوة، فـرجـع عـتبـة إلى أبيـه فأخبره.

فسرنا حتى نزلنا الشراة(١)، وهى مأسدة(٢)، فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال: يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم، فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى وإن هذا الرجل قد دعا على ابنى دعوة، والله ما آمنها عليه، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها ثم افرشوا حولها، ففعلنا فجاء الأسد فشمّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد؛ تقبض، فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزمة(٣) ففضح(٤) رأسه، فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد.

فانظر أخى يرحمك الله.. لما تفل فى وجه رسول الله -ﷺ- أتى الأسد، فشم وجهه، وفضح رأسه، لم يأكله من يديه أو رجليه، وإنما وجه بوجه..

بصق فى وجه نبى... وفضح فى رأس شقى، ومعذرة لرسول الله -ﷺ-.

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل السيف أمضى من العصا

فابن أبى لهب لا يناسبه إلا كلب.

وهل أغنى عنه ولده يوم موته...؟!

فهل الجزاء إلا من جنس العمل!؟

قال أبو رافع مولى رسول الله -ﷺ-: رماه الله بالعدسة فقتلته، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش تتقى هذه العدسة، كما تتقى الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما، ألا

---

(١) الشراة: صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول -ﷺ-. وفى اللسان: موضع تنسب إليه الأسد. يقال للشجعان: ما هم إلا أسود الشرى، والشرى طريق فى سلمى كثير الأسد.

(٢) الأرض كثيرة الأسود.

(٣) أى ضربه ضربة.

(٤) أى شدخه.

تستحـيان أن أباكما قـد أنتن فى بيته لا تدفنانه؟ فقالا: إنـا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكمـا عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احـتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدارٍ، ثم رخموا عليه بالحجارة.

عن أم المؤمنين عـائشة -رضي الله عنها- أنهـا كـانت لا تمر على مكان أبى لهب هذا، إلا تسترت بثوبها حتى تجوز.

﴿سَيَصْلَىٰ نَـارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

من للأحول غير أم قبيح، أم جميل العوراء.

قال ابن العربى: العوراء أم قبيح وكانت عوراء، من لها غير أبى النار، أبى لهب؟! حقق الله نـسبه، لقـد صرفهم الله على أن يقـولوا: أبو النور.. وأبو الضياء، الذى هـو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجـرى على ألسنتهم أن يضيفـوه إلى لهب، الذى هو مخصـوص بالمكروه والمذموم وهو النار، ثم حقق ذلك بأن يجعلها مَقَرّه.

قال ابن كثير عن أم جميل:

كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه فى عذابه فى نار جهنم، ولهذا قال: ﴿حَمَّالَـةَ الْحَطَـبِ ﴿٤﴾ فِـي جِيـدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعنى: تحمل الحطب فتلقى على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهى مهيأة لذلك، مستعدة له.

والجزاء من جنس العمل.

﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ عن مجـاهد وعكرمة، والحسن، وقتـادة، والثورى، والسدى: كانت تمشى بالنميمة.

وعن عباس، وعطية الجدلى، والضحاك، وابن زيد، كانت تضع الشوك فى طريق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، واختاره ابن جرير.

قال الإمام ابن جرير:

وأولى القولين فى ذلك بالصواب عندى هو قــول من قال: كانت تحمل الشوك، فتطرحه فى طريق رسول الله -ﷺ-؛ لأن ذلك أظهر.

قال الربيع: فكان النبى -ﷺ- يطؤه كما يطأ الحرير.

ومثلما حــملت الشوك والعضاة تطرحــه فى طريق رسول الله -ﷺ-، فكذا تحمل الحطب تطرحه على زوجها فى النار جزاءً وفاقًا، قال قتادة وغيره: كانت تُعيِّر رسول الله -ﷺ- بالفقر، ثم كانت مع كـثرة مالها تحمل الحطب لشدة بخلها، فعُيِّرت بالبخل.

بل كان موتها بجنس عملها.

قال مرة الهمدانى: كانت أم جميل تأتى كل يوم بإبالة[١] من الحسك[٢] فـتطرحهـا فى طريق المسلمين، فـبينمـا هى حاملة ذات يوم حُـزمة أَعْـيَت، فقعــدت على حجر لتستريح، فجذبها المـلك من خلفها فأهلكهـا خنقها الله بحبلها.

قال سعـيـد بن جـبيـر: حمـالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فـلان يحتطب على ظهره، دلـيله قوله تعالى: ﴿وَهُـمْ يَحْمِلُــونَ أَوْزَارَهُــمْ عَـلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[٣]. ولا يظلم ربك أحدًا. والجزاء من جنس العمل.

﴿فِي جِيدِهَا[٤] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

قال سعــيد بن المسيِّب: كانت لها قـلادة فاخرة، فقالــت: لأنفقنها فى عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلاً فى جيدها من مسد النار.

وعن الثورى: هى قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا. والجزاء من جنس العمل.

يقول سيد قطب فى الظلال:

---

(١) الإبالة: الحزمة الكبيرة.

(٢) الحسك: نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم، وهو السعدان.

(٣) سورة الأنعام: ٣١ . (٤) الجيد: العنق.

أبو لهب ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ستصلاها وفى عنقها حبل من مسد، تناسق فى اللفظ، وتناسق فى الصورة، فجهنم هى نار ذات لهب، يصلاها أبو لهب، وامرأته تحمل الحطب وتلقيه فى طريق محمد لإيذائه، والحطب مما يوقد به اللهب، وهى تحزم الحطب بحبل، فعذابها فى النار ذات اللهب، أن تُغل بحبل من مسد؛ ليتم الجزاء من جنس العمل.

وانظر يا أخى، مثلما أراد أن ينغصا عيش رسول الله -ﷺ- بتطليق ابنتيه وتتبعه فى المجالس بتكذيبه، مثلما أثارا حربًا شعواء على النبى -ﷺ-، وعلى الدعوة لا هوادة فيها ولا هدنة، انظر إلى وقع السورة فى نفس أم جميل، التى ذعرت لها وجُن جنونها، وحسبت أن الرسول -ﷺ- قد هجاها بشعر، وبخاصة حين انتشرت هذه السورة، وما تحمله من تهديد ومذمة، وتصوير رزى لأم جميل خاصة، تصوير يثير السخرية، من امرأة معجبة بنفسها، مُدلَّة بحسبها ونسبها، ثم ترتسم لها هذه الصورة ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فى هذا الأسلوب القوى الذى يشيع عند العرب.

عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة وفى يدها فهر[1]، وهى تقول:

مذممًا أبينا

ودينه قلينا

وأمره عصينا

ورسول الله -ﷺ- جالس فى المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول الله -ﷺ-: «**إنها لن ترانى**» وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ

---

(١) أى: حجر أملس.

﴿الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(1) فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر، ولم تر رسول الله -ﷺ-، فقالت: يا أبا بكر، إنى أخبرت أن صاحبك هجانى؟ قال: لا، ورب هذا البيت ما هجاك. فولت، وهى تقول: قد علمت قريش إنى ابنة سيدها. قال: وقال الوليد فى حديثه، أو غيره: فعثرت أم جميل مرطها وهى تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم. فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إنى لحصان فما أُكلم، وثقاف(2) فما أُعلم، وكلنا من بنى العمِّ، وقريش بعد أعلم.

وروى الحافظ عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وجاءت امرأة أبى لهب ورسول الله -ﷺ- جالس ومعه أبو بكر، فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشىء. فقال رسول الله -ﷺ-: «**إنه سيحال بينى وبينها**»، فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر، فقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما نطق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمصدق. فلما ولت قال أبو بكر -رضي الله عنه-: ما رأتك؟. قال: «**لا ما زال ملك يسترنى حتى ولت**».

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق من سيرورة هذا القول الذى حسبته شعرًا، وكان الهجاء لا يكون إلا شعرًا مما نفاه أبو بكر، وهو صادق، ولكن الصورة المزرية المثيرة للسخرية التى شاعت فى آياتها قد سجلت فى الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضًا، تنطق بغضب الله وحربه أبى لهب وامرأته.

[28] نهاية الوليد بن المغيرة قبحه الله(3)

شيخ أهل الكفر وأشد الناس عداوة لرسول -ﷺ-

قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿10﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿11﴾ مَنَّاعٍ

(1) سورة الإسراء: 45.

(2) جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والثبات والسخرية.

(3) «الجزاء» (1/ 265 : 274).

للخير معتد أثيم ﴿١٢﴾ عتل بعد ذلك زنيم ﴿١٣﴾ أن كان ذا مال وبنين ﴿١٤﴾ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴿١٥﴾ سنسمه على الخرطوم ﴾[1].

قال سيد قطب:

وقد قيل: إنه الوليد بن المغيرة، وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا.. ﴾[2] الآيات.

ورويت عنه مواقف كثيرة فى الكيد لرسول الله -ﷺ-، وإنذار أصحابه، والوقوف فى وجه الدعوة، والصد عن سبيل الله.

وهذه الحملة القرآنية العنيفة فى هذه السورة، والتهديدات القاصمة فى السورة الأخرى وفى سواها، شاهدٌ على شدة دوره -سواء كان هو الوليد أو الأخنس، والأول أرجح- فى حرب الرسول والدعوة، كما هى شاهد على سوء طويته وفساد نفسه، وخلوها من الخير.

فهو ﴿ زنيم ﴾، وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة فى عدو من أعداء الإسلام، وما يعادى الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم.

والزنيم من معانيه: اللصيق فى القوم، لا نسب له فيهم، أو أن نسبه فيهم ظنين. ومن معانيه الذى اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره، والمعنى الثانى هو الأقرب فى حالة الوليد بن المغيرة، وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينًا فى القوم، وهو المختال الفخور.

ومن ثم يجىء التهديد من الجبار القهار، يلمس فى نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه، ويسمع وعد الله القاطع: ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾...

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير.

---

(١) سورة القلم: ١٠-١٦.

(٢) سورة المدثر: ١١.

الأول: الوسم كما يوسم العبد..

والثاني: جعل أنفه خرطومًا كخرطوم الخنزير...

إنها القاصمة التى يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم.

قال الفخر الرازى:

﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ إن فى الآية احتمالاً آخر عندى، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ فى عداوة الرسول، وفى الطعن فى الدين الحق بسبب الأنفة والحمية.

فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية، كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبّر عن هذا الاختصاص بقوله: ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾.

قال ابن عباس: سنحطمه بالسيف، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش.

قال ابن كثير:

قال ابن جرير: سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه، ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم، وهكذا قال قتادة: ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه، وفى رواية عنه: سنسمه سيمًا على أنفه، وكذا قال السدى، وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف فى القتال، وقال آخرون سنسمه سمة أهل النار، يعنى: نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم، وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة.

من مات همازًا لـمّازًا ملقبًا للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين.

قال العوفى عن ابن عباس: يقال: هو الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة، وزعم أناس من بنى زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهرى، وليس به.

وقال الرازى: فى مفاتيح الغيب:

وهذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان له عشرة من البنين، وكان يقول لهم وما قاربهم: لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشىء أبدًا، فمنعهم الإسلام.

وعن ابن عباس: أبو جهل، وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث، وعن السدى: الأخنس بن شريق.

قال البقاعى:

لما كان هذا المذكور قد أغرق فى الشر، فتوقع السامع جزاءه، قال معلمًا أنه يجعل له من الخزى والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق فى الدنيا والآخرة ﴿سَنَسِمُهُ﴾ أى: نجعل ما يلحق به من العار فى الدارين كالوسم الذى لا ينمحى أثره، تقول العرب: وسمه ميسم سوء، ولما كان الوسم منكئًا، وكان جعله فى موجع لا يُستر أنكأ، وكان الوجه أشرف ما فى الإنسان، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة.

﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أى: الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين، وسمًا مستعليًا عليه بوضوح جدًا؛ ليكون هتكه بين الناس وفضيحة لقومه، وذلاً وعارًا، وكذا كان لعمرى له بهذا الذكر الشنيع، والذنب القبيح من الكفر وما معه، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا، على أنه حقق فى الدنيا هذا الخطم حسًّا بأنه ضُرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه.

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا

عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ (١).

يقول الشيخ سيد قطب: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾. التصعيد فى الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقًا، فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المصعَّد كان أكثر مشقة، وأعظم إرهاقًا، وهو فى الوقت ذاته تعبير عن حقيقة، فالذى ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الورود، يندبُّ فى طريق وعرٍ شاقٍّ مبتوت؛ ويقطع الحياة فى قلق وشدة وكربة وضيق، كأنما يصَّعَّد فى السماء، أو يصَّعَّد فى وعر صلد، لا رى فيه ولا زاد، ولا راحة ولا أمل فى نهاية الطريق!.

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية، والرجل يكد ذهنه! ويعصر أعصابه! ويقبض جبينه! وتكلح ملامحه وقسماته، كل ذلك ليجد عيبًا يعيب به هذا القرآن، وليجد قولاً يقوله فيه؛ جدّ مصطنع، متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء، وبعد هذا المخاض كله؛ وهذا الحزق كله، لا يفتح عليه بشىء، إنما يدبر عن النور، ويستكبر عن الحق.

إنها لمحات تدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر، وتثبت صورته الرزية فى صلب الوجود، تتملاها الأجيال بعد الأجيال.

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات، عقب عليها بالوعيد المفزع: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.. وزاد هذا الوعيد تهويلاً بتجهيل سقر، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ إنها شىء أعظم وأهول من الإدراك، ثم عقب على التجهيل بشىء من صفاتها أشد هولاً: ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ فهى تكنس كنسًا، وتبلع بلعًا، وتمحو محوًا، فلا يقف لها شىء، ولا يقف وراءها شىء ولا يبقى وراءها شىء، ولا يفضل منها شىء!

هذا دين رفيع، لا يُعرض عنه إلا مطموس، ولا يعيبه إلا منكوس.

---

(١) سورة المدثر: ١١-٢٩.

قال القاسمى:

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى أحد رؤساء قريش -لعنه الله- وكان من خبره ما رواه ابن إسحاق، أن الوليد بن المغيرة، اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا رأيًا واحدًا ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا، قالوا: فأنت، يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأيًا نقل به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: لا. والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفنا، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر - قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله؛ إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه: وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة فى ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا..﴾ الآيات.

وعن قتادة: قال الوليد: لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله الآيات. رواه ابن جرير.

قال محمد الطاهر بن عاشور:

كـان الوليد بن المغـيرة، يلقب فـى قريش بالوحـيد، لتـوحده وتفـرده باجتماع مـزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته، وهى كـثرة الولد، وسعة المال، ومجده ومجـد أبيه من قبله، وكان مرجع قـريش فى أمورهم؛ لأنه كان أسن من أبى جهل وأبى سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيـرة المشتهر به. وجاء هذا الوصف بعد فـعل: خلقت. ليُصرف هذا الوصف عما كان مرادًا به؛ أى أوجدته وحيدًا عن المال والبنين والبسطة، فيغير عن غرض المدح والثناء الذى كانـوا يخصونه به إلى غرض الافتقار إلى الله الذى هو حالُ كل مخلوق.

عن ابن عباس: كان مـال الوليد بين مكة والطائف من الإبل، والغنم، والعبيد، والجوارى، والجنان، وكانت غلة ماله ألف دينار فى السنة.

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ تيسيـر أموره، ونفاذ كلمته فى قـومه، بحيث لا يعسر عليه مطلب. ولا يستعصى عليه أمر.

وأكد ﴿ مَهَّدتُّ ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقـة؛ ليتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ ثم للتراخى الرتبى، أى وأعظم من ذلك أنه يطمع فى الزيادة من تلك النِّعم.

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ وإبطالٌ لطمعه فى الزيادة من النعم، وقطع لرجائه.

والمقصـود إبلاغ هذا إليه، مع تطمين النبى -ﷺ- بأن الوليد سـيقطع عنه مدد الرزق.

من لم يشكر النعم فـقـد تعرض لزوالـها، ومن شكرها فـقـد قيـدها بعقالها. عوقب بنقيض قصده.

ثم قال الشيخ الطاهر بن عاشور:

الصَّعود: العقبة الشديدة التصعد الشاقة على الماشى، وهى فعول مبالغة

من صعد، فإن العقبة صعدة، فإذا كانت عقبة أشد تصعداً من العقبات المعتادة قيل لها: صعود.

وقوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ تمثيل لضد الحالة المحملة فى قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أى سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى سوأى فى الدنيا، ثم إلى العذاب الأليم فى الآخرة، وكل ذلك إرهاق له.

قيل: إن طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت، وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا.

قال ابن كثير:

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ قال قتادة عن ابن عباس: صعوداً صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السدى: صعوداً صخرة ملساء فى جهنم يكلف أن يصعدها.

وقال مجاهد: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أى مشقة من العذاب، وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه، واختاره ابن جرير.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾: أى إنما أرهقناه صعوداً لبعده عن الإيمان؛ لأنه فكر وقدر أى وتروى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال.

وقال ابن كثير أيضاً:

خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذى من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام. قال: أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل بيته فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟. فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتى؟ فلا

والله لا أقرب ابن أبى قحافة ولا عمر ولا ابن أبى كبشة، وما قوله إلا بسحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله -ﷺ-: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ قال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال قتادة: أى حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقال قتادة:

قال البقاعى فى نظم الدرر:

أكملت له من سعادة الدنيا ما أوجب التفرد فى زمانه من أهل بيته وفخذه، بحيث كان يسمى: الوحيد، وريحانة قريش. فلم يرع هذه النعمة العظيمة، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا﴾ لم يزد بعد ذلك شيئًا، بل لم يزل فى نقصان حتى هلك، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾[1]. ليرتدع عن هذا الطمع، وليزدجر وليرتجع، فإنه حمق محض، وزخرف بحت، وغرور صرف.

﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ أى: بالغ العناد، على وجه لا يعد عناده لغيرها، بسبب مزيد قبحه عنادًا.

والعناد، كما قال الملوى: من كبر فى النفس، أو يبس فى الطبع، أو شراسة فى الخلق، أو خبل فى العقل، وقد جمع ذلك كله إبليس.

لما كان العناد غلظة فى الطبع، أو شكاسة فى الخلق يوجب النكد والمشقة جعل جزاءه من جنسه، فقال: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أى: ألحقه بعنف وغلظة وقهر، إلحاقًا يغشاه ويحيط به وعيدًا لا خلف فيه.

﴿صَعُودًا﴾ أى: شيئًا من الدواهى والأنكاد. كأنه عقبة.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ حاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها، سكت ألفًا ونطق خلفًا، فكان شبيهًا من بعض الوجوه بما قاله بعضهم:

---

(١) سورة الأنعام: ١١٥ .

لو قيل خمس وخمس لاغتدى	يومًا وليلته بعدُّ ويحسبُ
ويقول معضلة عجيبٌ أمرها	ولئن عجبت لها لأمرٍ أعجبُ
حتى إذا خدرت يداه وغُورت	عيناه مما قد يخطٍّ ويكتبُ
أوفى على شرف وقال ألا انظروا	ويكاد من فرح يجن ويسلبُ
خمس وخمس ستة أو سبعة	قولان قالهما الخليل وثعلبُ

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أى: الدركة النارية، التى تفعل فى الأدمغة من شدة حموها ما يجل عن الوصف، فأدخله إياها، وألوحه فى الشدائد حرُّها، وأذيب دماغه بها، وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها، جزاءً على تفكيره هذا. الذى قدره، وتخيله وصوّره بإرادته فى طبقات دماغه؛ ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه.

[٢٩] نهاية أبى جهل «فرعون هذه الأمة»(١)

قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(٢).

قبل بدر لما نجا أبو سفيان بعير قريش، ولما ترك بدرًا بيسار، نزلت قريش بالجحفة.

يقول ابن إسحاق:

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم تمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام، والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا -وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا.

---

(١) انظر «الجزاء من جنس العمل» (١/٢٤٨: ٢٥٠).

(٢) سورة الأنفال: ٤٧ .

فكان جـزاؤهم من جنس عـملـهم، وصـاروا حـديث الناس فى الذل والهوان.

روى الإمام أحمـد عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جـهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بمـا لا نعرف، فأحنه[1] الغداة، فكان هو المستفتح.

قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال الآمدى عن مطرف فى قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾. قال: قال أبو جهل: اللهم أعن أعز الفئتين، وأكرم القبيلتين، وأكثر الفريقين، فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا..﴾ الآية.

وقال الطبـرانى عن رفاعة بن رافع قال: لما رأى إبليس مـا فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر، أشفق أن يُخلص إليه، فـتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك، فوكـز فى صدر الحارث، ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه فى البحر، ورفع يديه فقال: اللهم إنى أسألك نظرتك إياى. وخاف أن يخلص القـتل إليه، وأقـبل أبو جهل فـقال: يا معـشر الناس، لا يهـولنكم خذلان سراقة بن مـالك، فإنه كان على ميعاد من محـمد، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد، فـإن عجلوا فواللات والعزى، لا نرجع حتى نفرقهم فى الجبال، فـلا ألفين رجـلاً منكم قـتل رجـلاً، ولكن خذوهـم أخذًا، حـتى تُعرِّفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللات والعزى، ثم قال أبو جهل متمثلاً:

مـا تنقم الحـرب الـشـمـوس منِّى
باذل عــامين حــديـث سنِّ
لمـثـل هـذا ولـدتـنـى أمـى

(١) أى: اجعل حينه غدًا.

(٢) سورة الأنفال: ١٩ .

فانظر كيف كان جزاء هذا المنتفخ من جنس عمله:

روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال: إنى لفى الصف يوم بدر، إذا التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن لمكانهما، حتى قال لى أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم، أرنى أبا جهل. فقلت: يا ابن أخى، ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله، أو أموت دونه. وقال لى الآخر سرًّا من صاحبه مثله. قال: فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين، حتى ضرباه وهما ابنا عفراء.

وفى الصحيحين أيضًا: من حديث أنس قال: قال رسول الله -ﷺ- «**من ينظر ماذا صنع أبو جهل؟**». قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله. فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء، حتى برد. قال: فأخذ بلحيته، قال: فقلت: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتلتموه، أو قال: قتله قومه.

وعند البخارى: عن ابن مسعود: أنه أتى أبا جهل فقال: هل أخزاك الله؟. فقال هل أعمد[1] من رجل قتلتموه.

وقال الأعمش عن ابن إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله قال: انتهيت إلى أبى جهل وهو صريع وعليه بيضة، ومعه سيف جيد، ومعى سيف ردىء فجعلت أنقف[2] رأسه بسيفى، وأذكر نقفًا كان ينقف رأسى بمكة، حتى ضعفت يده، فأخذت سيفه، فرفع رأسه فقال: على من كانت الدائرة لنا أو علينا؟ ألست رويعينا[3] بمكة؟. قال: فقتلته ثم أتيت النبى -ﷺ- فقلت: قتلت أبا جهلٍ. فقال: «**والله الذى لا إله إلا هو؟**» فاستحلفنى ثلاث مرات، ثم قام معى إليهم فدعا عليهم.

فكان جزاؤه من جنس قوله، بل ومن جنس عمله، فنقف ابن مسعود بالسيف فى رأسه مثلما فعل به فى مكة.

---

(١) أى: أعجب.

(٢) أى: أضرب.

(٣) تصغير «راعى».

[٣٠] نهاية الهالك أبى بن خلف
على يد رسول الله -ﷺ-(١)

عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه**» -يشير إلى راعيته- اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله -ﷺ- فى سبيل الله(٢).

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «اشتد غضب الله على مَنْ قتله النبى فى سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه نبى الله -ﷺ-»(٣).

قال ابن إسحاق: كان أبى بن خلف يلقى رسول الله -ﷺ- بمكة، فيقول: يا محمد، إن عندى العوذ، فرسًا أعلفه فى كل يوم فرقًا(٤) من ذرة، أقتلك عليه، فيقول رسول الله -ﷺ-: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**».

قال ابن كثير:

عن عروة بن الزبير قال: كان أُبى بن خلف أخو بنى جمع، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله -ﷺ-، فلما بلغت رسول الله -ﷺ- حلفته قال: «**بل أنا أقتله إن شاء الله**». فلما كان يوم أحد أقبل أُبى فى الحديد مقنعًا، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله -ﷺ- يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار يقى رسول الله -ﷺ- بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله -ﷺ- ترقوة أبى ابن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها بالحربة، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه، وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك، إنما هو خدش؟. فذكر لهم قول رسول الله -ﷺ-: «**أنا أقتل أُبيًّا**». ثم قال: والذى نفسى بيده. لو كان هذا

---

(١) «الجزاء» (١/ ٢٦١: ٢٦٣).

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه البخارى.

(٤) بفتح الراء وإسكانها: مكيال يسع تسعة عشر منا، وقيل: اثنا عشر منا.

الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون. فمات إلى النار ﴿فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

وقد رواه موسى بن عقبة فى مغازيه عن الزهرى عن سعيد بن المسيب نحوه، وقال ابن إسحاق: لما أسند رسول الله -ﷺ- فى الشعب أدركه أُبى ابن خلف، وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوت. فقال القوم: يا رسول الله، يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله -ﷺ-: «دعوه». فلما دنا منه، تناول رسول الله -ﷺ- الحربة من الحارث بن الصُمّة فقال بعض القوم -كما ذكر لى- فلما أخذها رسول الله -ﷺ- انتفض انتفاضة تطايرنا عنه، تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفضه، ثم استقبله رسول الله -ﷺ-، فطعنه فى عنقه تدأدأ منها مراراً.

لما رجع إلى قومه، وقد خدشه الرسول -ﷺ- بالحربة خدشًا غير كبير، قال: قتلنى والله محمد. قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس. قال: إنه قد كان قال بمكة: أنا أقتلك فوالله، لو بصق علىّ لقتلنى، فكان هذا الشقى هو الوحيد الذى قتله رسوله الله -ﷺ- بيده الكريمة.

فكان جزاؤه من جنس قوله للرسول -ﷺ- بمكة.

قال حسان:

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أُبىٌّ يوم بارزه الرسولُ
أتيت إليه تحمل رِمَّ عظمٍ ... وتُوعِدُهُ وأنتَ به جهولُ

وقال أيضًا:

ألا من مُبْلغُ عنى أُبيّا ... فقد أُلقيت فى سحق السعير
تُمَنِّى بالضلالة منْ بعيد ... وتقسمُ إن قدرت مع النذور
تُمنّيك الأمانى مَن بعيدً ... وقول الكفر يرجع فى غرور
فقد لاقتك طعنة ذى حفاظ ... كريم البيت ليس بذى فجور
له فضل على الأحياء طُراً ... إذا نابت مُلِمَّاتُ الأمورِ

---

(1) سورة الملك: ١١ .

[٣١] نهاية عقبة بن أبى معيط

وضع رجله على عنق النبى -ﷺ- فقطعت عنقه[١]

هذا الشقى الذى آذى رسول الله -ﷺ-، وانفرد بما لم يفعله أحد، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله -ﷺ-، فقطعت عنقه جزاء وفاقًا.

قال ابن إسحاق فى أسرى بدر، وعن عقبة بن أبى معيط وكيف قتل صبراً.

قال عقبة، حين أمر رسول الله -ﷺ- بقتله: فمن للصبية يا محمد؟. قال: «**النار**». وكان الذى قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وكذا قال موسى بن عقبة فى مغازيه.

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت، قال: يا معشر قريش علام أقتل مِن بين من هنا؟ قال على عداوتك لله ورسوله.

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبى قال: لما أمر النبى -ﷺ- بقتل عقبة قال: أتقتلنى يا محمد، من بين قريش؟ قال: «**نعم، أتدرون ما صنع هذا بى، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة، فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى**».

قال ابن هشام: بل قتل عقبة على بن أبى طالب، فيما ذكره الزهرى وغيره من أهل العلم.

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ، وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله -ﷺ-.

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (١/ ٢٦٠).

[٣٢] نهاية عبد الله بن قمئة أقمأه الله(١)

عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من رَمَّى وجه رسول الله -ﷺ-.

قال ابن حجر:

ومجموع ما ذكر فى الأخبار أنه شُج وجهه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته.

وعند ابن هشام من حديث أبى سعيد الخدرى: أن عبد الله بن قمئة جرحه - أى الرسول -ﷺ- فى وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المِغفر فى وجنته -ﷺ-.

فماذا كان جزاء هذا الشقى؟!

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر: إن الذى رمى رسول الله -ﷺ- بأحد، فجرحه فى وجهه، قال: خذها منى وأنا ابن قمئة، فقال: «**أقمأك الله**». قال فانصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع.

وفى الطبرانى، من حديث أبى أمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله -ﷺ- يوم أحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله -ﷺ-، وهو يمسح الدم عن وجهه: «ما لك، أقمأك الله».

فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعةً قطعةً.

وكان جزاؤه من جنس عمله.

فانظر رحمك الله.. لم يرسل الله عز وجل إلى ابن قمئة ملكًا؛ لينتقم

---

(١) «الجزاء» (١/ ٢٦٣ : ٢٦٤).

لنبيه -ﷺ-، وإنما سلط عليه تيسًا قطعه، وألقاه من فوق الجبل، لهوانه على الله.

يا لذل قزم تطاول على النبى -ﷺ-، وشج وجهه، فأخزاه الله، وقطعه تيس.. وتردى من فوق الجبل إلى الهاوية، ليخزى فى الدنيا والآخرة.

[٣٣] نهاية بنى النضير -عليهم لعنة الله-(١)

قال ابن إسحاق: خرج رسول الله -ﷺ- إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية للعهد الذى كان رسول الله -ﷺ- أعطاهما، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عهد وحلف، فلما أتاهم -ﷺ- قالوا: نعم، نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه -ورسول الله -ﷺ- إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد- فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت؛ فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة، كما قال، ورسول الله -ﷺ- فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبى -ﷺ- أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله -ﷺ- حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به. قال الواقدى: فبعث رسول الله -ﷺ- محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق، يثبتونهم، ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم النصر؛ فقويت عند ذلك نفوسهم وحمى حيى بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.

---

(١) «الجزاء» (١/ ٣٤١ : ٣٤٣).

قال ابن إسحاق: فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال. وتحصنوا فى الحصون. فأمر رسول الله -ﷺ- بالشروع فى إتلاف وإحراق اللينة، أردأ أنواع نخيل اليهود الذى لا يقتاتون منه، وهو نوع يخالف العجوة والبرنى الذى كان الغذاء الرئيسى لأهل المدينة، ولم يكد اليهود الدخان يتصاعد وفروع هذه النخيل تتساقط حتى دخلهم الذعر فنادوا أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه، فما بال النخيل وتحريقها؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾[1].

ولم يستمر اليهود فى المقاومة طويلاً، فقد خارت قواهم؛ إذ لم يمض على ضرب الحصار أكثر من عشرين يومًا حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبى -ﷺ- للتفاوض.

وكانت نهاية التفاوض اتفاقية الجلاء. أن يجلو يهود بنى النضير عن منطقة يثرب جلاءً تامًا إلى أى مكان يشاءون.

أن يسلم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تمامًا.

لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله ما عدا السلاح، مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال.

بعد الذى يقدر اليهود على حمله من المال، يكون كل ما تبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئًا للمسلمين، وملكًا من أملاكهم.

على القيادة الإسلامية فى اليهود أن تضمن ليهود بنى النضير سلامة أرواحهم، ما داموا فى داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين.

وحملوا على الإبل ما يقدرون على حمله، حتى أن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب داره فيخلعها، ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق.

---

(١) سورة الحشر: ٥

أوقر اليهود ستمائة بعير من الأموال التى قدروا على حملها، خرجوا وكلهم رعب وغيظ يقول سلام بن أبى الحقيق، وقد حمل معه جلد ثور مملوء ذهبًا، فكان يضرب بيده على هذا الجلد ويقول: هذا الذى أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلاً، ففى خيبر النخل.

وكان اليهود يعمدون -عند مغادرتهم المدينة- إلى سُقُفِ بيوتهم وعُمُدها وجدرانها فينقضونها؛ لئلا يستفيد منها المسلمون.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(١).

هذه سنة الله فى إذلال المفسدين وقهرهم. فهؤلاء اليهود الذين غدروا وتحصنوا بحصونهم، ولشدة بأسهم ومنعتهم وشدة حصونهم وفرط وثوقهم بها اعتقدوا فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة، لا يبالون بأحد يطمع فى منازعتهم، فقذف الله فى قلوبهم الرعب، فجعلهم ﴿يُخْرِبُونَ﴾ أو كما قرأ أبو عمرو (يُخرّبون) بيوتهم، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل والمسلمون من خارج.

نقضوا بيوتهم كالحصون على أبواب الأزقة.

بداية غرتهم منعة الحصون حتى نسوا قوة الله التى لا تردها الحصون! فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، أتاهم من داخل أنفسهم، لا من داخل حصونهم. أتاهم من قلوبهم؛ فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم، فضلاً على أن يمتنعوا عليه ببنيانه وحصونه.

لقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم، فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت؛ يخربونها بأيديهم، ويمكنون المؤمنين من خرابها، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) سورة الحشر: ٢.

ليقف المشاقون لله ولرسوله، المخاليق الضئيلة الهزيلة تقف فى وجه الخالق يشاقونه. هل بعد هذا تبجح قبيح والله شديد العقاب؟!

أما الذى أراد رمى الحجر:

فقد ذكر ابن إسحاق: أن رسول الله -ﷺ- قال لليهودى الذى أسلم - يامين: ألم ترى ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأنى؟! فجعل يامين للرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتله، لعنه الله. والجزاء من جنس العمل.

لقد خزيت بغدرتها الحبور   كذاك الدهر ذو صرف يدور

[٣٤] نهاية كعب بن الأشرف لعنه الله[١]

روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله -ﷺ-: مَنْ لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: فأذن لى أن أقول شيئًا، قال: قل، فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عنّانا، وإنى قد أتيتك أستسلفك. قال: وأيضًا، والله لتملُّنّه. قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا. قال: نعم، أرهنونى. قلت: أى شىء تريد؟ قال: أرهنونى نساءكم. فقالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب. قال فأرهنونى أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال: رهن بوسق[٢] أو وسقين، هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللأمة، قال سفيان: يعنى السلاح. فواعده أن يأتيه ليلاً فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة -وهو أخو كعب من الرضاعة- فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ وقال غير عمرو قالت: أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخى محمد بن مسلمة

---

(١) «الجزاء» (١/ ٣٣٧ : ٣٤١).

(٢) أى: حمل بعير.

ورضيعى أبو نائلة. إن الكريم لو دُعى إلى طعنة بليل لأجاب. قال: ويدخل محمد بن مسلمة ومعه رجلان فقال: إذا ما جاء فإنى مائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرة: ثم أشمكم، فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا، أى: أطيب. وقال غير عمرو: عندى أعطر نساء العرب وأجمل العرب. قال عمرو: أتأذن لى فى أن أشم رأسك؟ قال: نعم: فشمه، ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لى؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم فقتلوه، ثم أتوا النبى -ﷺ- فأخبروه. قال محمد بن إسحاق: كان من حديث كعب بن الأشرف -وكان رجلاً من طيئ ثم أحد بنى نبهان، وأمه من بنى النضير- أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج إلى مكة، فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى، وعنده عاتكة بنت أبى العيص بن أمية بن عبد شمس، فأنزلته، وأكرمته، وجعل يحرض على قتال رسول الله -ﷺ- وينشد الأشعار، ويندب من قتل من المشركين يوم بدر، فذكر ابن إسحاق قصيدته التى أولها:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين، ويهجو النبى -ﷺ- وأصحابه.

وقال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف أحد بنى النضير أو فيهم قد آذى رسول الله -ﷺ- بالهجاء، وركب إلى قريش فاستغواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق: إنا نطعم الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال؟ فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلاً. قال: فأنزل الله على رسوله -ﷺ- ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا**

مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾[1].

قال موسى ومحمد بن إسحاق: وقدم للمدينة يعلن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله -ﷺ-، وجعل يشبب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين.

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله -ﷺ- كما حدثنى عبد الله بن المغيث ابن أبى بردة: مَنْ لابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «**فافعل إن قدرت على ذلك**»، قال: فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه، فذكر ذلك لرسول الله -ﷺ- فدعاه، فقال له: «**لم تركت الطعام والشراب؟**» فقال: يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدرى هل أفى لك به أم لا. قال: إنما عليك الجهد. قال: يا رسول الله، إنه لابد لنا أن نقول، قال: «فقولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك». قال: فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلامة بن وَقش، وهو أبو نائلة أحد بنى عبد الأشهل. وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وَقش أحد بنى عبد الأشهل، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بنى عبد الأشهل، وأبو عبس ابن جبر أخو بنى حارثة، قال: فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله كعب، سلكان بن سلامة أبا نائلة، فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرًا - وكان أبو نائلة يقول الشعر- ثم قال: ويحك يابن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى، قال: افعل.

قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجُهد عيالنا. فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك

---

(١) سورة النساء: ٥١، ٥٢.

يابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول؛ فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك، قال: ترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحابًا لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها. فقال: إن في الحلقة لوفاء. قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله -ﷺ-.

قال ابن إسحاق: فحدثني ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: مشى معهم رسول الله -ﷺ- إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم، وقال: «**انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم**»، ثم رجع رسول الله -ﷺ- إلى بيته، وهو في ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة، لو وجدني نائمًا ما أيقظني. فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر. قال: يقول لها كعب: لو دُعي الفتى لطعنة أجاب، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا: هل لك يابن الأشرف أن نتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم، فخرجوا فمشوا ساعة. ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه، ثم شم يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه، ثم قال: اضربوا عدو الله!

فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا. قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولاً في سيفي فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، قال فوضعته في ثُنية، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه أصابه بعض سيوفنا، قال: فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بُعاث، حتى أسندنا في حرة العريض وقد أبطأ

علينا الحارث بن أوس ونزف الدم، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا. فاحتملناه، فجئنا به رسول الله -ﷺ- آخر الليل وهو قائم يصلى، فسلمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله وتفل رسول الله -ﷺ- على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله؛ فليس بها يهودى إلا وهو خائف على نفسه.

وفى ذلك يقول كعب بن مالك:

فغودر منهم كعب صريعًا ... فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد ... علته بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلاً ... إلى كعب أخا كعب يسيرُ
فما كره فأنزله بمكرٍ ... ومحمود أخو ثقة جسور

أراد جمع الكفار على قتال رسول الله وقتله ونقض العهد؛ فكان جزاؤه من جنس عمله.

[٣٥] نهاية شيطان بنى النضير: حيى بن أخطب[1]

كان حيى بن أخطب عندما نجح فى حمل بنى قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين، قد تعهد لسيد بنى قريظة بأن يدخل معه حصنه؛ ليصيبه ما أصاب بنى قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب، دون أن تستأصل شأفة المسلمين، وتقضى عليهم قضاء تامًّا، وفعلاً، فقد وفَّى له حيى بذلك، فقد أتى الله به إلى حصون بنى قريظة ليجنى ثمار أعماله الشريرة، فبقى معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم.

قال ابن إسحاق، يصف موقف حيى بن أخطب ساعة إعدامه:

وأُتى بحيى بن أخطب -عدو الله- مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما

---

(١) «الجزاء» (١/ ٣٢٨ : ٣٢٩).

نظر إلى رسول الله -ﷺ- قال: أما والله ما لُمتُ نفسى فى عداوتك، ولكن من يخذل الله يخذله الله. وزاد السهيلى فى الروض الأنف: أن النبى -ﷺ- قال لحيى بن أخطب حين رآه موثقًا: ألم يمكنى الله منك؟ فقال: بلى، ولكن من يخذُلك يُخذل.

وحينما تقدم لضرب عنقه قال: يأيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه.

يقول جبل بن جوال الغطفانى، أحد شعراء اليهود:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكنه من يخذل الله يخذل

والجزاء من جنس العمل.

[٣٦] نهاية زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول[١]

قال البخارى فى باب قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٢].

عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: كنا فى غزاة فكسع[٣] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: ياللأنصار. وقال المهاجرين: يا للمهاجرين. فسَمَّعَها الله رسوله -ﷺ- قال: «**ما هذا**» فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: ياللأنصار، وقال المهاجرى: يا للمهاجرين. فقال -ﷺ-: «**دعوها فإنها مُنْتنةٌ**».

قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبى -ﷺ- أكثر ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أُبى: أو قد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

---

(١) «الجزاء» (٢٧٧ : ٢٨٢).

(٢) سورة المنافقون: ٨ .

(٣) المشهور فيه ضرب الدبر باليد أو بالرجل. وذلك عند أهل اليمن شديد.

وفى البخارى من حديث زيد بن أرقم قال: كنت فى غزاة فسمعت عبد الله بن أُبى يقول: لا تنفقوا على من عند رسـول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل.... الحديث.

كان ذلك فى غزوة بنى المصطلق من خـزاعة، وهى غزوة المريسيع وهو ماء من مياههم.

قال ابن إسحاق:

فبينا الناس على ذلك المـاء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيـر له من بنى غفار، يقال له: جـهجاه بن مسـعود يقود فرسـه، فازدحم جـهجـاه، وسنان بن دبر الجـهنى حليف بنى عـوف من الخـزرج على الماء، فاقـتتـلا فصـرخ الجهنى، يا مـعشر الأنصـار. وصرخ جـهجـاه: يا معـشر المهاجـرين. فغضب عبـد الله بن أُبى بن سلول وعنده رهط من قومه، فـيهم زيد بن أرقم، غلام حـدث. فقال: أو قـد فعلوها، قد نافـرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله مـا أعدُّنا وجلابيـب قريش[1] هذه إلا كـما قال الأول: تُسـمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليـخرجنَّ الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره مـن قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفـسكم، أحللتموهم بلادكم، وقـاسمـتمـوهم أمـوالكم، أما والله لو أمـسكتم عنهم مـا بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فـسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله -ﷺ- فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال عمر: مُر به عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله -ﷺ-: **«فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل»**. وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله -ﷺ- يرتحل فيهـا، فارتحل الناس وقد مشى عـبد الله بن أُبى بن سلول إلى رسول الله -ﷺ-، حيث بلغـه أن زيد بن أرقم بلغه ما سـمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان فى قومـه شريفًا عظيمًا، فقال من حضر رسول الله -ﷺ- من الأنصار من أصحـابه: يا رسول الله، عسى أن

---

(١) اسم كان يلقب به المنافقون أصحاب رسول الله -ﷺ- فى المهاجرين.

يكون الغلام أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا على ابن أُبى ودفعًا عنه، فلما استقل رسول الله -ﷺ- وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة، وسلم عليه وقال: يا رسول الله، والله لقد رحت فى ساعة منكرة، ما كنت تروح فى مثلها، فقال له رسول الله -ﷺ-: «**أو ما بلغك صاحبك؟**» أى صاحب يا رسول الله؟ قال: «**عبد الله بن أُبى**». قال: وما قال؟. قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل**». قال: فأنت والله يا رسول الله، تخرجه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز. قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه يرى أن قد سلبته ملكًا.

ثم مشى رسول الله -ﷺ- بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أُبى...

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله؟

قال ابن إسحاق:

حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أُبى بن سلول أتى رسول الله -ﷺ-، فقال: يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أُبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله، لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبَّر بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أُبى يمشى فى الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله -ﷺ-: «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقى معنا**». وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعلمونه، ويأخذونه، ويعنفونه، فقال رسول الله -ﷺ- لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله، لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له أنوف، لو أمرتها**

اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر: قد والله، علمت لأمر رسول الله -ﷺ- أعظم بركة من أمرى.

وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما، أن ابنه عبد الله -رضي الله عنه- وقف لأبيه عبد الله بن أُبى بن سلول عند مضيق المدينة، فقال: قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله -ﷺ- فى ذلك فلما جاء رسول الله -ﷺ- استأذنه فى ذلك، فأذن له، فأرسله حتى دخل المدينة.

وفى التفسير عند ابن كثير:

ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستلَّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى، قال له ابنه: وراءك. فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله، لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله -ﷺ- فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله -ﷺ-، وكان يسير ساقة[1] فشكا إليه عبد الله بن أُبى ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله، لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله -ﷺ- فقال: أمّا إذا أذن لك رسول الله -ﷺ- فجُز الآن.

وقال أبو بكر بن عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده:

قال هارون المدنى: قال عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول: رسول الله الأعز وأنا الأذل. قال: وجاء النبى -ﷺ-، فقال: يا رسول الله؟ إنه بلغنى أنك تريد أن تقتل أبى: فوالذى بعثك بالحق ما تأملتُ وجهه قط هيبة له، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك، فإنى أكره أن أرى قاتل أبى..

فانظر إلى رأس النفاق.. الذى لم يهد الله قلبه للإيمان، ولم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة، وتقف دون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير إحنة فى صدره؛ أن لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج؛ بسبب مقدم رسول

(١) أى: فى مؤخرة الجيش.

الله -ﷺ- إلى المدينة! فتكفه هذه وحدها عن الهدى.. ويقول ما قال، قولة يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة، فيكون جزاؤه من جنس عمله وقوله، على يد ابنه؛ ليتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل، فى نفس الواقعة وفى ذات الأوان ولم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز.

ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه، ويضفى عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله، وأى تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها نحن أولاء، هذا لواء الأعزاء، وهذا هو الصفُّ العزيز.

عزة مستمدة من عزته، لا تهون ولا تهن، ولا تنحنى ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن فى أوجِّ اللحظات، إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ، فالعزة معه مستقرة راسخة.

انظر إلى هذا الرجل الذى كان وجيهًا عند قومه، جاء إليه رسول الله -ﷺ- وهو على حمارة مر بها على طريق سبخة، وجعل يدعوه إلى الإيمان، وهو يقول له: ابعد عنى يا محمد، فإن رائحة حمارك تؤذينى، فيقول له ابن عم له، والله لريح حمار رسول الله أطيب من ريحك.

أى هوان كان هذا، وصدق الله العظيم إذ يقول عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾(1) أشباح وقوالب، ليس وراءهم ألبابٌ وحقائق كالجوز الفارغ، مزين ظاهره، ولكنه للعب الصبيان.

هذا الذى تولى كبره، وخاض فى عرض أم المؤمنين عائشة فى قصة الإفك، فقال الله -عز وجل- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(2) جزاءً وفاقًا كما استطالت.

ثم انظر إلى كرم الرسول -ﷺ- معه؛ ليدل ذلك على أن الجزاء من جنس العمل، ما يرويه ابن كثير فى البداية والنهاية. من أنه لما مات عبد الله

---

(1) سورة المنافقون: ٤.

(2) سورة النور: ٢٣، ٢٤.

ابن أُبى -قبحه الله- ألبسه رسول الله -ﷺ- قميصه. وفى صحيح البخارى: أنه إنما ألبسه قميصه؛ مكافأة له لما كان كسا العباس قميصًا حين قدم المدينة، فلم يجدوا قميصًا يصلح له إلا قميص عبد الله بن أُبى.

[٣٧] نهاية ملك خيبر: أسير بن زارم[١]

نصّبه اليهود ملكًا على خيبر خلفًا لأبى رافع، وجدّ أسير لشن حملة أحزاب جديدة على المسلمين فى المدينة، وحاول أن يصنع برسول الله -ﷺ- ما لم يصنعه قادة اليهود الذين سبقوه؛ فذهب إلى مناطق القبائل النجدية -غطفان وغيرها- وصار يتنقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية؛ يحرضها على حرب رسول الله -ﷺ- ويجمعها لغزو المدينة، وأرسل رسول الله -ﷺ- ثلاثين من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة، لأسير بن زارم برسالة شفوية تتضمن دعوة ملك اليهود للذهاب إلى المدينة لمقابلة النبى -ﷺ- بنفسه، لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يُبقيه النبى -ﷺ- أميرًا على خيبر، حيث قال له ابن رواحة: يا أُسير، إن رسول الله -ﷺ- بعثنا إليك لتخرج إليه، فيستعملك على خيبر ويحسن إليك.

وخرج أسير بن زارم فى ثلاثين من خلصاء أصحابه، بصحبة عبد الله ابن رواحة وصحبه، وقد أردف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجلاً من أصحاب أسير بن زارم، وكان سيد خيبر أُسير رديف عبد الله بن أُنيس.

وبينما كانوا سائرين فى اتجاه المدينة، حاول اليهود الغدر بالمسلمين، فأهوى أسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله، إلا أن ابن أنيس كان أسرع منه؛ إذ فطن لذلك، فانتزع السيف من يده وقتله، ثم دارت معركة بين بقية الركب، تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته، ما عدا رجلاً واحدًا تمكن من الفرار.

وكان جزاؤهم من جنس عملهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

---

(١) «الجزاء» (١/ ٣٢٨ : ٣٢٩).

[٣٨] نهاية كسرى ملك الفرس[١]

روى محمد بن إسحاق عن أبى سلمة أن رسول الله -ﷺ- بعث عبد الله بن حذافة السهمى بكتابه إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فلما بلغ رسول الله -ﷺ- قال: «**مزق ملكه**».

وعند ابن جرير: عن أيد بن أبى حبيب قال: وبعث عبد الله بن حذافة ابن قيس إلى كسرى بن هرمز ملك فارس، وكتب معه: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس.**

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله. وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاء الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافَّة؛ لأنذر من كان حيًا، ويحق القول على الكافرين، فإن تُسلم تَسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

قال: فلما قرأه شقه، وقال: يكتب إلىَّ بهذا وهو عبدى. قال: ثم كتب كسرى إلى باذان -وهو نائبه على اليمن- أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك، جلدين، فليأتيانى به. فبعث باذان قهرمانه، وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له: فرخرة، وكتب معهما إلى رسول الله -ﷺ- يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لباذويه: ائت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتنى بخبره. فخرج حتى قدم الطائف فوجدا رجلاً من قريش، فى أرض الطائف، فسألوه عنه، فقال: هو بالمدينة، واستبشر أهل الطائف -يعنى وقريش- بهما وفرحوا، وقال بعضهم لبعض: أبشروا، فقد نصب له كسرى ملك الملوك، وكفيتم الرجل. فخرجا حتى قدما على رسول الله -ﷺ- فكلمه باذويه، فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثنى إليك لتنطلق معى، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك يكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك. ودخلا على

---

(١) «الجزاء» (١/ ٢٧٤ : ٢٧٦).

رسول الله -ﷺ- وقد حلقا لحاهما، وأغفيا شواربهما، فكره النظر إليهما، وقال: «**ويلكما، من أمركما بهذا؟**» قالا: أمرنا ربنا -يعنيان كسرى- فقال رسول الله -ﷺ-: «**ولكن ربى أمرنى بإعفاء لحيتى وقص شاربى**». ثم قال: «**ارجعا حتى تأتيانى غدًا**». قال: وأتى رسول الله الخبر من السماء، بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله فى شهر كذا وكذا، فى ليلة كذا وكذا من الليل، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله.

قال: فدعاهما فأخبرهما. فقالا: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، فنكتب عنك بهذا، ونخبر الملك باذان؟ قال: «**نعم، أخبراه ذلك عنى، وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهى إلى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء**». ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، فقال: والله، ما هذا بكلام ملك، وإنى لأرى الرجل نبيًا، كما يقول، وليكونن ما قد قال، فلئن كان هذا حقًّا فهو نبى مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأيًا، فلم ينشب باذان أن قدم على كتاب شيرويه: أما بعد، فإنى قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم، ونحرهم فى ثغورهم، فإذا جاءك كتابى هذا، فخذ لى الطاعة ممن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذى كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجر حتى يأتيك أمرى فيه، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان، قال: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس، من كان منهم باليمن.

قال: وقد قال باذويه لباذان: ما كلمت أحدًا أهيب عندى منه. فقال له باذان. هل معه شرط؟ قال: لا.

وكسرى إذ تقاسمه بنوه	بأسياف كما اقتسم اللحامُ
تمخضت المنونُ له بيومٍ	أتى ولكلِّ حاملة تمامُ

قال الشافعى: لما أُتى كسرى بكتاب رسول الله -ﷺ- مزقه، فقال: رسول الله -ﷺ-: «**يمزق ملكه**». وحفظنا أن قيصر أكرم كتاب رسول الله -ﷺ- ووضعه فى مسك. فقال رسول الله -ﷺ-: «**ثبت ملكه**». ولما كانت العرب تأتى الشام والعراق للتجارة، فأسلم من أسلم منهم، شكوا خوفهم من ملكى العراق والشام إلى رسول الله -ﷺ-، فقال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده**». فباد ملك الأكاسرة بالكلية، وزال ملك قيصر عن الشام بالكلية، وإن ثبت لهم ملك فى الجملة، ببركة دعاء النبى -ﷺ- لهم حين عظموا كتابه، والله أعلم.

[٣٩] نهاية القرطاء البكريين[١]

بعث رسول الله -ﷺ- إلى القرطاء البكريين، بناحية ضرية فى نجد شرقى المدينة، بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، فاستهزءوا به وبكتابه، فأخذوا الصحيفة التى تحمل دعوتهم إلى التوحيد، فغسلوها من الحبر، ثم رقعوا بها است دلوٍ لهُم وأبوا أن يجيبوا الرسول -ﷺ- إلى ما دعاهم إليه، فأنكرت امرأة عاقلة منهم ما فعلوا بكتاب الرسول -ﷺ-، وهى أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو ابنة ابن أخى سيد القوم حارثة بن عمرو، واستهجنت ما صنعوا، فقالت وقولها يدل على أنها مسلمة:

إذا ما أتتهم آيةٌ من محمدٍ … محوها بماء البئر فهى عصيرُ

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم:

يذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله -ﷺ- ما فعلوا، فصاروا دائمًا أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط وأهل سفه، وكان الذى جاءهم بالكتاب رجل من عرينة، يقال له: عبد الله بن عوسجة.

قال الواقدى: رأيت بعضهم عييًّا لا يُبين الكلام.

---

(١) «الجزاء» (١/ ٢٨٣).

جرد رسول الله -ﷺ- حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان الكلاب، فى شهر ربيع الأول سنة تسع هجرية، فهزمهم فى مكان بنجد يقال له: زج لاوة.

[٤٠] جزاء الذين يسعون في الأرض فسادًا[١]

عن سعيد بن أبى عروبة عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رهطًا من عكل وعرينة أتوا رسول الله -ﷺ- فقالوا: يا رسول الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف فاستوخمنا المدينة فأمر لهم رسول الله -ﷺ- بذود أن يخرجوا فيها فليشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا راعى رسول الله -ﷺ- واستاقوا الذود فبعث رسول الله عليه السلام فى آثارهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وثمل[٢] أعينهم فتركوا فى الحرة حتى ماتوا على حالهم.

قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]. والحديث رواه مسلم.

قال ابن عباس فى قطاع الطريق: «إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال. قُتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نُفوا من الأرض» واختلفوا: هل يصلب حيًّا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتل برمحٍ أو نحوه، أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً وتشديدًا لغيره من المفسدين، وهل يصلب ثلاثة أيام ثم يترك أو يترك حتى يسيل صديده؟ فى ذلك كله خلاف.

---

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٤٢).

(٢) أى: فقأها.

(٣) سورة المائدة: ٣٣، ٣٤.

[٤١] نزلت عليه صاعقة من السماء فأحرقته[١]

عن أنس -رضي الله عنه- قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله تبارك وتعالى، فقال: إيش ربك الذى تدعونى إليه؟! من حديد هو؟! من نحاس هو؟ من فضة هو؟! من ذهب هو؟! فأتى النبى -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأعاده النبى -صلى الله عليه وسلم- الثانية فقال مثل ذلك فأتى النبى فأخبره فأرسله الثالثة فقال مثل ذلك فأتى النبى -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة فأحرقته فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «**إن الله تبارك وتعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقته**» فنزلت هذه الآية: ﴿ ... **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾[٢].

[٤٢] رفض أمر النبى -صلى الله عليه وسلم- فشلت يداه[٣]

روى مسلم فى صحيحه عن سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- أن رجلاً أكل عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشماله فقال «أى النبى -صلى الله عليه وسلم-»: «**كل بيمينك**». قال: لا أستطيع. قال «أى النبى -صلى الله عليه وسلم-»: «**لا استطعت. ما منعه إلا الكبر**» قال: فما رفعها إلى فيه.

قلت: شُلت يده بسبب التكبر على سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبسبب دعاء النبى عليه، ولو كان الأكل باليمين واتباع النبى بالأمر الهين لما استحق هذا الرافض لأمر النبى -صلى الله عليه وسلم- هذه الدعوة التى شُلَّت يدهُ بسببها فتأمل، وهذا الحديث يبين أهمية السنة فى الإسلام، ويحذر من إهمالها أو التهاون فى تطبيقها، أو الحط من شأنها كما يحدث فى عصرنا ممن ينعقون ليل نهار بالسخرية منها، ويضعون تطبيقها حجر عثرة فى طريق الدعوة!! «سبحانك

---

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٣٣). ط. الفجر.

(٢) سورة الرعد: ١٣ .

(٣) «نهاية الظالمين» (ص ١٤٥).

هذا بهتان عظيم» وهذا الحديث المتقدم يضرب على أيدى هؤلاء العابثين الذين رفضوا صورة النبى -ﷺ-، وتشبهوا بالأجانب فى زيهم وأكلهم، وشربهم وكان هدى الكفار أقرب إلى قلوبهم من هدى نبيهم فإلى الله المشتكى.

[٤٣] نهاية الأسود العنسى -لعنه الله-(١)

جاء فى مختصر السيرة النبوية ص ٤٧٧ -أنه فى مدة مرض رسول الله -ﷺ-، قتل الأسود العنسى- وكان اسمه (عبهله) كان يتعبد ويرى الجهال الأعاجب ثم ادعى النبوة. وأجمع جماعة من المسلمين على قتله. واتفقوا مع امرأته وكان الأسود قد قتل أباها فقالت: والله إنه أبغض الناس إلىَّ ولكن الحرس يحيطون بقصره. فأشارت عليهم أن ينقبوا عليه البيت. فواعدوها على ذلك ونقبوا عليه فدخل عليه فيروز الديلمى فقتله واحتز رأسه فخار خوار الثور فابتدر الحرس الباب. فقالت زوجته (على مهلكم) هذا النبى يوحى إليه. فلما طلع الفجر أسروا المؤذن فقال: أشهد أن محمداً رسول الله وأن عبهله كذاب. وكتب أصحاب النبى -ﷺ- إليه بذلك، فورد الخبر من السماء إلى النبى وأعلم أصحابه بقتل الأسود (قبل أن يصل الكتاب) ووصل الكتاب بقتله فى خلافة أبى بكر -رضي الله عنه-.

والعنسى المذكور هو -عبهله بن كعب بن غوث. كما جاء فى البداية ج٦ ص ٣٠٧- هو من بلد يقال لها. كهف حنان. خرج فى سبعمائة مقاتل وكتب إلى عمال النبى -ﷺ- بقوله -أيها المتمردون علينا. أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا. ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به. وأنتم على ما أنتم عليه ثم ركب فتوجه إلى نجران. فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه. ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذان فتقاتلا فغلبه الأسود فقتله وكسر جيشه من الأبناء واحتل صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه، ففر معاذ بن جبل من هناك واجتاز بأبى موسى الأشعرى. فذهبا إلى حضرموت وانحاز عمال

(١) «أدعياء النبوة الكاذبة» (٢٦ : ٢٨).

رسول الله -ﷺ- إلى الطاهر ورجع عمر بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة. واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسى. وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة. وكان جيشه يوم لقى شهراً سبعمائة فارس وأمراؤه قيس بن عبد يغوث ومعاوية بن قيس ويزيد بن محرم بن حصن الحارثى. ويزيد الأزدى. واشتد ملكه واستغلظ أمره وارتد خلق كثير من أهل اليمن وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية. وكان خليفته على مذحج عمرو بن معدى كرب. وأسند أمر الجند إلى قيس بن يغوث. وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمى وداذويه. وتزوج بامرأة شهر باذام وهى ابنة عم فيروز الديلمى (التى سهلت على قتله فيما بعد) واسمها زاذ. وكانت امرأة حسناء جميلة وهى مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله محمد -ﷺ- ومن الصالحات.

قال سيف بن عمر التميمى وبعث رسول الله -ﷺ- كتابه حين بلغه خبر الأسود العنسى ومصاولته وقام به معاذ بن جبل يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلته ومصاولته وبلغوا هذا الكتاب إلى عمال رسول الله -ﷺ- ومن قدروا عليه من الناس. واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند. وكان قد غضب على الأسود واستخف به. وهم بقتله. وتوافق المسلمون على قتله. فلما تم الجهاد اطلع شيطان الأسود للأسود على شىء من تلك (المؤامرة) فدعا قيس. فقال له: يا قيس ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟

قال: يقول عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل. وصار فى العز مثلك مال ميل عدوك.

وحاول ملكك وأضمر على الغدر أنه يقول: يا أسود يا أسود يا سوآه يا سوآه. فطف به وخذ من قيس أعلاه. وإلا سلبك وقطف قلبك.

لهذا كان الأمير قيس فى حرج وفى خوف شديد من بطش هذا الظالم الكذاب. فقال له قيس وحلف له فكذب وذى الخمار لأنت أعظم فى نفسى وأجل عندى من أن أحدث بك نفسى. فقال له الأسود. ما أخالك تكذب الملك فقد صدق الملك وعرف الآن أنك تائب عما اطلع عليه منك، فأمر

بانصرافه إلى إمـرته. ثم تمت المؤامرة عليه فقتل الأسـود العنسى لعنه الله كما ذكرنا عنه آنفًا.

[٤٤] ارتد عن الإسلام فردته الأرض[١]

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رجلاً كان يكتب للنبى -صلى الله عليه وسلم- وقد كان قرأ البـقرة وآل عمران، وكـان الرجل إذا قرأ البقـرة، وآل عمران جـد فينا، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فمات. فقال النبى -صلى الله عليه وسلم-: «**إن الأرض لا تقبله**» فحفروا له، فـواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته علـى وجهها، ثم عادوا فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قـد نبذته على وجهها، فحفروا له فواروه، فـأصبحت الأرض قد نبـذته على وجهـها، فتركوه منبـوذًا. قال أنس: فأخبرنى أبو طلحة أنه أتى الأرض التى مات فيها، فوجده منبوذًا، قال أبو طلحة: ما شأن هذا؟ فقالوا: قد دفناه مرارًا، فلم تقبله الأرض.

وفى لفظ آخر قـال أنس: كان رجلاً نصرانيًا فأسلم، وقـرأ البقرة وآل عمـران، فكان يكتب للنبى -صلى الله عليه وسلم- فعـاد نصرانيـا، فكان يقول: مـا يدرى محـمد إلا ما كتـبت له، فأماته الله، فـدفنوه، فأصبح وقـد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحـابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم، فألقوه خارج القـبر، فحفـروا له وأعمقوا له فى الأرض مـا استطاعوا، فأصـبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه».

[٤٥] نهاية مدعى النبوة والألوهية[٢]
مسيلمـة الكـذاب

كذّاب اليمامة، وكان يُدعى رحمان اليمامة، ادعى النبوة فى عهد رسول

---

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٣٤).

(٢) «الجزاء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٢٨٣ : ٢٨٦).

الله -ﷺ- قصدته سجاح لـمّا ادعت النبـوة بجنودها؛ لأخذ اليمـامة منه، فهابه قـومها، وقالوا: إنه قد استـفحل أمره وعظم، فقالت لهم فيـما تقوله: عليكم باليمامة، دفوا دفيف الحمامـة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة. قـال: فعمدوا لحرب مـسيلمة، فلما سـمع بمسيرها إليه خـافها على بلاده، فبعث إليها يستأمنهـا، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذى كان لقريش لو عدلت، فـقد ردّه الله عليك فحباك به، وراسلها، ليـجتمع بها فى طائفة من قومه، فركب إليها فى أربعين من قومه، فلما خلا بها عرض عليها مـا عرض من نصف الأرض، وقـبلت ذلك، قـال مسـيلمة: سـمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمـره فى كل ما يسر مجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم... إلى آخر الهراء، وإلى آخـر ما فعل الـلعين مما يعف القلم عن ذكره... فلمـا رجعت سجاح إلى قومها قالوا: ما أصدقك؟ فـقالت: لم يصدقنى شيئًا، فقالوا: إنه قبيح عـلى مثلك أن تتزوج بغيـر صداق، فبعـثت إليه تسأله صداقًـا، فقال: أرسلى إلىَّ مؤذنك، فبعثتـه إليه -وهو شَبَثُ بن ربعى- فقال: ناد فى قومك أن مسـيلمـة بن حبـيب رسول الله قـد وضعت عنكم صـلاتين، مما أتاكم به محـمد -يعنى صـلاة الفجـر وصلاة العـشاء الآخرة- ثم أسلمـت بعد ذلك سجاح.

هذا الكذاب الذى كذب على الله ورسوله، فشـانه الله وفضحه بكذبه، فما يسمى إلا مسيلمـة الكذاب، وكفى به جزاء فى الدنيا، فكيف بالقتل وقد قتله وحشى العبد؟.. فكيف بيوم القيامة، ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾(١) ويقول تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾(٢).

وجاء فى قرآن مسيلمة الكذاب مما يثـير الضحك والعجب العجاب: يا

---

(١) سورة الزمر: ٦٠.

(٢) سورة هود: ١٨.

ضفدع بنت الضفدعين، نقى لكم نقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك فى الماء، وذنبك فى الطين.

وكان يقول:

«والمبذرات ذرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قحمًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والناعى فواسوه».

والله، إنها لخرافات يأنف من قولها الصبيان، وهم يلعبون.

قال الصديق لوفد بنى حنيفة: ويحكم، أين كان يذهب بقولكم؟ إن هذا لم يخرج من أل.

وكان الكذاب يقول: والفيل، وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل.

وكان يقول: والليل الدامس، والذئب الهامس.

وفد عمرو بن العاص فى أيام جاهليته على مسيلمة، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم فى هذا الحين؟. فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هى؟ قال: أنزل عليه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾[1] قال: ففكر مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: ولقد أنزل على مثلها، فقال له عمرو: وماهى؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر.

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله، إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب.

وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبى -ﷺ-، بلغه أن رسول الله -ﷺ- بصق فى بئر فغزر ماؤه، فبصق فى بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفى أخرى فصار ماؤه أجاجًا.

---

(١) سورة العصر: ١، ٢.

وتوضأ وسقى بوضوئه نخلاً فيبست وهلكت.

وأتى بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم، فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه.

والجزاء من جنس العمل، فضوح الدنيا قبل الآخرة وتكذيب الناس له.

ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع فى عينيه فمسحهما فعمى.

وعن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة، فقال: أين مسيلمة؟ فقال: مه رسول الله. فقال: لا، حتى أراه. فلما جاء قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم. قال: من يأتيك؟ قال: رجس. قال: أفى نور أم فى ظلمة؟ فقال: فى ظلمة. فقال: أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، واتبعه هذا الأعرابى الجلف -لعنه الله- حتى قُتل معه يوم عقربا لا رحمه الله.

قدم هذا اللعين المدينة وافداً إلى رسول الله -ﷺ-، وقد وقف عليه رسول الله -ﷺ-، فسمعه وهو يقول: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته. فقال له: لو سألتنى هذا العود -لعرجون فى يده- ما أعطيتكه، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، إنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت. وكان رسول الله -ﷺ- قد رأى فى المنام كأن فى يديه سوارين من ذهب، فأهمه شأنهما، فأوحى الله إليه فى المنام: انفخهما، فنفخهما فطارا، فأولهما بكذابين يخرجان، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة، وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمرهما، أما الأسود فذبح فى داره، وأما مسيلمة فعقره الله على يدى وحشى بن حرب، رماه بالحربة فأنفذه كما تعقر الإبل، وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه، وذلك بعقر داره فى حديقة الموت، وقد قتل قبله وزيراه: محكم ابن الطفيل، والرجال بن عنفوة.

روى البخارى أن مسيلمة كتب إلى رسول الله -ﷺ-: بسم الله الرحمن الرحيم.

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك.

أما بعد.. فإنى قد أشركت معك فى الأمر، فلك المدر ولى الوبر - ويروى فلكم نصف الأرض، ولنا نصفها- ولكن قريشًا قوم يعتدون. فكتب إليه رسول الله -ﷺ-:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله -ﷺ- إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

لما مات رسول الله -ﷺ- زعم أنه استقل بالأمر من بعده، واستخفَّ قومه فأطاعوه، وكان يقول:

خذى الدف يا هذه والعبى ... وبُثى محاسن هـذا الـنبى

تولى نبى بنـى هاشـم ... وقام نبـى بنـى يعـرب

فلم يمهله الله بعد وفاة رسوله -ﷺ-، حتى سلط الله عليه سيفًا من سيوفه، وحتفًا من حتوفه، فعج بطنه، وفلق رأسه، وعجل الله بروحه إلى النار، فبئس القرار.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾(1) فمسيلمة والأسود وأمثالهما - لعنهما الله- أحق الناس دخولاً فى هذه الآية الكريمة، وأولاهم بهذه العقوبة العظيمة. اهـ.

[٤٦] أصابتنى دعوة سعد

عن جابر بن سُمرة -رضي الله عنه-: شكى أهل الكوفة سعدًا -يعنى سعد بن أبى وقاص- إلى عمر -أى ابن الخطاب -رضي الله عنه-، فَعَزَلَه، واستعمل عليهم

(١) سورة الأنعام: ٩٣ .

عـمَّارًا -رضي الله عنه-. فـشكوا حتى ذكـروا أنه لا يحسن الصـلاة، فأرسل إليـه، فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن الصلاة.

قال سعد: أمَّـا أنـا، والله، فإني كنـت أصـلى بهـم صـلاة رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- ما أخرم عنها، أصلى صلاة العـشاء، فأركد فى الأولين، وأخف فى الأخريين.

قال عمر: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق.

فأرسل معــه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة، فسـأل عنه أهل الكوفة، ولم يدع مسجدًا لبنى عبس، فقال رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة، يُكنّى: أبا سعـدة، قال: إذ نشدتنا، فـإن سعد كان لا يسـير بالسرية -أى لا يسـير مع الجيش للقتال- ولا يقسم بالسويَّة، ولا يعدل فى القضية.

قال سعد: أما -والله- لأدعونَّ بثلاث:

اللهمَّ إن كان عبدك كاذبًا وقام رياءً وسمعةً، فأطِلْ عمره، وأطِلْ فقره، وعرضه للفتن.

قال: فكان بعد ذلك إذا سئل، يقول: شيخٌ كبيرٌ مفتون، أصابتنى دعوةُ سعد.

قال عبد الملك بن عُمير: فأنا رأيتـه بعد أن سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وإنَّه ليتعرَّض للجوارى فى الطُّرق يغمزهنَّ.

[٤٧] انتقام الله لأوليائه(١)

عن محمـد بن سيرين -رحمه الله تعالى- قـال: «كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول: اللهم اغفر لى وما أظن أن تغفر لى!، فقلت: يا عبد الله ما سمعتُ أحدًا يقول ما تقـول: قال: كنت أعطيت لله عهدًا إن قدرتُ أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قُتل ووضع على سريره فى البيت والناس يجيئون

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٦١).

يصلون عليه، فدخلت كأنى أصلى عليه فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته فأيبس الله يدى اليمنى، فأصبحت كالخشبة لا تتحرك».

[٤٨] هتك الله ستره وقطع يده[1]

جاء فى كتاب «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

«أن أعين بن ضبيعة المجاشعى اطلع فى الهودج -أى على السيدة عائشة -رضي الله عنها- أيام موقعة الجمل يريد أن ينظر إليها، وكان من أرباب الفتن- فقالت: إليك لعنك الله، فقال: والله ما أرى إلا حميراء، فقالت: هتك الله سترك وقطع يدك وأبدى عورتك. فقتل بالبصرة وسُلب وقطعت يده ورمى عريانًا فى خربة من خرابات الأزد.

[٤٩] غضب الملائكة لأولياء الله عز وجل[2]

ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب «المُجابين»:

عن الحسن قال: «كان رجل من أصحاب النبى -صلى الله عليه وسلم- يُكَنَّى أبا معلق، وقد كان تاجرًا يتجر بماله له ولغيره، ويضرب به فى الآفاق، وكان ناسكًا ورعًا، فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح. فقال له: ضع ما معك، فإنى قاتلك. قال: ما تريد من دمى؟ شأنك بالمال. قال: أما المال فلى، ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذا أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات قال: صل ما بدالك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات. فكان من دعائه فى آخر سجوده أنه قال: يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعالُ لما تريد، أسألك بعزك الذى لا يرام، وبملكك الذى لا يضام، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك: أن

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٥٤).

(٢) «نهاية الظالمين» (ص ١٦٤).

تكفينى شــر هذا اللص: يا مغيث أغــثنى، ثلاث مرات. فإذا هو بفــارس قد أقبل بيده حربة قــد وضعها بين أذنى فرسه، فلما بــصر به اللص أقبل نحوه، فطعنه فقــتله. ثم أقبل إليه فــقال: قُم. فقــال: من أنت بأبى أنت وأمى؟ قد أغاثنى الله بك اليوم.

فقــال: «أنا مَلَكٌ من السمــاء الرابعة، دعوت بدعــائك الأول فســمعتُ لأبواب السمــاء قعــقعة، ثــم دعوت بدعائك الثــانى فســمعتُ لأهل الســماء ضجة. ثم دعــوت بدعائك الثالث فقيل لى: دعــاء مكروب. فسألت الله أن يولينى قتله».

[٥٠] «يشرب ولا يروى»

لما قُتل كل أصحاب الحــسين وجاء رجل من بنى بَدَّاء يقال له مالك بن البشر فضرب الحسين على رأسه بالسيف فأدمى رأسه وكان على الحسين برنس فقطعه وجرح رأسه فامتلأ البــرنس دمًا فقال الحسين: لا أكلت بها ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين وقد اشتد العــطش بالحسين فحاول أن يشرب من ماء الفرات فــما قدر بل منــعوه عنه فخلص إلى شــربة منه فرمــاه رجل يقال له: حصين بن تميم بســهم فى حنكه فأثبــته فانتــزعه الحسين من حنكه فــفار الدم فتلقاه بيده ثم رفعها إلى السماء وهما مملؤتان دمًا ثم رمى به إلى السماء وقال اللهم أحصــهم عددًا واقــتلهم بددًا ولا تبقى منهم أحــدًا ودعا عليــهــم دعاءً بليغًا.

قال ابن كثير: إن مكث الرجل الرامــى له إلا يسيرًا حتى صب عليه الله الظمأ فــجعل لا يروى ويســقى الماء مبــردًا وتارة يبرد له اللبن والماء جــميــعًا ويسقى فلا يروى بل يقول ويلكم اسقونى قتلنى الظمأ قال: فوالله ما لبث إلا يسيرًا حتى انقد بطنه انقداد البعير (انشرخ) (البداية والنهاية ح٨ ص١٨٩).

ولقد أورد ابن أبى الــدنيا فى كتــابه «مجابوا الدعــوة» أن سنان بن أبى

عمرو بن أنس النخعى طعن الحسين بالرمح فوقع ثم نزل فذبحه وحز رأسه ثم دفع رأسه إلى خولى بن يزيد وجاء سنان بن أنس إلى فسطاط عمر بن سعد فنادى بأعلى صوته:

أوقد ركابى فضة وذهبًا ... أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمًا وأبًا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبًا

[٥١] هذا حية تدخل فى فمه وتخرج من منخره

روى ابن كثير فى البداية والنهاية ح٨ ص٢١٠ أما عبيد الله بن زياد رأس الفسق الذى كتب كتابًا لعمر بن سعد فى قتل الحسين فلما طلب منه الكتاب أنكره وقال مضيت لأمرك وضاع الكتاب أو قال ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهم أما والله لكنت قد نصحتك فى حسين نصيحة لو نصحتها إلى سعد بن أبى وقاص لكنت قد أديت حقه ولقد قتل عبيد الله فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين.

فانظر رحمك الله ماذا فعل مع الحسين وماذا فعل الله به لما حملوا إليه رأس الحسين -رضي الله عنه- إليه وُضع فى طست فجعل ينكت فيه بقضيب فى يده ويقول ما رأيت حسنًا مثل هذا فقال له رجل ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت شفتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على هاتين الشفتين يقبلها.

فانظر كيف قتله الله؟ ظفر به ابن الأشتر فقتله شر قتلة على شاطئ نهر الخاز قريبًا من الموصل بخمس مراحل بعد هزيمة جيشه أمام جيش ابن الأشتر ثم بعث ابن الأشير برأسه إلى المختار ومع رأس حصين بن نمير وشراحبيل بن ذى الكلاع وجماعة من رؤساء أصحابه، فلما طرحت بين يدى المختار جاءت حية رقيقة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت فى فم ابن مرجانة (ابن زياد) وخرجت من منخره ودخلت منخره فخرجت من فمه وجعلت تدخل وتخرج من رأسه من بين الرءوس.

[٥٢] أراد أن يخيف أنس بن مالك فأخافه عبد الملك بن مروان[١]

دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له: إيه إيه يا أُنيس[٢] يوم لك مع على، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة[٣]. فقال أنس: أياى يعنى الأمير أصلحه الله؟

قال: إياك أعنى صك الله سمعك. قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أى قتلة قتلت. ولا أى ميتة مت، ثم خرج من عند الحجاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبًا، وشفق عجبًا، وتعاظم ذلك من الحجاج، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك.

أما بعد: فإن الحجاج قال لى هُجرًا، وأسمعنى نكرًا، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لى على يديه، فإنى أمت بخدمتى رسول الله -ﷺ- وصحبتى إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وفى رواية أخرى: كتب أنس إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول فى كتابه:

ولو أن رجلاً خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة، ولعرفوا له ذلك، ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود، لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا، وإنى خادم رسول الله -ﷺ-

---

(١) «الجزاء (٢٧٩ : ٢٨١).

(٢) للتصغير والتحقير.

(٣) الصمغة: شىء يسيل من الشجر.

وصاحبه ورأيته، وأكلت معـه، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه، وإن الحجاج قد أضر بى وفعل وفعل.

قال محـمد بن الزبير: أخبـرنى من شهد عبد الملك يـقرأ الكتاب وهو يبكى، وبلغ به الغضب ما شاء الله.

فبعث عبد الملـك إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجـر -وكان مصادقًا للحجاج- فقال له: دونك كتابى هذين، فخذهما واركب البريد إلى العراق، وابدأ بأنس بن مالك صـاحب رسول الله -ﷺ- فارفع كـتابى إليـه، وأبلغه منى السلام، وقل له: يا أبا حـمزة، قد كتـبت إلى الحجاج الملعون كـتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك[1].

ولما دخل إسماعـيل على الحجاج، فقـال الحجاج: مرحبًـا برجل أحبه وكنت أحب لقاءه، فـقال إسماعـيل: أنا والله كنت أحب لقاءك فى غيـر ما أتيتك به، فتغير لون الحجاج وخـاف، وقال: ما أتيتنى به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غـضبًا عليك، ومنك بعـدًا، قال: فاستـوى الحجاج جالسًا مرعوبًا، فرمى إليه إسماعيل بالطومار[2]، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسمـاعيل أخرى، فلما فضه قـال: قم بنا إلى أبى حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل! فقال: كيف لا أعجل وقد أتيتنى بآبدة[3].

وكان فى الطومار:

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف.

أما بعد: فإنك عبد طمّت بك الأمور، فـسموت فيها وعدوت طورك،

---

(١) أمتك: جاريتك.

(٢) الطومار: جمعها طوامير: الصحيفة.

(٣) آبدة: جمعها أوابد: الداهية الخالدة الذكر.

وجاوزت قدرك، وركبت داهية إدًّا[١]، وأردت أن تبدو لى فإن سوغتكها مضيت قدمًا، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله من عبد أخفش[٢] العينين، منفوص الجاعرتين[٣]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار، ونقلهم الصخور على ظهورهم فى المناهل[٤]، يابن المستفرية بعجم[٥] الزبيب، والله لأغمرنك غمر الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله -ﷺ- بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تتجاوز له عن إساءته، جرأة منك على الرب عز وجل، واستخفافًا منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عزير ابن عزرى، وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته وأحبته، بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حوارى المسيح لعظموه وأكرموه، فكيف وهذا أنس ابن مالك خادم رسول الله -ﷺ- ثمانى سنين، يطلعه على سره، ويشاوره فى أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابى هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك منى سهم بكل حتف قاضٍ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

جزاءً وفاقًا، والجزاء من جنس العمل، هذا فى الدنيا، فكيف فى الآخرة؟! رحمك الله يا عبد الملك، وكافأك بالجنة.

[٥٣] نهاية المختار بن أبى عبيد الثقفى[٦]

المختار الكذاب.

سلطه الله على قتلة الحسين، وهو الكذاب الذى قال فيه الرسول

---

(١) قاسية شديدة.

(٢) ضعيف.

(٣) مضرب الدابة.

(٤) موارد الشرب على الطريق.

(٥) بعود.

(٦) «الجزاء من جنس العمل» الجزء الأول ص(٣٨٢ : ٣٨٦).

-ﷺ- : «إنه سيكون فى ثقيف كذاب ومبير». فهذا هو الكذاب، ولفظ مسلم: «إن فى ثقيف كذابًا ومبيرًا».

وقد كان فى بداية أمره ناصبيًّا يبغض عليًّا بغضًا شديدًا، ثم ادعى التشيُّع، وتتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء، وطابت نفس المختار بالملك، وظن أنه لم يبق له عدو ولا منازع.

ولم يكن المختار فى نفسه صادقًا، بل كان كاذبًا يزعم أن الوحى يأتيه على يد جبريل.

وروى الإمام أحمد عن رفاعة القبانى قال: دخلت على المختار فألقى لى وسادة، وقال: لولا أن أخى جبريل قام عن هذه لألقيتها* لك.

وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحى يأتيه، فقال: صدق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾(1).

وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى عنده، وكان يتعاهد مبيتى بالليل، قال: فقال لى: اخرج فحدّث الناس، قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول فى الوحى؟ فقلت: الوحى وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾(2) وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(3) قال: فهمّوا أن يأخذونى، فقلت: ما لكم وذاك! إنى مفتيكم وضيفكم. فتركونى، وإنما أراد عكرمة أن يعرّض بالمختار وكذبه فى ادعائه أن الوحى ينزل عليه.

وروى الطبرانى من طريق أنيسة بنت زيد بن الأرقم أن أباها دخل على المختار بن أبى عبيد، فقال له: يا أبا عامر، لو شفت رأى جبريل وميكائيل، فقال له زيد: خسرت وتعست، أنت أهون على الله من ذلك، كذاب مفترٍ على الله ورسوله.

---

(1) سورة الأنعام: ١٢١ .

(2) سورة يوسف : ٣ .

(3) سورة الأنعام: ١١٢ .

وقد ذكر العلماء أن المختار كـان يظهر التشيُّع ويبطن الكهانة، وأسر إلى أخصائه أنـه يوحى إليه. وكان قد وضع له كـرسى يعظم ويحف به الرجال، ويستـر بالحرير، ويحمل على البـغال، وكان يضاهـى به تابوت بنى إسرائيل المذكور فى القرآن.

وروى ابن جرير بإسناده إلى طفيل بن جعدة بن هبيرة قال: أعدمت مرة من الورق، فإنى كذلك إذ مـررت بباب رجل هو جار لى له كرسى قـد ركبه وسخ شديد، فخطر فى بالى أن لو قلت فى هذا، فـرجعت فأرسلت إليه أن أرسل إلى بالكرسى، فأرسل به، فـأتيت المختار فقلت له: إنى كنـت أكتمك شيـئًا وقد بـدا لى أن أذكره إليك، قال: ومـا هو؟ قال: قلت: كـرسى كان جعـدة بن هبيـرة يجلس عليـه، كأنه كان يرى أن فـيه أثرة من عـلم. قال: سبحان الله! فلم أخرت هذا إلى اليوم؟ ابعـثه إلىّ، قال: فجئت به وقد غسل فخرج عودًا ناضرًا وقد شـرب الزيت، فأمر لى باثنى عشر ألفًا، ثم نودى فى الناس: الصلاة جـامعة، قال: فـخطب المختار الناس فـقال: إنه لم يكن فى الأمم الخـالية أمـر إلا وهو كائن فى هذه الأمـة مـثله، وإنه قد كـان فى بنى إسـرائيل تابوت يستـنصرون به، وإن هذا مـثله، ثم أمـر فكشف عنه أثوابه، وقامت السبئية، فرفعـوا أيديهم وكبروا ثلاثًا، فقام شبث بن ربعى فأنكر على الناس وكاد أن يكفر من يصنع بهذا التـابوت هذا التعظيم. وأشار بأن يكسر، ويخرج مـن المسجد، ويرمـى فى الخنس، فشكرها الناس لشـبث بن ربعى، فلما قـيل: هذا عبيد الله بن زياد قـد أقبل، وبعث المختار بن الأشـتر، بعث معه بالكرسى يحمل على بغل أشهب قد غشى بأثواب الحرير، عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة، فلما تواجهوا مع الشاميين وغلبوا الشاميين وقتلوا ابن زياد ازداد تعظيمـهم لهذا الكرسى حتى بلغـوا به الكفر، قال الطفيل بن جـعدة: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وندمت على ما صنعت.

وهذا وأمثاله مما يدل على قلة عقل المختار وأتباعه، وضعفه وقلة علمه، وكثرة جهله، ورداءة فـهمه، أو ترويجه الباطل على أتباعه، وتشبـيهه الباطل بالحق، ليضل به الطغام، ويجمع عليه جهال العوام.

قال عبد القاهر البغدادى: لما تمت ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية تكهَّن بعد ذلك، وسجع كأسجاع الكهنة.

ثم إن المختار خدعته السبئيــة الغلاة من الرافضة، فقالوا له: أنت حجة هذا الزمـان، وحملوه على دعـوى النبوة، فـادعاها عند خـواصه، وزعم أن الوحى ينزل عليه.

ثم إن أهل الكوفة خرجوا علـى المختار لـمّا تكهن، واجتمعت السـبئية إليه مع عبيد أهل الكوفة؛ لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال ساداتهم، وقاتل بهم الخارجين عليه، فظفر بهم، وقتل منهم الكثير، وأسر جماعة منهم، وكان فى الأُسَرَاء رجل يقال له: سُراقة بن مرداس البـارقى، فقُدِّم إلى المختار، وخاف البارقى أن يأمر بقتله، فقال للذين أسروه وقدّموه إلى المختار: ما أنتم أسرتمونا ولا أنتم هزمتمونا بعدتكم، وإنما هزمنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البُلْق فوق عـسكركم، فأعجب المختـار قوله هذا، فأطلق عـنه، فلحق بمصعب بن الزبير بالبصرة، وكتب منها إلى المختار هذه الأبيات:

ألا أبلـغْ أبـا إسحـاق عــنى ... رأيت البُلْق دُهْمـًا مُصـمتاتِ
أُرِى عينـــى ما لــم تنظــراه ... كلانــا عالــم بالتــرهاتِ
كفرت بوحيكم وجعلتُ نـذرا ... علىّ قتالكــم حتــى المـماتِ

وفى هذا الذى ذكرناه بيان سبب كهانة المختار ودعواه الوحى إليه.

وأما سبب قوله بجواز البداء على الله؛ أنه قد وعد أصحابه بالنصر على جيش مصعب، فلما هُزموا قالوا له: لماذا تعدنا بالنصر على عدونا؟!! فقال: إن الله كان قد وعدنى ذلك، لكنه بدا له.

ثم إن المختـار باشر قـتال مـصعب بن الزبيـر بنفسـه بالمذار من ناحـية الكوفة، وقـتل فى تلك الواقعـة محمـد بن الأشعث الكندى، قال المخـتار: طابت نفســى بقتله أن لم يكن بقى من قـتلة الحسين غيـره، ولا أبالى بالموت بعد هذا. ثم وقعت الهزيمة على المختار وأصحابه.

وأشار عليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته، فدخله وهو ملوم مذموم، وعن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم، فحاصره مصعب فيه وجميع أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم، وضيق عليهم المسالك والمقاصد، وانسدت عليهم أبواب الحيل، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم، ثم جعل المختار يجيل فكرته، ويكرر رويته في الأمر الذي قد حل به، واستشار من عنده في هذا السبب السيئ الذي قد اتصل سببه بسببه من الموالي والعبيد، ولسان الشرع يناديه: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1] ثم قوى عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه، على أن أخرجته من بين من كان يحالفه ويواليه، ورأى أن يموت على فرسه، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه، فنزل حميّة وغضبًا، وشجاعة وكَلَبًا، وهو مع ذلك لا يجد مناصًا ولا مفرًّا ولا مهربًا وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن لا يفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر، ولما خرج من القصر تقدم إليه رجلان شقيقان أخوان وهم طرفة وطراف ابنا عبد الله بن دجاجة من بنى حنيفة، فقتلاه، واحتزا رأسه، وأتيا به إلى مصعب بن الزبير وقد دخل قصر الإمارة، فوضع بين يديه، كما وضع رأس ابن زياد بين يدى المختار، وكما وضع رأس الحسين بين يدى ابن زياد، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدى عبد الملك بن مروان.

يقول أعشى همدان:

لقد نبئت والأنباء تنمى	**بما لاقى الكوارث بالمذار**
وما إن سرنى إهلاك قومى	**وإن كانوا وحقك فى خسار**
ولكنى سررت بما يلاقى	**أبو إسحاق من خزى وعار**

وأراح الله المسلمين من هذا الضال المضل، بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين... وذهب المختار إلى مزبلة التاريخ، بعد أن نُعت بالكذاب على لسان رسول الله -ﷺ- وكل صاحب فرية ذليل في الدارين.

---

(١) سورة سبأ: ٤٩ .

[٥٤] الحجاج بن يوسف [لم تخطئه دعوة سعيد]

قال عـمر بن عبد العـزيز: لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمـة بخبيثـها وجئنا بالحجاج لغلبناهم.

قالت له أسماء بنت أبى بكر ولما دخل عليها بعد قتل عبد الله بن الزبير ابنهـا: أما آن لهـذا الراكب أن ينزل وقال: المنافق؟ قـالت: لا والله مـا كان منافقًا وقد كان صوامًا قوامًـا قال: اذهبى فإنك عجوز قد خرفت. قالت: لا والله ما خرفت سـمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**يخرج فى ثقيف كذاب ومبير فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فأنت هو**» والمبير هو المفسد.

وعن هشام بن حـسان: أحصـوا ما قتل الحجـاج صبرًا فـبلغ مائة ألف وعشريـن ألفًا كان عثـمانيًا أمويًا يميل إليـهم ميلاً عظيمًـا ويـرى أن خلافـهم كفر.

وأعظم ما فعله الحجاج هو قتل سعيد بن جـبير فقد قال الإمام أحمد: قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

قال ابن كثيـر: قال له الحجاج: والله لأقتلنك قال: إنى إذًا لسعـيد كما سمتنى أمى. قال: فقتله فلم يـلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا وكان إذا نام يراه فى المنام يأخـذ بمجامـع ثوبه ويقول: يا عـدو الله فيـم قتلتنى؟ فـيقـول الحجاج: ما لى ولسعيد بن جبير ما لى ولسعيد بن جبير.

فالحجـاج هذا الجبار العنيد قـتل ابن حوارى رسول الله -ﷺ- وحفيد الصديق وسعيد بن جبير فكيف به بعد ما فعل هذا؟

لما مات الحـجاج سـجد الحسن البصـرى شكرًا لله وقال: اللهم أمـته فأذهب عنا سنـته، ولما أخبـر إبراهيم النخعى بموته بكى من الفـرح. أنشأت جارية له عند موته تقول:

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا ... واليوم يأمننا من كـان يخشانا

رأى الحسن البصرى الحجاج فى منامه فقال له: أنت الحجاج؟ قال: أنا الحجاج قال: ما فعل الله بك؟ قال: قُتلت بكل قتيل قتلته.

كان جبارًا ظلومًا ناصبيًا خبيثًا سفاكًا للدماء وقد حاصر ابن الزبير فى الكعبة ورماها بالمنجنيق وأذل أهل الحرمين وأخَّر الصلوات إلى أن استأصله الله فنحن جميعًا نسبُه ولا نحبه بل نبغضه فى الله.

[٥٥] نهاية الحارث بن سعيد[١]

اسمه:

الحارث بن سعيد وكان مولى لابن الجلاس، نزل دمشق وتعبد بها وتنسك وتزهد ثم مكر به ورجع القهقرى على عقبيه وانسلخ من آيات الله تعالى وفارق حزب الله المفلحين واتبع الشيطان فكان من الغاوين.

بداية ضلاله:

كان متعبدًا زاهدًا لو لبس جبة من ذهب لرأيت عليه زهادة، وكان إذا أخذ فى التحميد لم يصغ السامعون إلى كلام أحسن من كلامه. فكتب إلى أبيه يا أبتاه عجل على فإنه قد رأيت أشياء أتخوف منها أن تكون من الشيطان، فزاده أبوه غيًّا وكتب إليه يا بنى أقبل على ما أمرت به إن الله يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ولست بأفاك ولا أثيم فامض لما أمرت به، وكان يجيء إلى أهل المساجد رجلاً رجلاً فيذكر لهم أمره ويأخذ عليهم العهود والمواثيق إن هو رأى ما يرضى قبل وإلا كتم عليه. فأخبر به قاضى دمشق وأخبر بدوره الخليفة عبد الملك بن مروان فاختفى الحارث بعد ذلك ببيت المقدس وجهل الناس خبره فتسلط عليه رجل من أهل البصرة حتى عرف مدخله ومخرجه وتظاهر له بالتصديق له وقال له: (إن كلامك لحسن وقد وقع فى قلبى وقد آمنت بك، وهذا هو الدين

---

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم» (٣٧ : ٣٩).

المستقيم، فأمر أن لا يحجب عنه متى أراد الدخول عليه). فاتصل بعبد الملك وأخبره الخبر فسير معه وتم القبض عليه.

نهايته:

بعدما تم القبض عليه وجيء به إلى عبد الملك فأمر بخشبة فنصبت فصلبه وأمر بحربة وأمر رجلاً فطعنه فلما صار إلى ضلع من أضلاعه فانكفأت الحربة عنه فجعل الناس يصيحون ويقولون: الأنبياء لا يجوز فيهم السلاح، فلما رأى رجل من المسلمين تناول الحربة ثم مشى إليه وأقبل يتجسس حتى وافى بين ضلعين فطعنه بها فأنفذها فقتله.

وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجالاً من أهل العلم والفقه أن يعظوه ويعلموه أن هذا من الشيطان فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك عام ٧٩هـ. أراح الناس من شره.

[٥٦] المغيرة بن سعيد العجلى(١)

اسمه:

المغيرة بن سعيد العجلى مولى خالد بن عبد الله القسرى وهو من أهل الكوفة.

ادعاءاته:

ادعى أنه الإمام بعد محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، ثم زعم بعد ذلك أنه رسول نبى، وأن جبرائيل يأتيه بالوحى من عند الله. وزعم أن: (معبوده رجل من نور وله أعضاء وقلب ينبع منه الحكمة وأن أعضاءه على صور حروف الهجاء وأن الألف منها مثال قدميه والعين على صورة عينيه وشبه الهاء بالفرج).

وزعم كذلك أن الله تعالى خلق الناس قبل أجسادهم فكان أول ما خلق

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم» (٤٢ : ٤٣).

ظل محمد قال فذلك قوله: (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) قال ثم أرسل ظلل محمد إلى أظلال الناس.. إلخ ما ذكره من ذلك الهراء وكان يزعم أنه: (لو أراد أن يحيى عاد أو ثمود وقرونًا بين ذلك كثيرًا لأحياهم).

نهايته:

عندما اطلع عليه خالد بن عبد الله القسرى قبض عليه وأوقد له نارًا أمره أن يعتنقها فأبى فقتله خالد وقتل أصحابه، وقيل بل أحرق بالنار وكان ذلك عام ١١٩هـ. أراح الناس من شره.

[٥٧] نهاية بيان بن سمعان[١]

هو بيان بن سمعان النهدى من بنى تميم ظهر بالعراق بعد المائة ويسمى أتباعه بالبيانية.

ادعاءاته:

ادعى أصحابه انتقال الإمامة من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إليه، وكان يزعم أن جزءًا إلهيًّا حل فى على بن أبى طالب -رضي الله عنه- ثم انتقل إليه الجزء الإلهى بنوع من التناسخ، وكان يزعم أنه يعرف الاسم الأعظم وأنه يهزم به العساكر وأنه يدعو به الزهرة فتجيبه. ثم زعم أنه هو المذكور فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢] وقال أنا البيان وأنا الهدى والموعظة: زعم بعض أتباعه أنه كان نبيًّا وأنه نسخ بعض شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم-. بل هو كان يزعم أنه نبى ولهذا فقد كتب كتابًا إلى محمد بن على بن الحسين الباقر -رضي الله عنه- ودعاه إلى نفسه وفى كتابه:

«أسلم تسلم وترتقى من سلم فإنك لا تدرى حيث يجعل الله النبوة». فأمر الباقر أن يأكل الرسول قرطاسه الذى جاء به فأكله فمات فى الحال.

---

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم» (٤٠: ٤١).

(٢) سورة آل عمران: ١٣٨ .

نهايته:

رفع خبره إلى خالد بن عبد الله القسرى فى زمان ولايته فى العراق، فاحتال على بيان حتى ظفر به، صلبه وقال إن كنت تهزم الجيوش بالاسم الذى تعرفه فاهزم به أعوانى عنك، وقيل بل أحرقه مع المغيرة بن سعيد. وأراح الناس من شره.

[٥٨] الجعد بن درهم يُضحى به فى عيد الأضحى[١]

قال السيوطى فى كتاب الأوائل: أول من تفوه بكلمة خبيثة فى الاعتقاد -يعنى: فى الإسلام- الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بنى أمية، فقال: بأن الله لا يتكلم.

وهو أول من قال بخلق القرآن، وأنكر أن يكون الله قد تكلم به، وأنكر أن يكون اتخذ إبراهيم خليلاً.

وهو أول من تكلم فى صفات الله عز وجل وأنكرها. ولما كثرت أسئلته عن صفات الله قال له وهب بن منبه: ويلك يا جعد! قصر المسألة عن ذلك إنى لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله أن له يداً، وأن له عينًا ما قلنا ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أول ما حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام -أعنى: أن الله ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى بمعنى: استولى ونحو ذلك- الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه.

وقال ابن كثير: كان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له: أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودى.

قال ابن القيم فى نونيته عن الجهمية وشيخهم الجعد:

---

(١) انظر «الجزاء من جنس العمل» (ص ٣٦٣، ٣٦٤) وقارن بما فى «قصص لا تثبت».

وكـذاك قـالوا مـا له من خلقـه | أحـد يكون خـليله النفـسـاني
وخليـله المحـتـاجُ عندهـم وفى | ذا الوصـف يدخل عـابدُ الأوثان
فـالكل مـفـتـقـر إليـه لذاته | فى أسـر قـبـضـتـه ذليل عـان
ولأجل ذا ضـحى بجـعـد خـالدُ الـ | قـسـرىُّ يوم ذبائـح القـربان
إذ قـال إبراهـيم لـيسَ خـليـله | كـلا ولا مـوسـى الكليـم الدانى
شكر الضـحـيـة كلُّ صـاحب سنة | لله درك مـن أخـى قـربـان

حرفـوا الكلم عن مواضـعه فقـالوا: إن معنى الخليل فى قـوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾(١) الفقير المحتاج، ولا شك فى فساد هذا التأويل، إذ لا يكون حينئذ لتخصيص إبراهيم بالخلة مـعنى، فإن الفقر والاحتياج لازم لجميع الخلق لزومًا ذاتيـا، وبذلك يكون وصف الخلة متناولاً لجمـيعهم حتى عبدة الأوثان الذين هم ألد أعداء الرحمن.

وأى ذنب أعظم من هذا، وإهانة لخليل الرحمن عليه السلام، فذبح فى يوم شرف وعز الخليل فى سنة ١٢٤هـ. ضحى به خـالد بن عبد الله القسرى أمير العراق بواسط فى يوم الأضحى حيث قال:

أيها الناس، اذهبوا إلى أضاحيكم، يتقبل الله منكم، فإنى مضحٍّ بالجعد ابن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليـلاً، ولا كلم موسى تكليمًا. ثم نزل فذبحه، وكـان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين، فـشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة.

[٥٩] نهاية أبى منصور العجلى(٢)

اسمه:

أبو منصور العجلى رجل من أهل الكوفة من عبـد القيس، وله فيها دار وكان منشأه بالبادية وكان أميًا لا يقرأ.

---

(١) سورة النساء: ١٢٥ .

(٢) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم ونهايتهم» (٤٦ : ٤٧).

ادعاءاته:

أول ما ادعى أنه خليفة أبى جعفر محمد بن على بن الحسين المسمى بالباقر وأنه فوض إليه أمره وجعله وصية من بعده.

ثم زعم أن الرسل لا تنقطع أبدًا وأن الرسالة لا تنقطع، كذلك وبعد ذلك ادعى أن على بن أبى طالب -رضي الله عنه- نبى ورسول وكذا الحسن والحسين وأبناء الحسين. ثم لما كان هو خليفة الباقر محمد بن على بن الحسين وقد كان هذا من زعمه نبيًّا فإن النبوة تحولت إليه وقال: أنا نبى ورسول والنبوة فى ستة من ولدى يكونون بعدى أنبياء آخرهم القائم.

زعم أن جبرائيل عليه السلام يأتيه بالوحى من عند الله عز وجل، وأن الله بعث محمدًا بالتنزيل وبعثه هو (يعنى نفسه) بالتأويل، وزعم أن أول ما خلق الله تعالى هو عيسى بن مريم عليه السلام ثم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وزعم أن الله اتخذه خليلاً. وغيرها من الخرافات والهراء.

نهايته:

أخذه يوسف بن عمر الثقفى والى العراق وصلبه وكان ذلك فى خلافة هشام بن عبد الملك. أراح الناس من شره.

[٦٠] غيلان الدمشقى القدرى[١]

قال -صلى الله عليه وسلم-: **«القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»**[٢].

قال أبو جعفر الخطمى: شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشىء بلغه فى القدر، فقال له: ويحك يا غيلان، ما هذا الذى بلغنى عنك؟

قال: يكذب علىّ يا أمير المؤمنين، ويقال علىَّ ما لا أقول.

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (٣٦٧ : ٣٦٨).

(٢) حسنه الألبانى كما فى «صحيح الجامع».

قال: ما تقول فى العلم؟

قال: نفد العلم.

قال: أنت مخصوم اذهب الآن، فقل ما شئت، يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خُصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تُقِر به فنخصم خير لك من أن تجحد فتكفر.

ثم قال له: أتقرأ يس؟

قال: نعم.

قال: اقرأ.

قال: فقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

قال: قف، كيف ترى؟

قال: كأنى لم أقرأ هذه الآية يا أمير المؤمنين.

قال: زد.

فقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾[2].

فقال له عمر: قل: ﴿سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

قال: كيف ترى؟

قال: كأنى لم أقرأ هذه الآيات قط، وإنى أعاهد الله ألا أتكلم فى شىء مما كنت أتكلم فيه أبدًا.

---

(١) سورة يس: ١ - ٧ .

(٢) سورة يس: ٨، ٩ .

(٣) سورة يس: ٩، ١٠ .

قال: اذهب.

فلما ولى قال: اللهم، إن كان كاذبًا بما قال فأذقه حر السلاح.

قال: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلاً لا يهتم بهذا، ولا ينظر فيه.

قال: فتكلم غيلان.

فلما ولى هشام أرسل إليه فقال: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم فى شىء من هذا أبدًا؟

قال: أقلنى فوالله لا أعود.

قال: لا أقالنى الله إن أقلتك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟

قال: نعم.

قال: اقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قال: قف. علام استعنته؟ على أمر بيده لا تستطيعه، أو على أمر فى يدك - أو بيدك؟.

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه، واضربا عنقه، واصلباه.

[٦١] الجهم بن صفوان وعاقبته[2]

تبنى الجهم آراء الجعد بن درهم ثم زاد عليها بدعًا أخرى:

الأولى: القول بالجبر؛ حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شىء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور على أفعاله.

---

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) «الجزاء من جنس العمل» للدكتور سيد حسين العفانى (حفظه الله) (٣٦٥، ٣٦٦).

الثانية: القول بأن الإيمان هو المعرفة؛ حيث زعم أن الإيمان وهو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط.

الثالثة: القول بفناء الجنة والنار بعد دخول أهلهما فيهما.

الرابعة: القول بأن علم الله حادث؛ حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه.

قال إبراهيم بن طهمان: ما ذكرته ولا ذكر عندي إلا دعوت الله عليه، ما أعظم ما أورث أهل القبلة من منطقه العظيم.

انظر ما قال شيخ الإسلام المبارك ابن قيم الجوزية عن أبي محرز الراسبي جهم بن صفوان أس الضلالة، ورأس الجهمية:

جهم بن صفوان وشيعته الأولى ... جحدوا صفات الخالق الديان

بل عطَّلوا منه السماوات العُلى ... والعرش أخلوه من الرحمن

ونفوا كلام الرب جل جلاله ... وقضوا له بالخلق والحدثان

والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرجفان

وهبوب ريح أو تحرك نائمٍ ... وتحرك الأشجار للميلان

والله يصليه على ما ليس من ... أفعاله حر الحميم الآن

لكن يعاقبه على أفعاله ... فيه تعالى الله ذو الإحسان

قالوا وإقرار العباد بأنه ... خلاقهم هو منتهى الإيمان

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

فاسأل أبا جهل وشيعته ومن ... والاهمُ من عابدي الأوثان

وسل اليهود وكل أقلف مشرك ... عبد المسيح مقبل الصلبان

واسأل ثمود وعاد بل سل قبلهم ... أعداء نوحٍ أمة الطوفان

واسأل أبا الجن اللعين أتعرف الـ ... ـخلاق أم أصبحت ذا نكران

واسأل شرار الخلق أغلى أمة ... لوطية هم ناكحو الذكران

واسأل كذاك إمام كل معطلٍ ... فرعون مع قارون مع هامان

هل كان فيهم منكر للخالق الرَّب — العظيم مكون الأكوان
فليُبشروا ما فيهم من كافر — هم عند جهم كاملو الإيمان
وقضى بأن الله كان معطلاً — والفعل ممتنع بلا إمكان
ثم استحال وصار مقدوراً له — من غير أمر قام بالديان
وقضى بأن النار لم تخلق ولا — جنات عدن بل هما عدمان
فإذا هما خُلقا ليوم معادنا — فهما على الأوقات فانيتان
ما ذا الذى فى ضمن ذا التعطيل من — نفى ومن جحد ومن نكران
وأتى إلى الكفر العظيم فصاغه — عجلاً ليفتن أمة الثيران
وكساه أنواع الجواهر والحلَى — من لؤلؤ صاف ومن عقيان
فرآه ثيران الورى فأصابهم — كمصاب إخوتهم قديم زمان
عجلان قد فتنا العباد بصوته — إحداهما وبحرفه ذا الثانى

قتل هذا الخبيث مع الحارث بن سريج ضد بنى أمية.

قال ابن كثير: فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان، طعنه رجل فى فيه فقتله.

والجزاء من جنس العمل.. هذا الفم الذى أخرج زبالات الأذهان يطعن.

ويقال: بل أسر الجهم، فأوقف بين يدى سلم بن أحوز، فأمر بقتله، فقال: إن لى أمانًا من أبيك، فقال: ما كان له أن يؤمنك، ولو فعل ما أمنتك، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب، وأنزلت عيسى بن مريم ما نجوت، والله لو كنت فى بطنى لشققت بطنى حتى أقتلك. وأمر ابن ميسر فقتله وفى رواية ابن جرير: وأبرأك إلى عيسى بن مريم ما نجوت.

وقال الذهبى: إن سلم بن أحوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلم موسى.

[٦٢] أبو مسلم الخراسانى

قتل من عباد الله ما قتل وكان فاتكًا سفاحًا وقد ذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل فى حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بنى العباس ستمائة ألف صبرًا زيادة عن من قتل بغير ذلك.

وسئل عبد الله بن المبارك عن أبى مسلم أهو خير أم الحجاج فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد ولكن كان الحجاج شرًا منه.

كتب إليه المنصور: احذر البغى أبا مسلم من بغى واعتدى تخلى الله عنه ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم واحذر أن تكون سنة فى الذين خلوا من قبلك ومثلة لمن يأتى بعدك.

وكتب هو إلى المنصور: إن أخاك السفاح ظهر فى صورة مهدى وكان ضالاً فأمرنى أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقيل العثرة فوترت أهل الدنيا فى طاعتكم وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ثم إن الله سبحانه تداركنى منه بالندم واستنقذنى بالتوبة فإن يعف عنى ويصفح فإنه كان للأوابين غفورًا وإن يعاقبنى فبذنوبى وما ربك بظلام للعبيد.

وكتب إليه المنصور: أما بعد أيها المجرم العاصى إنه لم يسنح لك أمران إلا كُنت لأرشدهما تاركًا ولأغواهما راكبًا تقتل قتل الفراعنة وتبطش بطش الجبابرة وتحكم بالجور حكم المفسدين وتبذر المال وتضعه فى غير مواضعه فعل المسرفين.

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه فى أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيدًا حتى قال له: فلم قتلت سليمان بن كثير وإبراهيم بن ميمون وفلانًا وفلانًا. قال: لأنهم عصونى وخالفوا أمرى فغضب عند ذلك المنصور وقال: ويحك أنت تقتل إذا عُصيت وأنا لا أقتلك وقد عصيتنى؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع

حمائل سيفه فقال: يا أمير المؤمنين استبقنى لأعدائك. فقال: وأى عدو أعدى لى منك؟ ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعًا ثم ألقى فى دجلة.

ويقال إن المنصور قال: الحمد لله الذى أرانا يومك يا عدو الله، وقال:

أعمت أن الدين لا يُقتضى   فاستوف بالكيل أبا مجرم
سُقيت كأسًا كنت تسقى بها   أمرَّ فى الحلق من العلقم

ثم إن المنصور خطب فى الناس بعد مقتله فقال: يا أيها الناس لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر فتحل بكم النقم وإن هذا الغمر أبا مسلمة بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه فنكث وغدر وفجر فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، وقال: فحكمنا فيه حكم فى غيره ممن شق العصا.

[٦٣] نهاية أبى الخطاب الأسدى[١]

اسمه:

هو محمد بن أبى زينب من موالى بنى أسد بالكوفة، وكان يدعى الانتساب فى المذهب إلى أبى جعفر الصادق، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل فى حقه تبرأ منه ولحفه، فلما اعتزل عنه ادعى الإمامة لنفسه. وقد تابعه أصحابه على ذلك وزعموا أن الأئمة أنبياء محدثون وأبا الخطاب كان نبيًا.

ولذلك أنكر الجنة والنار. وقال: (الجنة نعيم الدنيا والنار آلامها) ثم استباح هو وأتباعه المحرمات وترك الفرائض وشهادة الزور.

نهايته:

بعد اطلاع عيسى بن موسى -وكان عاملاً على الكوفة للمنصور- على خبث دعوة أبى الخطاب هذا فقتله بسبخة الكوفة، وقيل صلب فى كناسة الكوفة. وأراح الناس من شره.

[٦٤] نهاية هذيل بن واسع[١]

أيضًا هو عارض سورة الكوثر. قال ابن الجوزى (هذيل بن واسع يزعم أنه من ولد النابغة الذيبانى. عارض سورة الكوثر فقال له رجل -ما قلت- فقال: «إن أعطيناك الجواهر. فصل لربك وجاهر. فما يردك إلا كل فاجر». فظهر عليه السنوى. فقتله وصلبه على العمود. فعبر عليه الرجل فقال: «إنا أعطيناك العمود[٢]. فصل لربك من قعود. بلا ركوع ولا سجود. فما أراك تعود». حقًّا لقد لقى جزاءه إنه لا يعود فى الدنيا إلا يوم البعث والنشور سيبعث ويحاسب. والكذب يهدى إلى الفجور. والفجور يهدى إلى النار!.

[٦٥] نهاية نوح الرشيدى[٣]

ذكر إبراهيم البيهقى فى المحاسن والمساوى ص ٣٣ قال: إنه (فى أيام الرشيد تنبأ رجل وزعم أنه نوح فقيل له: أنت نوح الذى كان أم نوح آخر؟ قال: أنا نوح الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وقد بعثت إليكم لأوفى الخمسين عامًا تمام الألف سنة. فأمر الرشيد بضربه وصلبه. فمر به بعض المخنثين وهو مصلوب فقال: صلى الله عليك يا أبانا ما حصل فى يدك من سفينتك إلا دقلها. وهو الذى يكون فى وسط السفينة كجذع طويل).

[٦٦] نهاية بابك الخرمى[٤]

هذا الشقى الثنوى الذى كان على دين مانى ومزدك، وكان يقول بتناسخ الأرواح، ويستحل البنت وأمها.

---

(١) «أدعياء النبوة الكاذبة» (٣٨).

(٢) أى: الذى صلب عليه.

(٣) «أدعياء النبوة الكاذبة» (٣٩).

(٤) انظر «الجزاء من جنس العمل» (٢/ ١٨٥ : ١٨٩).

قيل: كان ولد زنا، وكانت أمه عوراء، يقال لها: رومية العلجة، وكان على بن مزدكان يدعى أنه زنى بها، وبابك منه.

وقيل: كانت صعلوكة من قرى أذربيجان، فزنى بها نبطى، فحملت منه ببابك، فربُىِّ أجيراً فى القرية، وكان هناك قوم من الخُرَّمية لهم كبيران: جاوندان وعمران، فتفرس جاوندان النجابة فى بابك، فاكتراه من أمه، فهويته زوجة جاوندان، وأطلعته على الأسرار، ثم قتل زوجها فى محاربة لابن عمه، فزعمت أن زوجها استخلف بابك، فصدقها الجميع، فأمرهم أن يقتلوا من وجدوه فى الليل، فأصبح عدة قتلى، وانضاف إليهم كل شرير وقاطع طريق، وصار أمر بابك إلى ما صار، ولقد أخاف الإسلام وأهله، وغلب على أذربيجان وغيرها، وأراد أن يقيم الملة المجوسية. وكان هذا الشقى يدعو إلى الإباحية وظهر فى أيامه المازيار بالمجوسية فى طبرستان وعظم البلاء، ولقد دخل مازيار فى الإسلام وتسمى محمداً، وكان صاحب جبال طبرستان، ولقد أعلن العصيان بطبرستان، وطلع المعتصم.

وكان المعتصم والمأمون قد أنفقوا على حرب بابك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، ولقد جهز خلفاء بنى العباس جيوشًا كثيرة إليه مع إفشين الحاجب، ومحمد بن يوسف الثغرى، وأبى دلف العجلى وأقرانهم.

وفى سنة ٢٢٢هـ بعث المعتصم جيشه مع الإفشين، وكانت نفقات الجيش ثلاثين ألف ألف درهم، وأخذت البَذُّ مدينة بابك اللعين، واختفى فى غيضة، وأسر أهله وأولاده، وقطع دابر الخُرَّمية، وبعد أن هرب أوقعه الله فى يد الإفشين، وسار به الإفشين إلى المعتصم بسامرا، ولعناية المعتصم بأمر بابك وأخباره، ولفساد الطريق بالثلج وغيره، جعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة، على رأس كل فرسخ فرسًا معه مُجرٍ مرتب؛ فكان يركض بالخبر ركضًا حتى يؤديه من واحد إلى واحد، يداً بيدٍ؛ وكان من خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه المرج، فكان يركض فيها يومًا أو يومين، ثم تبدل ويصير غيرها، ويُحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على

رأس فرسخ، وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر؛ فإذا سمع الذى يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق، فيأخذ الخريطة منه، فجاء الخبر فى أربعة أيام وذلك مسيرة شهر. ودخل بابك إلى سامرا، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه بين الحائطين، فدخل إليه متنكرًا، ونظر إليه وتأمله. وأراد المعتصم أن يُشهره ويريه الناس، فقال على أى شىء يحمل هذا؟ وكيف يشهر؟، فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به فجعل فى قباء ديباج وقلنسوة سمّور مدورة، وهو وحده؛ وفى هذا قال الشاعر:

قد خُضب الفيل كعاداته	يحملُ شيطان خراسان
والفيل لا تخضبُ أعضاؤه	إلا لذى شأن من الشان

واصطف الناس سماطين؛ وأُدخل بابك إلى أمير المؤمنين، فأحضر جزارًا يقطع يديه ورجليه؛ ثم أمر أن يحضر سيافه، فخرج الحاجب من باب العامة؛ وهو ينادى: نودنود -وهو اسم سياف بابك- فارتفعت الصيحة بنودنود حتى حضر، فدخل دار العامة، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه، فقطعهما فسقط، وأمر أمير المؤمنين بذبحه، وشق بطنه، ووجه برأسه إلى خراسان، وصلب بدنه بسامرا عند العقبة بموضع خشبةٍ مشهور، وكان الإباحى بابك قد شرب الخمر ليلة قتله.

يقول ابن جرير الطبرى: كان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان، واستنقذ ممن كان فى يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان.

قال الذهبى: قيل: إنه أباد من الأمة خلائق، وبخط الإمام ابن الصلاح:

أن قتلى بابك بلغوا ألف ألف وخمسمائة ألفٍ، وأُحصى قتلى أبى مسلم الخراسانى، فبلغوا ألفى ألف.

كان للبابكية فى جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم، فإذا أطفئت سُرُجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عز بز.

والبابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم فى الجاهلية اسمه شروين، ويزعمون أن أباه كان من الزنج، وأمه من بنات ملوك الفرس، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء، وقد بنوا فى جبلهم مساجد للمسلمين يُؤذن فيها المسلمون، وهم يعلمون أولادهم القرآن، لكنهم لا يصلون، ولا يصومون فى شهر رمضان، ولا يرون جهاد الكفرة.

ومن رحمة الله بالمؤمنين فى السنوات التى تلتها أن الفرقة الإباحية الأخرى من الخرمدينية[1] نالها الذل والهوان فى السنوات القليلة بعد قتل بابك، فإنه لما أعلن مازيار خلع المعتصم والعصيان بطبرستان، كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين يأمره بحربه، فسيّر إليه عمه الحسن بن الحسين، فكانت له معه حروب كثيرة، وما زال حتى أسره وحمله إلى سامرا، فضرب المازيار بالسوط حتى مات بعد أن شهر، وصلب إلى جانب بابك، وفيه يقول أبو تمام:

ولقد شفى الأحشاء من برحائها ... أن صار بابكُ جار مازيار

ثانيه فى كبد السماء، ولم يكن ... لاثنين ثانٍ إذ هما فى الغار

وذهب الإباحى الظالم الغاشم الجبار.

ومن العجب أن مازيار هذا قال: إن الإفشين جعل أخاه يكتب إلى مازيار بنصر الدين الأبيض دين المجوسية، وجىء به وقد ضرب إمام مسجد ومؤذن ألف سوط؛ لأنهما وثبا على بيت أصنام بأشروسنة، فرميا الأصنام وعملاه مسجداً، وقال موبذ ملك السند عن الإفشين: إنه يأكل المخنوقة، ويحملنى على أكلها، ويقول: لحمها أرطب، وكان أهل مملكته من الفرس

(١) انظر «الفرق بين الفرق» (ص ٢٦٦ : ٢٦٩).

يكتبـون إليه: إلى الإله من عبـده، ولم يختتن، ولم يحلق عـانته قط، وأراد الإفشين قتل المـعتصم سمًّا هو وقواده بعد أن أنفق عليـه المعتصم ألفى ألف دينار، فكان جزاؤه أن منع عنه الطعـام حتى هلك، ثم صُلِب ميتًا، وأحرق مع أصنام عنده.

يقول أبو تمام فيه:

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعـه ... حتى اصطفى سرَّ الزنادِ الوارى

[٦٧] نهاية الخبيث صاحب الزنج(١)

المدعى أنه طالبى وهو كاذب. دخل جيشـه البصرة سنة ٢٥٧هـ، فقتل من أهلها خلقًا، وأحرق الزنج جامع البصـرة ودورًا كثيرة وانتهبوها، ثم نادى فيـهم إبراهيم بن المهلبى أحد أصـحاب الزنجى: من أراد الأمـان فليحـضر، فاجتـمع عنده خلق كثير من أهل البصـرة، فرأى أنه قد أصاب فرصـة فغدر بهم، وأمر بقتلهم، فلم يفلت منهم إلا الشاذ. كانت الزنج تحيط بجماعة من أهل البصرة، ثم يقول بعضهم لبعض: كيلوا -وهى الإشارة بينهم إلى القتل- فيحملون عليهم بالسيوف فلا يسـمع إلا تشهدهم، وضجيجهم وهم يقتلون؛ أى صراخ الزنج وضحكهم، فإنا لله وإنا إليـه راجعون، وهكذا كانوا يفعلون فى كل محال بالبصرة فى عدة أيام نحسات، وهرب الناس منهم كل مهرب، وحرقوا الـكلأ من الجبل إلى الجبل، فكانت النار تحرق مـا وجدت من شىء من إنسان أو بهـيمة أو آثار أو غـير ذلك، وأحرقـوا المسجد الجـامع، وقتلوا جماعة كثيرة من الأعيان والمحدثين والعلماء.

روى ابن جـرير عمن سـمعـه يقول: دعـوت الله على أهل البصـرة، فخوطبت، فقيل: إنما أهل البصرة خبـزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة، فأوّلت الرغيف القمر وانكساره انكسافه، وقد [illegible] شائعًا فى أصحابه حتى وقع الأمر طبق ما أخبر به.

(١) [illegible]اء من جنس العمل» (٢/ ١٨٢ : ١٨٥).

قال ابن كثير:

ولاشك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه، كما كان يأتى الشيطان مسيلمة وغيره. قال: ولمّا وقع من الزنج بأهل البصرة ما وقع، قال هذا الخبيث لمن معه: إنى صبيحة ذلك دعوت الله على أهل البصرة، فرفعت لى البصرة بين السماء والأرض، ورأيت أهلها يقتلون، ورأيت الملائكة تقاتل مع أصحابى، وإنى لمنصور على الناس، والملائكة تقاتل معى، وتثبت جيوشى، ويؤيدونى فى حروبى.

وبعد أن عاث فى الأرض فساداً وقتل من قتل، كتب إليه ولى عهد المسلمين الموفق أخو الخليفة المعتمد. ودعاه إلى الحق، فلم يجبه استهانة به، فركب إليه من فوره فى جيوش عظيمة، قريب من خمسين ألف مقاتل، قاصداً إلى المختارة مدينة صاحب الزنج، وجرت بينهم حروب عظيمة، وما زالت الحروب ناشبة حتى انسلخت السنة وهم محاصرون للخبيث صاحب الزنج، وظفر الموفق ببهبوذ بن عبد الله فقتله، وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين، وأعظم الرزايا عن الزنج وخرب الموفق بالله مدينة صاحب الزنج، واحتاز ما كان بها من الأموال، وقتل من كان بها من الرجال، وسبى من وجد فيها من النساء والأطفال، ولما فر الخبيث وتحصن ببلدة أخرى أخرجوه منها ذليلاً، ثم بعث السرايا والجيوش وراء صاحب الزنج، فأسروا عامة من كان معه من خاصته وجماعته، منهم سليمان بن جامع، فاستبشر الناس بأسره، وكبّروا الله وحمدوه فرحًا بالنصر والفتح وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة على أصحاب الخبيث، فاستحر فيهم القتل، وما انجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج، وأتى برأسه مع غلام لؤلؤة الطولونى، فلما تحقق الموفق أنه رأسه بعد شهادة الأمراء الذين كانوا معه من أصحابه خر ساجداً لله، وسجد ابن الموفق وقواده، ومواليه سجدوا شكراً لله، وأكثروا حمد الله والثناء عليه، وأمر الموفق برفع رأس الخبيث من قناة، ونصبه بين يديه، فتأمله الناس، وعرفوا صحة الخبر، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله. وكان يومًا مشهودًا، وفرح المسلمون بذلك فى المغارب والمشارق، وجم

بانكلانى وأبان بن على المهلبى مسعر حربهم مأسورين، ومعهما قريب من خمسة آلاف أسير، فتم السرور.

وسار الموفق إلى بغداد، وقدم ولده أبا العباس بين يديه، ومعه رأس الخبيث يحمل ليراه الناس وكان يومًا مشهودًا، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعى الكذاب قبحه الله، والشعراء فيما كان من أمر الموفق، وأمر المخذول أشعارٌ كثيرة منها:

أين نجوم الكاذب المارق ... ما كان بالطِّبِّ ولا الحاذق
صبحه بالنحس سعدٌ بدا ... لسيد فى قوله صادق
وذاق من كأس الردى شربةً ... كريهةً الطعام على الذائق

وقال آخر:

يهوى إلى حر الجحيم وقعرها ... بسلاسل قد أوهنته ثقال
هذا بما كسبت يداهُ وما جنى ... وبما أتى من سيئ الأعمال

[٦٨] محمد عبد الملك الزيات أحد الذين سجنوا الإمام أحمد[1]

كان من العصبة التى كان لها يد فى سجن علماء الأمة وتعذيبهم، وعلى رأسهم إمام أهل السنة.

روى الطبرى فى تاريخه عنه:

أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد قيام، فذكر عن ابن أبى دؤاد وأبى الوزير أنهما قالا: هو أول من أمر بعمل ذلك، فعذب به ابن أسباط المصرى حتى استخرج منه جميع ما عنده، ثم ابتلى به فعذب به أيامًا.

وقال الذهبى فى ترجمته:

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٥).
سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٣).

وكان يقول بخلق القرآن، ويقول: ما رحمت أحدًا قط، الرحمة خور فى الطبع، فسجن فى قفص حَرِج، جهاته مسامير كالمسال، فكان يصيح ارحمونى، فيقولون: الرحمة خور فى الطبيعة.

[٦٩] عاقبة ابن هانئ الشاعر(١)

أحد الشعراء الفجرة، وشاعر المعز العبيدى الفاطمى.

كان يقول للمعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وقال له أيضًا:

ندعوه منتقمًا عزيزًا قادراً ... غفار موبقة الذنوب

وقال فيه أيضًا:

رأيتك من ترزقه يُرزق من الورى ... دراكًا ومن تحرم من الناس يُحرم

وقال فيه أيضًا:

أدار كما شاء الورى وتحيزت ... على السبعة الأفلاك أنمله العشر

وقال فى هذا القزم أيضًا:

أرى مدحه كالمدح لله إنه ... قنوت وتسبيح يحط من الوزر

وقال أيضًا، قبحه الله وأخزاه:

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريل

ومن ذلك قوله: قال ابن الأثير ولم أرها فى شعره ولا فى ديوانه:

حلَّ بر قادة المسيح ... حلَّ بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالى ... فكل شىء سواه ريح

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٩٢)، «الجزاء من جنس العمل» (١/ ٣٥٢).

فهل أغنى عنه المعز؟

قال ابن كثير: استصحبه المعز الفاطمى من بلاد القيروان حين توجه إلى مصر، فمات ببعض الطريق، وجد مقتولاً على حافة البحر فى رجب سنة ٣٦٢هـ.

ومما قيل فى محمد بن هانئ أيضًا:

خرج من القصر فأصيب بمرض، فكان يعوى كالكلب على فراشه، ويقول: أنت الواحد القهار، وأخذ يبكى ويقول:

أبعين مفتقر إليك نظرت لى فأهنتنى وقذفتنى من حالق
لست الملوم أن الملوم لأننى علقت آمالى بغير الخالق

من آثر غير الله عُذب به... غضب عليه المعز... وقتل فى النهاية.

[٧٠] نهاية على بن الفضل الحميرى(١)

اسمه:

على بن الفضل بن أحمد الخنفرى الحميرى.

حياته:

سار ليحج ثم ليزور قبر الحسين بكربلاء والتقى هناك بجد الفاطميين عبيد الله بن ميمون القداح، فتفرس فيه الذكاء والنبوغ فانتدبه للقيام بالدعوة وأمره بالعودة إلى اليمن.

وبعد وصوله اليمن أظهر التنسك والعبادة وكان الناس يطلبون منه الدعاء ويرون فيه الرجل الصالح، ولما كثر أتباعه أعلن التمرد واستولى على أجزاء كثيرة من اليمن، وصل بعدها إلى زبيد وصنعاء وهناك أعلن مذهبه ومعتقده السيىء وبعد أن دخل صنعاء صعد المنبر وقال قصيدته المشهورة التى صرح فيها بدعوى النبوة وهى هذه:

---

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم».

خذى الدف يا هذه واضـربى وغنى هــزارك ثــم اطــربى
تولـى نبـى بنـــى هاشـــم وجاء نبى بنـــى يعـــــرب
أحل البنات مع الأمـــهات ومن فضله زاد حـــل الصبى
لكل نبـــى مضـــى شرعـــة وهـــذى شريعـــة هـذا النبى

إلى آخر ما جاء فى القـصيدة التى أعلن فيها كفـره وإلحاده، ثم يتبجح بالرسالة والاتصال بالله عز وجل حتى كان مؤذنه يقول فى أذانه أشهد أن على ابن الفضل رسول الله.

نهايته:

بعد عناء طويـل عاشه أهل اليـمن فى عهد هذا الـطاغية الدجـال جاء الخلاص على يد أحد الأطباء عام ٣٠٣هـ فأراح الله منه البلاد والعباد.

[٧١] نهاية أبى العلاء المعرى لا رحمه الله[١]

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان سمى نفسه: رهين الـمَحْبَسيْن.

قال ابن الجوزى: وأما أبو العلاء المعـرى فأشعاره ظاهرة الإلحاد، وكان يبالغ فى عداوة الأنبياء، ولم يزل متخـبطًا فى تعثيره، خائفًا من القتل إلى أن مات بخسرانه.

وكل صاحب فـرية ذليل جزاءً وفـاقًا، أعثـر الناس، وأخسـأهم قدرًا، وأردأهم عيشًا.

قال ابن كثير:

أبو العلاء المعـرى التنوخى الشاعر المشهور بالزندقـة، دخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمـائة، فأقام بها سنة وسـبعة أشهر، ثم خـرج منها طريدًا منهزمًا، لأنه سأل سؤال بشعر يدل على قلة دينه وعلمه وعقله، فقال:

---

(١) «الجزاء» (٣٩٠ : ٤٠١).

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له	وأن نعوذ بمولانا من النار
يدٌ بخمس مئين عسجدٍ وُديت	ما بالها قطعت فى رُبع دينار

وهذا من إفكه، وهذا من قلة عقله وعلمه، وعمى بصيرته، ولهذا قال بعضهم: كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت.

ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله هرب ورجع إلى بلده، ولزم منزله فكان لا يخرج منه.

وقد كان ذكيًّا ولم يكن زكيًا، وفى بعض أشعاره ما يدل على زندقته، وانحلاله من الدين، ومن الناس من يعتذر عنه ويقول: إنه كان يقول ذلك مجونًا ولعبًا، ويقول بلسانه ما ليس فى قلبه، وقد كان باطنه مسلمًا. قال ابن عقيل لما بلغه: وما الذى ألجأه أن يقول فى دار الإسلام ما يكفره به الناس؟ والمنافقون مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه، لأنهم حافظوا على قبائحهم فى الدنيا وستروها، وهذا أظهر الكفر الذى تسلط عليه به الناس وزندقوه، والله يعلم أن ظاهره كباطنه.

قال ابن الجوزى: وقد رأيت لأبى العلاء المعرى كتابًا سماه: الفصول والغايات، فى معارضة السور والآيات، على حروف المعجم فى آخر كلماته، وهو فى غاية الركاكة والبرودة، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته، ثم أورد ابن الجوزى من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الله أشياء كثيرة.

فمن ذلك قوله:

إن كان لا يحظى برزقك عاقل	وترزق مجنونًا وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرئ	رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

وقوله:

ألا إن البرية فى ضلال	وقد نظر اللبيب لما اعتراها
تقدم صاحب التوراة موسىً	وأوقع فى الخسار من اقتراها
فقال رجالهُ: وحيٌ أتاه	وقال الناظرون: بل افتراها

ومــا حـــجى إلى أحـــجـــار بيت ... كـؤوس الخـمـر تـشـرفُ فى ذراها
إذا رجع الحـليم إلـى حـــجـــاهُ ... تـهـــــاون بالمذاهب وازدراهـا

وقوله :

هفت الحنيفـة والنصارى مـا اهتدت ... ويهـودُ جـارت والمجـوسُ مـضلله
اثنـان أهل الأرض: ذو عـــقـل بلا ... دين وآخـــر دينٌ لا عـــقـل له

وقوله :

فـلا تحـسب مـقـال الرسل حـقًّـا ... ولـكن قـــــول زور سطـروه
وكـــان الناس فى عـيش رغيـدٍ ... فـــجـــاءوا بالمحـــال فـكـدروه

وقلت أنا معارضة عليه :

فـــلا تحـسب مـقـــال الرسل زورا ... ولكـن قـــول حق بـلغـــوه
وكـــان الناس فى جـــهل عظيم ... فـجـاءوا بـالبيان فـأوضـحـوه

وقوله :

إن الشـــرائع ألقـت بيننا إحـنا ... وأورثـتـنا أفــــانـين العـــداوات
وهل أبيحت نسـاء الروم عن عُرُضٍ ... للـعـــرب إلا بأحكام الـنبـــوات

وقوله :

ومـــا حـــمـــدى لآدم أو بنيـــه ... وأشــهـــد أن كلهم خـســيس

وقوله :

أفـيـقـــوا أفـيـقـوا يا غـــواة فـإنما ... ديانـاتكم مـكراً من الـقـــدمـــا

وقوله :

صـــرفُ الزمـان مـــفـــرق الإلفين ... فـــاحـكم إلـهى بـين ذاك وبينى
ونهيـت عن قـتل النفـوس تعـمـدًا ... وبعـثـت تقـبـضـهـا مـع الملكين
وزعـــمت أن لهـا مـعـــادًا ثانيًـــا ... مــا كــان أغـنـاها عن الحـــالين

وقوله:

ضحكنا وكان الضحكُ منا سفاهة ... وحُقَّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيامُ حتَّى كأننا ... زجاج ولكن لا يعودُ له سبكُ

وقوله:

أمور تستخفُّ بها حلومٌ ... وما يدرى الفتى لمن الثبورُ[1]
كتاب محمدٍ وكتابُ موسى ... وإنجيل ابن مريم والزبور

وقوله:

قالت معاشر لم يبعث إلهكمُ ... إلى البرية عيساها ولا موسى
وإنما جعلوا الرحمن مأكلة ... وصيروا دينهم فى الناس ناموسا

وذكر ابن الجوزى وغيره أشياء كثيرة تدل على كفره، بل كل واحدة من هذه الأشياء تدل على كفره، وزندقته وانحلاله، ويقال: إنه أوصى أن يكتب على قبره.

هذا جناه أبى علىَّ ... وما جنيتُ على أحد

معناه أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه فى هذه الدار، حتى صار بسبب ذلك إلى ما إليه صار، وهو لم يجن على أحد بهذه الجناية، وهذا كله كفر وإلحاد، قبحه الله، وقد زعم بعضهم أنه أقلع عن هذا كله وتاب منه، وأنه قال قصيدة يعتذر فيها من ذلك كله، ويتنصل منه، وهى القصيدة التى يقول فيها:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل[2]
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخُّ فى تلك العظام النُّحل
امنن علىّ بتوبة تمحو بها ... ما كان منى فى الزمان الأول

وأنشدت عند قبره ثمانون مرثاة حتى قال بعضهم فى مرثاة له:

---

(١) أى: الهلاك.

(٢) أى: كثير الظلمة.

إن كنت لم تُرق الدماء زهادة　　فلقد أرقت اليوم من جفنى دما

قال ابن الجوزى: وهؤلاء الذين رثوه والذين اعتقدوه: إما جهال بأمره، وإما ضُلاَّل على مذهبه وطريقه.

وقد رأى بعضهم فى النوم رجلاً ضريرًا على عاتقه حيتان مدليتان على صدره، رافعتان رأسيهما إليه، وهما ينهشان لحمه، وهو يستغيث، وقائل يقول: هذا المعرى الضرير[1] الملحد.

وذكر ابن خلّكان أنه أوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبى على..

قال ابن خلكان: وهذا أيضًا باعتقاد الحكماء، فإنهم يقولون اتخاذ الولد وإخراجه إلى هذا الوجود جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث والآفات. قلت: وهذا يدل على أنه لم يتغير عن اعتقاده، وهو ما يعتقده الحكماء إلى آخر وقت، وأنه لم يقلع عن ذلك كما ذكره بعضهم، والله أعلم بظواهر الأمور وبواطنها. اهـ.

يقول عنه الذهبى: أبو العلاء، شيخ الآداب، اللغوى الشاعر، صاحب التصانيف السائرة، والمتهم فى نحلته.

ومن أردأ تواليفه: رسالة الغفران. فى مجلد، وقد احتوت على مزدكة وفراغ، ورسالة الملائكة، ورسالة الطير على ذلك الأنموذج.

قال الباخرزى: أبو العلاء ضرير ما له ضريب، ومكفوف فى قميص الفضل ملفوف، ومحجوب خصمه الألد محجوج، قد طال فى ظل الإسلام آناؤه، ورشح بالإلحاد إناؤه، وعندنا خبر بصره، والله العالم ببصيرته، والمطلع على سريرته، وإنما تحدثت الألسن بإساءته، بكتابه الذى عارض به القرآن، وعنونه بـ: الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات.

---

(١) رواه أبو غالب بن نبهان وهو من أهل الخير والفقه. انظر «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٣٤).

وقال غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن: له شعر كثير، وأدب غزير، ويرمى بالإلحاد، وأشعاره دالة على ما يُزنُّ به[1].

ويظهر الصوم دائمًا، قال: ونحن نذكر مما رمى به فمنه:

قران المُشترى زُحلاً يُرجى ... لإيقاظ النواظر من كراها
تقضى الناس جيلاً بعد جيلٍ ... وخُلفت النجوم كما تراها
تقدم صاحب التوراة موسى ... وأوقع بالخسار من اقتراها
وما حجى إلى أحجار بيت ... كؤوس الخمر تُشرب فى ذراها
إذا رجع الحكيم إلى حجاه ... تهاون بالمذاهب وازدراها

ومنه:

قلتم لنا خالق قديم ... صدقتُم هكذا نقولُ
زعمتموه بلا زمان ... ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلامٌ له خبىءٌ ... معناه ليست لكم عقول

ومنه:

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقال وفُر ... قانٌ يُنصُّ وتوراةٌ وإنجيل
فى كل جيل أباطيلٌ يُدان بها ... فهل تفرد يومًا بالهدى جيلُ

فأجبته:

نعم أبو القاسم الهادى وأمته ... فزادك الله ذلاًّ يا دُجيجيلُ

ومنه:

وإنما حمل التوراة قارئها ... كسبُ الفوائد لا حُبُّ التلاوات
وهل أُبيحت نساء الروم عن ... عُرُضٍ للعُربِ إلا بأحكام النبوات

(١) أى: ما يتهم به.

وعن التبريزى: قال: لـمّا قرأت على أبى العلاء:

تناقض مـــا لنـا إلا السكوتُ له ... وأن تـعــــوذ بمولانا مـن النـار

يد بخمس مىءٍ[1] من عسجد وُديت ... مـا بـالهــا قُـطعَتْ فى ربـع دينار

سألتهُ، فقال: هذا كقول الفقهاء: عبادة لا يعقل معناها.

قال كـاتبه: لو أراد ذلك؛ لقال: تعـبُّد، ولما قـال: تناقض، ولما أردفه ببيت آخر يعترض على ربه.

وبإسنادى قال السلفى: إن كان قال معـتقدًا معناه، فالنار مأواه، وليس له فى الإسلام نصيب، هذا إلى ما يُحكى عنه فى كتاب: الفصول والغايات، فقيل له: أين هذا من القرآن؟ فقال: لم تصقله المحاريب أربعمائة سنة.

قال الذهبـى: ويظهر لى من حال هـذا المخذول أنه متـحيـر، لم يجزم بنحلة، اللهم فاحفظ علينا إيماننا.

قال الذهبى: قد طال المقال، وما على الرجل أُنسُ زهاد المؤمنين، والله أعلم بما ختم له. ومن خبيث قوله.

أتى عـيسى فـبـطلٍ شـرع موسى ... وجـاء مـحـمـدٌ بصــلاة خـمس

وقـــالوا لا نـبىَّ بـعـــد هذا ... فـــضـل الناس بين غـــد وأمس

ومـهـمـا عـشـتَ من دنيـاك هذى ... فـمـا تُخـيلـك من قـمـر وشَـمس

إذا قلتُ المحَـال رفـعـتُ صـوتى ... وإن قلتُ الـيـقين أطـلت همــسى

قال طه حسين فى تجديد ذكرى أبى العلاء:

أبو العلاء كان منكرًا للنبـوات، جاحدًا لصحتـها، وقد نص على ذلك فى اللزوميات صراحة غير مرة، فطورًا يثبت أنها زور، وطورًا يجعلها مصدر الشرور، وافتن فى ذلك افتنانًا عجيـبًا، فلم يكتف بإنكار النبوات، حتى أنكر الديانات عامة.

---

(١) من جموع المئة.

ويقول في التعريض بالإسلام خاصة:

تلوا باطلاً وجلوا صارمًا ... وقالوا صدقنا فقلنا نعم

ويقول في التعريض بالنبي - ﷺ -:

ولستُ أقولُ إن الشهب يومًا ... لبعث محمدٍ جُعلت رجومًا

ويقول في ذلك مُعرضًا بقصة خيبر:

ومحمد وهو المنبأ يشتكي ... لمكان أكلته انقطاع الأبهر

ويقول:

وإذا ما سألت أصحاب دين ... غيروا بالقياس ما رتَّبوهُ

لا يدينون بالعقول ولكن ... بأباطيل زخرفٍ كذبوهُ

ويقول:

بنت النصارى للمسيح كنائسًا ... كادت تعيبُ الفعل من مُنتابها

ومتى ذكرت محمداً وكتابه ... جاءت يهودُ بجحدها وكتابها

وانظر إلى السخرية في قوله:

أفملَّةَ الإسلام ينكر منكرٌ ... وقضاء ربك صاغها وأتى بها

ويقول:

غدا أهل الشرائع في اختلاف ... تُقَضُّ به المضاجع والمهودُ

فقد كذبت على عيسى النصارى ... كما كذبت على موسى اليهودُ

وانظر إلى تعريضه بالإسلام:

ولم تستحدث الأيامُ خلقًا ... ولا حالت من الزمن العهود

ومثل هذا كثير منبث في اللزوميات، لم نشأ أن نسرف في روايته اتقاء الإطالة، وخشية الإملال، وهو يدل على أن روح الرجل لم يكن روح مؤمن بالنبوات، ولا مصدقٍ للأنبياء.

وقال أيضًا :

وقال فى إنكار ما فى القرآن من تقسيم فرائض الميراث :

حيران أنت فأى الناس تتبع تجرى الحظوظ وكل جاهلٌ طبع
والأم بالسدس عادت وهى أرأف من بنتٍ لها النصف أو عرس لها الربع

وقد أجمع المؤرخون على أن أبا العلاء، عارض القرآن بكتاب سماه : الفصول والغايات فى محاكاة السور والآيات. وأبو العلاء نفسه لم ينكر هذا الكتاب، بل أثبته فى ثبت كتبه، الذى رواه القفطى والذهبى، والناس يكفرون أبا العلاء بهذا الكتاب، وبما فى رسالة الغفران من سخرية، وبما فى اللزوميات من إنكار النبوات.

أما موقفه من البعث:

فيقول طه حسين: اضطرب رأى أبى العلاء فى البعث اضطرابًا شديدًا، فمرة أثبته، فقال :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُحشر الأجسام قلت إليكما
إن كان رأيكما فلستُ بخاسرٍ أو صح قولى فالخسار عليكما

وتارة ينكره نصًّا، بل نفاه أكثر من ستين مرة فى اللزوميات، ومن أشنع قوله فى ذلك :

وزعمت أن لها معادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالين

وتارة يقف فى أمر البعث موقف الشك فيقول :

يا مرحبًا بالموت من مُتنظر إن كان ثمَّ تعارفٍ وتلاق

الجن والملائكة:

قال طه حسين: أبو العلاء أنكر الجن والملائكة فى اللزوميات نصًّا فقال :

قد عــشت عمراً طويــلاً ما علمت به حـــسًّـــا يحـــسن لجنـــيٍّ ولا ملك

وقال:

فاخش المليك ولا تـوجد على رهب إن أنت بالجنَّ فى الظلمـاء خُشـيِّتـا
فــإنما تــلك أخــبــار ملـفَّــقـــةٌ لخـّدعة الغـافل الحشـوى حوشـيتـا

ورسالة الغفـران مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة جميـعًا، وقد نظم الشعر فى رسالة الغفران على ألسنة الجن الذين دخلوا الجنة، فقال -وإنما يريد الهزء والسخرية-:

مكــة أقـــوت من بـنى الدردبـيس فـــمـــا لجنى بهـــا من حـــســيس

أصل الإنسان:

شك فى أصل الإنسان فقال:

جـــــائـز أن يكـون آدم هــذا قــــــبـله آدم عــلــى إثــر آدم

ثم جزم بذلك فقال:

ومــا آدم فى مــذهب الـعـقل واحــدٌ ولكــنه عــند القـــيـــــاس أوادم

وتمنى أبو العلاء لو أن الإنسان لم يوجد؛ لأنه شـرير مفسد فى الأرض فقال:

يا ليـــتت آدم كـــان طلـق أمـــهم أو كـــان حـــرمـهـــا عليه ظـهـــارُ
ولدتهمُ فــى غـيـر طـهـر عــاركـا فلذاك تفــقـــد فـيـــهم الأطهـــارُ

وهو لا يفرق فى حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية فيقول:

وســـيـــــان من أمــــه حـــــرة حـــصـــانٌ ومن أمـــه زانيــــة

ويقول:

مــا مـيـز الأطفــال فى أشبــاحـهــا لــلعـين حـل ولادة وظهـــــــارُ

وبالغ أبو العلاء فى كره الوجود حتى استحسن من وأد البنات ما حرمه الله:

ودفنٌ والحوادث فاجعات ... لإحداهن إحدى المكرمات

واستحسن غير مرة تحريق الهند موتاهم وأحبه، وفى ذلك يقول:

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم ... وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوا فما يخشون من ضبع ... تسرى إليه ولا خفى وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا ... غبًّا وأذهب للنكراء والريح

وذهب المعرى إلى تحريم أكل الحيوان وما يخرج منه فمن ذلك قوله:

غدوت مريض العقل والدين فالقنى ... لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج البحر ظالمًا ... ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه ... لأطفالها دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير وهى غوافل ... بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له ... كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها ... ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا فليتنى ... أبهت لشانى قبل شيب المسائح

وجازاه الله بنحلته، وبما قال عن ملته بحبس الدنيا قبل الآخرة، فحبسه فى جسده، وهذا أشد الحبس.

واللفظ الذى اختاره لنفسه، وكان يحب أن ينادى به رهين المحبسين وإنما أراد بالمحبسين منزله الذى احتجب فيه، وذهاب بصره، على أنه ذكر لنفسه فى اللزوميات سجونًا ثلاثة: أحدها منزله، والآخر ذهاب بصره، والثالث: جسمه المادى الذى احتبست فيه نفسه أيام الحياة، وذلك حيث يقول:

أرانى فى الثلاثة من سجونى ... فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفـــقـــدى ناظـرى ولزوم بيـــتى   وكـون النفس فى الجسم الخبـيث

فهذه صورة الأديب الفـيلسوف الذى خُدع الناس به طويلاً، الذى أنكر النبوات، عرض بالتكليف، وعارض القرآن، وهزئ بشىء من أحكامه:

سيـسأل قـوم مـا الحـجـيج ومكةٌ   كمـا قال قـوم ما جديـسٌ وما طسم

هذا الذى رأى التقية:

لا تخـبـرنَّ بكنه[1] دينك مـعشـراً   شُطُرًا وإن تفـعل فـأنت مُـغَـرَّرُ

وقال:

فـاكـتم حديثـك لا يشعـر به أحـدٌ   من رهط جبـريل أو من رهط إبليس

لقد حـبس فى جسده ذليـلاً فى دار الدنيا، والله الموعـد، ويكفيك أنه رأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعـيد والعلو، وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط، وبها نطق جزاءً وفاقًا، فقال:

دُعـــيـت أبا العـــلاء وذاك مينٌ   ولكـن الصـــحـــيح أبا الـنزول

[٧٢] نهاية ابن الراوندى الزنديق[2]

قال ابـن الجوزى: كم من زنديق فى قلبـه حقـد على الإسلام، خـرج فبالغ، واجتهد فزخرف دعاوى يلقى بهـا من يصحبه، وكان غور مقصده فى الاعـتـقـاد الانسـلال مـن الدين، وفى العـمل نيل الملـذات، واسـتـبـاحـة المحظورات.

ومنهم من لم يبـرح على تعـثيـره، ففـاتته الدنيـا والآخرة، مـثل ابن الراوندى، والمعرِّى.

---

(١) كنه الشىء: حقيقته.

(٢) «الجزاء» (١/ ٣٨٦ : ٣٨٩).

عن التنوخى قال: كان ابن الراوندى ملازم الرافضة، وأهل الإلحاد، فإذا عوتب قال: إنما أريد أن أعرف مذاهبهم، ثم كاشف وناظر.

قال ابن الجوزى: من تأمل حال ابن الراوندى وجده من كبار الملحدة، وصنّف كتابًا سماه: الدامغ. زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة، فسبحان من دمغه، فأخذه وهو فى شرخ الشباب.

وكان يعترض على القرآن، ويدعى عليه التناقض وعدم الفصاحة، وهو يعلم أن فصحاء العرب تحيرت عند سماعه، فكيف بالألكن.

قال ابن كثير:

أحد مشاهير الزندقة، كان أبوه يهوديًّا، فأظهر الإسلام، ويقال: إنه حرّف التوراة، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن، وألحد فيه، وصنف كتابًا فى الرد على القرآن سماه: الدامغ. وكتابًا فى الرد على الشريعة، والاعتراض عليها سماه: الزمردة، وكتابًا يقال له: التاج فى معنى ذلك.

قال الجبائى: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندى، فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء، قال: وقد وضع كتابًا فى قدم العالم، ونفى الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية، والرد على أهل التوحيد، ووضع كتابًا فى الرد على محمد رسول الله -ﷺ- فى سبعة عشر موضعًا، ونسبه إلى الكذب -يعنى: النبى -ﷺ- وطعن على القرآن، ووضع كتابًا لليهود والنصارى، وفضل دينهم على المسلمين والإسلام، يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد -ﷺ- إلى غير ذلك من الكتب التى تبين خروجه عن الإسلام. نقل ذلك ابن الجوزى عنه.

وقد أورد ابن الجوزى فى منتظمه طرفًا من كلامه وزندقته، وطعنه على الآيات والشريعة، وردّ عليه فى ذلك، وهو أقل وأخسّ وأذلّ من أن يلتفت إليه، وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وتمويهه. وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر، منها ما هو صحيح عنه، ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله، وعلى طريقه ومسلكه فى الكفر والتستر فى

المسخرة، يخرجونها فى قوالب مسخرة، وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة، وهذا كثير موجود فيمن يدعى الإسلام وهو منافق، يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾[١] الآية.

وقد كان أبو عيسى الورّاق مصاحبًا لابن الراوندى -قبّحهما الله- فلما علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى، فأودع السجن حتى مات، وأما ابن الراوندى فلجأ إلى ابن لاوى اليهودي، وصنف له فى مدة مقامه عنده كتابه الذى سماه: الدامغ للقرآن. فلم يلبث بعده إلا أيامًا يسيرة حتى مات -لعنه الله- ويقال: إنه أخذ وصلب.

قال أبو الوفاء بن عقيل: ورأيت فى كتاب محقق أنه عاش ستًّا وثلاثين سنة، مع ما انتهى إليه من التوغل فى المخازى فى هذا العمر القصير، لعنه الله، وقبّحه، ولا رحم عظامه.

قال الذهبى عنه: الملحد، عدو الدين، الرِّويندى، صاحب التصانيف فى الحط على الملة.

قال ابن الجوزى: كنت أسمع عنه بالعظائم، حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب، ورأيت له كتاب: نعت الحكمة. وكتاب: قضيب الذهب، وكتاب: الزمردة، وكتاب: الدامغ الذى نقضه عليه الجبائى، ونقض عبد الرحمن بن محمد الخيّاط عليه كتاب الزمردة.

قال ابن عقيل: عجبى كيف لم يقتل؟! وقد صنف الدامغ يدمغ به القرآن، والزمردة يزرى فيه على النبوات.

قال ابن الجوزى عن الزمردة: فيه هذيان بارد، لا يتعلق بشبهة!.

يقول فيه: إن كلام أكثم بن صيفى فيه ما هو أحسن من سورة الكوثر! وإن الأنبياء وقعوا بطلاسم. وألف لليهود والنصارى يحتج لهم فى إبطال نبوة سيد البشر.

---

(١) سورة التوبة: ٦٥، ٦٦.

قال أبو العباس بن القاص الفقيه: كان ابن الراوندى لا يستقر على مذهب ولا نحلة، حتى صنف لليهود كتاب النصرة على المسلمين لدراهم أُعطيها من يهود. فلما أخذ المال، رام نقضها، فأعطوه مئتى درهم حتى سكت.

قال فى بعض المعجزات: يقول المنجم كهذا.

وقال: فى القران لحن.

وقال: يقولون: لا يأتى أحد بمثل القرآن. فهذا إقليدس لا يأتى أحد بمثله، وكذلك بطليموس. قيل: إنه اختلف إلى المبرد فقال المبرد: لو اختلف إلىّ سنة لا حتجت أن أقوم وأجلسه مكانى.

لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضى الله عن البلادة مع التقوى فكان جزاء الزنديق من جنس عمله، ودمغه الله ولم يمهله بعد ما ألف الدامغ جزاءً وفاقًا.

[٧٣] عاقبة أحمد بن أبى دؤاد[(١)]

المعتزلى قاضى المعتصم؛ الذى جرّ البلاد إلى محنة خلق القرآن، وبسببه أهين علماء الأمة وعذبوا وسجنوا وقتلوا.

يقول الشاعر أبو حجاج الأعرابى فيه:

نكست الدين يابن أبى دؤاد ... فأصبح من أطاعك فى ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقا ... أما لك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بعلم ... على جبريل إلى خير العباد
ومن أمسى ببابك مستفيضًا ... كمن حلّ الفلاة بغير زاد
لقد أطرفت يابن أبى دؤاد ... بقولك إننى رجل إيادى

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٠-١٧١)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٣٥-٣٣٦) «الجزاء من جنس العمل» (١/ ٣٥٣).

هذا الذى تكلم فى عقيدة أهل السنة وشانها، وتكلّم فى أحمد بن حنبل وعاب معتقده.

بسبب ابن أبى دؤاد هذا قتل أحمد بن نصر الخزاعى وسجن الإمام أحمد وعذب بالسياط، ودعا عليه الإمام أحمد؛ فحبسه الله فى جسده كما حبس الإمام، ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكنانى، وقال له: لم آتك عائدًا، بل لأحمد الله أن سجنك فى جلدك.

قال ابن كثير: ابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقى طريحًا فى فراشه، لا يستطيع أن يحرك شيئًا من جسده، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك. جعل نصف جسده لو سقط عليه ذباب فكأنما نهشته السباع، والنصف الآخر لو نهشته السباع لم يحس بها.

وقد دخل عليه بعضهم قال: والله ما جئتك عائدًا، وإنما جئتك لأعزيك فى نفسك وأحمد الله الذى سجنك فى جسدك الذى هو أشد عليك عقوبة من كلّ سجن، ثم خرج عنه داعيًا عليه بأن يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه، فازداد مرضًا إلى مرضه. وقد صودر فى العام الماضى سنة ٢٣٨ بأموال جزيلة جدًا، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل. وكذا ابنه أبو الوليد محمد، صودر بألف ألف دينار ومائتى ألف دينار ومات قبل أبيه بشهر.

فى يوم السبت، لثلاث خلون من ربيع الآخر، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار. ومن الجواهر النفيسة ما يقوّم بعشرين ألف دينار، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين، قال ابن جرير: فقال فى ذلك أبو العتاهية:

لو كنت فى الرأى منسوبًا إلى رشد ... وكان عزمكَ عزمًا فيه توفيقُ

لكان فى الفقه شغل لو قنعت به ... عن أن تقول كتاب الله مخلوقُ

ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ... ما كان فى الفرع لولا الجهل والموق

انظر كيف أذله الله وحبسه فى جسده، وأهين قبل موته

[٧٤] من رآني فلا يظلمن أحدًا[١]

«مما حُكى»:

قال بعضهم: رأيت رجلاً مقطوع اليد من الكتف وهو ينادى: من رآنى فلا يظلمن أحدًا. فتقدمت إليه فقلت له: يا أخى ما قصتك؟ قال: يا أخى قصتى عجيبة وذلك أنى كنت من أعوان الظلمة فرأيت يومًا صيادًا وقد اصطاد سمكة كبيرة فأعجبتنى، فجئت إليه فقلت: أعطنى هذه السمكة؛ فقال: لا أعطيكها أنا آخذ بثمنها قوتًا لعيالى، فضربته وأخذتها منه قهرًا، ومضيت بها - قال: فبينما أنا أمشى بها حاملها إذا عضت على إبهامى عضة قوية فلما جئت بها إلى بيتى وألقيتها من يدى ضربت علىّ إبهامى وآلمتنى ألمًا شديدًا حتى لم أنم من شدة الوجع والألم وورمت يدى، فلما أصبحت أتيت الطبيب وشكوت إليه الألم فقال: هذه بدء الأكلة[٢]!! اقطعها وإلا نقطع يدك، فقطعت إبهامى ثم ضربت علىّ يدى فلم أطق النوم ولا القرار من شدة الألم، فقيل لى اقطع كفك فقطعتُه، وانتشر الألم إلى الساعد وآلمنى ألمًا شديدًا ولم أطق القرار وجعلت أستغيث من شدة الألم، فقيل لى: اقطعها إلى المرفق فقطعتها، فانتشر الألم إلى العضد، وضربت علىّ عضدُى أشد من الألم الأول، فقيل: اقطع يدك من كتفك، وإلا سرى إلى جسدك كله، فقطعتها. فقال لى بعض الناس: ما سبب ألمك؟ فذكرت قصة السمكة، فقال لى: لو كُنت رجعت فى أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة واستحللت منه وأرضيته لما قطعت من أعضائك عضوًا فاذهب الآن إليه واطلب رضاه، قبل أن يصل الألم إلى بدنك. قال: فلم أزل أطلبه فى البلد حتى وجدته فوقعت على رجليه أقبلها وأبكى وقلت له: يا سيدى سألتك بالله إلا عفوت عنى. فقال لى: ومن أنت؟.

قلت: أنا الذى أخذت منك السمكة غصبًا وذكرت ما جرى وأريته يدى فبكى حين رآها ثم قال: يا أخى قد أحللتك[٣] منها لما رأيته بك من هذا

---

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٥٥).

(٢) الآكلة: داء فى العضو يتآكل منه.

(٣) أى: عفوت عنك.

البلاء. فقلت: يا سيدى بالله هل كُنت قد دعوت علىَّ لما أخذتها؟ قال: نعم. قلت: «اللهم إن هذا تقوى على بقوته على ضعفى على ما رزقتنى ظلمًا فأرنى قدرتك فيه».

فقلت: يا سيدى قد أراك الله قدرته فىَّ وأنا تائب إلى الله عز وجل عمَّا كنت عليه من خدمة الظلمة ولا عُدت أقف لهم على باب، ولا أكون من أعوانهم ما دُمت حيًّا إن شاء الله.

[٧٥] نهاية القاهر بالله(١)

قال الذهبى:

كان فيه شر وجبروت وطيش، بايعوه بعد المقتدر، فصادر حاشية أخيه وعذبهم، وضرب أم المقتدر بيده، وهى عليلة، ثم ماتت معلقة بحبل، وعذب أم موسى القهرمانة، وبالغ فى الإساءة، فنفرت منه القلوب، وقُبض على شيخ الحنابلة البربهارى. ونهب القاهر دور مخالفيه، وطين على ولد أخيه المكتفى بين خيطين، ونادى بتحريم الغناء والخمر، وكسر الملاهى، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسلاف، ويسكر ويسمع القينات. وقتل أبا السرايا ابن حمدان وإسحاق النوبختى ألقاهما فى بئر، وطُمت؛ لكونهما زايداه فى جارية قبل الخلافة. ثم خُلع وأكحل بمسمار لسوء سيرته وسفكه الدماء.

قال الصولى: كان أهوج، سفاكًا للدماء، كثير التلون، قبيح السيرة، مدمن الخمر، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل، وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنسانًا.

قال المسعودى: أخذ من مؤنس وأصحابه أموالاً كثيرة. فلما خلع طُولب بها فأنكر. وقف يومًا بالجامع بين الصفوف، وعليه جبة بيضاء، وقال: تصدقوا علىّ فأنا من قد عرفتم.

نهب أموال الناس قسرًا، فآلت به الحال أن صار يستجدى الناس جزاءً وفاقًا.

---

(١) «الجزاء» (٢/ ٢٧٠ : ٢٧١).

[٧٦] عاقبة ابن العلقمى الرافضى الخبيث[1]

زالت -من أثر خيانته- الخلافة العباسية ببغداد سنة ست وخمسين وستمائة على يد هولاكو وقتل الخليفة المستعصم بالله.

كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بهولاكو لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، وكان قدوم هولاكو لبغداد فى ثانى عشر المحرم ومعه نحو مائتى ألف مقاتل.

فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب من القضاة، والفقهاء، والصوفية، ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبع عشرة نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأُحضر الخليفة بين يدى هولاكو، فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال أنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفى صحبته خوجه نصير الدين الطوسى والوزير ابن العلقمى وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخليفة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله، ويقال: إن الذى أشار بقتله الوزير ابن العلقمى، والمولى نصير الدين الطوسى -وكان هولاكو قد انتخب النصير ليكون فى خدمته كالوزير المشير- فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة، هون عليه الوزير ابن العلقمى ذلك فقتلوه رفسًا، وهو فى جوالق؛ لئلا يقع على الأرض شىء من دمه، وقيل:

---

(١) انظر «الجزاء من جنس العمل» (ص ٣٥٩) وما بعدها.

بل خنق، ويقال: بل أغرق، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، ثم ولده عبد الرحمن وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر وقتل أستاذ دار الخلافة محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى، وقتل أولاده الثلاثة، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال، والنساء، والولدان، والمشايخ، والكهول، والشبان، وسادات العلماء، والقضاة، والأكابر، والرؤساء، والأمراء وأولى الحل، والعقد.

ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار، إما بالكسر، وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة. وكذلك فى المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمى، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا، بذلوا عليه أموالاً جزيلة، وعادت بغداد -بعد ما كانت آنس المدن كلها- كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمى -قبل هذه الحادثة- يجتهد فى صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان إلى أن لم يبق سوى عشر آلاف، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد، ثم كاتب التتار، وأطمعهم فى أخذ البلاد وسهل عليه ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين والله غالب على أمره، وقد رد كيده فى نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قتل

ببغـداد من الرجال والنساء والأطفـال، فالحكم لله العلى الكبـير رب الأرض والسمـاء وقد اختلف الناس فى كمـية من قتل ببـغداد من المسلمين -فى هذه الوقـعة- فـقيل: ثمـانمائة ألف، وقيل: ألـف ألف وثمانمائة، وقـيل: بلغت القتلى ألفى ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا.

وقتل الخطبـاء والأئمة وحـملة القرآن، وتعطلت المسـاجد والجمـاعات والجمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمى -قبحه الله ولعنه- أن يعطل المساجـد والمدارس والربط ببغداد، ويستـمر بالمشاهد ومحـال الفرض، وأن يبنى للرافضـة مدرسة هـائلة ينشرون علمهم وعَلَمَـهم بها وعليـها، فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته، وقصف عـمره بعد شهور يسيره من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا، والله أعلم بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمـر المقدر وانقضت الأربعـون يومًا، بقيت بغـداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول، وقد سـقط عليهم المطر فتغـيرت صورهم وأنتنت من جيـفهم البلد، وتغير الهواء فـحصل بسببه الوباء الشديد، حـتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام، فـمات خلق كثيـر من تغير الجـو، وفساد الريح، فاجـتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودى ببـغداد بالأمـان، خرج من تحت الأرض من كـان بالمطاميـر والقنى والمقابر، كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبـورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى.

ورحل هولاكـو إلى مقـر ملكه، وفـوّض أمر بغـداد إلى الأميـر على بهادر، فوض إليه الشحنكـية بها وإلى الوزير ابن العلقمى، فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، فمات جهدًا وغمًّا وحزنًا وندمًا إلى حيث

ألقت رحلها أم قعشم، فولى بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه فى بقية العام، ولله الحمد والمنة.

ويقول عنه ابن كثير أيضًا:

محمد بن أحمد بن على بن أبى طالب، الوزير مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمى وزير المستعصم. ثم صار وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلي المسلمين. وكان رافضيًّا خبيثًا ردىء الطوية على الإسلام وأهله، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة فى أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء، ثم مالأ على الإسلام وأهله الكافر هولاكو خان.

ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدى التتار، الذين مالأهم، وزال عنه ستر الله، وذاق الخزى فى الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وقد رأته امرأة وهو فى الذل والهوان وهو راكب فى أيام التتار برذونًا وهو مرسم عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه، وقالت له: يابن العلقمى هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها فى قلبه وانقطع إلى داره إلى أن مات كمدًا وغبينة وضيقًا، وقلة وذلة، وسمع بأذنيه، ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يجد ولا يوصف، وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة، ثم أخذه الله أخذ القرى وهى ظالمة سريعًا، وقد هجاه بعض الشعراء، فقال فيه:

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا ... أسفًا على ما حل بالمستعصم

دستُ الوزارة كان قبل زمانه ... لابن الفرات فصار لابن العلقمى

وقال عنه الذهبى:

«الوزير الكبير المدبر المبير مؤيد الدين محمد بن محمد بن على بن أبى طالب بن العلقمى. أفشى الرفض فعارضته السنة وأُكبِت، فتنمر، ورأى أن هولاكو على قصد العراق فكاتبه وحبره وقوى عزمه على قصد العراق، ليتخذ عنده يدًا، وليتمكن من أغراضه، وحفر للأمة قَلِيبًا فأوقع فيه قريبًا،

وذاق الهوان، وبقى يركب كديشًا وحده، بعد أن كـانت ركبته تضاهى موكب سلطان، فمات غبنًا وغمًّا بعد الكائنة بثلاثة أشـهر وهلك، وفى الآخرة أشد خزيًا وأشد تنكيلاً» والجزاء من جنس العمل.

[٧٧] عاقبة الحلاج[١]

هو الحسين بن منصور بن محـمى الحلاج أبو مغيث، رأس أهل الحلول والاتحاد.

قال سفـيان بن عيينة: من فـسد من علمائنا كـان فيه شبه مـن اليهود، ومن فسـد من عبادنا كـان فيه شـبه من النصارى، ولهـذا دخل على الحلاج الحلول فصار من أهل الانحراف.

صح عنه أنه دخل إلى الهنـد وتعلم بها السـحـر، وقال: أدعـو به إلى الله، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث، ويكاتبه أهل سركسان بالمقيت، وأهل خراسان بالممـيز، وأهل فارس بأبى عبد الله الزاهد، وأهل خوزسـتان بحلاَّج الأسرار، وكان بعض البغدادة يقولون له: المصطلم، وأهل البصرة يقولون له: المحير.

ومن شعره:

سـبـحـان من أظهـر ناسـوته ... سـرُّ سنا لاهوتـه الثـاقب
ثـم بدا فـى خـلـقـه ظاهـراً ... فى صـورة الآكل والـشـارب
حـتى لقـد عـاينه خلقـه ... كلـحظة الحـاجب بـالحـاجب

قال عمرو بن عثـمان المكى: كنت أماشى الحلاج فى بعض أزقة مكة، وكنت أقرأ القرآن، فسمع قراءتى فقال: يمكننى أن أقول مثل هذا ففارقته.

وقال القشيرى فى رسالته[٢] فى باب حفظ قلوب المشايخ: إن عمرو بن

---

(١) «الجزاء من جنس العمل» (ص ٣٧٢ وما بعدها).

(٢) قد قمت بالتعليق عليه وضمنته تعليقات شيخ الإسلام ابن تيمية وهو طبعة التوفيقية.

عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئًا فى أوراق، فقال له: ما هذا؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن.

وكتب عمرو بن عثمان إلى الآفاق كتبًا كثيرة يلعنه فيها، ويحذر الناس منه، فشرد الحلاج فى البلاد، فعاث يمينًا وشمالاً، وجعل يظهر أنه يدعو إلى الله، ويستعين بأنواع من الحيل، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، فقتله بسيف الشرع الذى لا يقع إلا بين كتفى زنديق، والله أعدل من أن يسلطه على صديق، فكيف وقد تهجم على القرآن العظيم، وقد أراد معارضته فى البلد الحرام حيث نزل به جبريل، وقد قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾(١) ولا إلحاد أعظم من هذا. وقد أشبه الحلاج كفار قريش فى معاندتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾(٢).

قال الذهبى: كان يصحح حاله ابن عطاء، ومحمد بن حفيف، وإبراهيم أبو القاسم النصر آباذى وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء؛ لسوء سيرته ومُروقه، ومنهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة، وإلى الشعبذة والزُّوكرة، وقد تستَّر به طائفة من ذوى الضلال والانحلال، وانتحلوه وروجوا به على الجهال.

وقال له الجنيد يومًا: أى خشبة تفسدها؟ يريد أنه يصلب.

وقال عنه إبراهيم بن شيبان. من أحب أن ينظر إلى ثمرات الدعاوى الفاسدة، فلينظر إلى الحلاج وما صار إليه.

وكان يقول: ما انفصلت البشرية عنه ولا اتصلت به.

لما أحضره الوزير على بن عيسى فلم يجده يحسن القرآن والفقه ولا الحدث، فقال: تعلمك الفرض والطهور أجدى عليك من رسائل لا تدرى ما

---

(١) سورة الحج: ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال: ٣١

تقول فيها، كم تكتب. . .؟ ويلك إلى الناس، تبارك ذو النور الشعشعانى! ما أحوجك إلى أدب! وأمر به فصلب، ووجد فى كتبه: إنى مغرق قوم نوح، ومهلك عادًا وثمود.

وكان يقول للواحد من أصحابه: أنت نوح، ولآخر: أنت موسى ولآخر: أنت محمد.

قال ابن عقيل: قد قتل بإجماع فقهاء عصره، فأصابوا وأخطأ هو وحده.

صفة مقتل الحلاج:

قال الخطيب البغدادى: كان الحلاج قد قدم آخر قدمة إلى بغداد، فصحب الصوفية وانتسب إليهم، وكان الوزير إذ ذاك حامد بن العباس، فبلغه أن الحلاج قد أضل خلقًا من الحشم والحجاب فى دار السلطان، ومن غلمان نصر القشورى الحاجب، وجعل لهم فى جملة ما ادعاه أنه يحيى الموتى، وأن الجن يخدمونه، ويحضرون له ما شاء. وقال: إنه أحيا عدة من الطير، وسلم إلى الوزير حامد بن العباس، فحبسه فى قيود كثيرة فى رجليه، وجمع له الفقهاء، فأجمعوا على كفره وزندقته وأنه ساحر ممخرق.

ولما كان آخر مجلس، أحضر الوزير حامد بن العباس القاضى أبا عمر محمد بن يوسف وجىء بالحلاج، وقد أحضر له كتابًا من دور بعض أصحابه وفيه: ومن أراد الحج ولم يتيسر له، فليبن فى داره بيتًا لا يناله شىء من النجاسة، ولا يمكن أحدًا من دخوله، فإذا كان فى أيام الحج فليصم ثلاثة أيام، وليطف به كما يطاف بالكعبة ثم يفعل فى داره ما يفعله الحجيج بمكة، ثم يستدعى بثلاثين يتيمًا فيطعمهم من طعامه، ويتولى خدمتهم بنفسه، ثم يكسوهم قميصًا قميصًا، ويعطى كل واحد منهم سبعة دراهم، فإن فعل ذلك قام له مقام الحج، وإن من صام ثلاثة أيام لا يُفطر إلا فى اليوم الرابع على ورقات هندبًا أجزأه ذلك عن صيام رمضان.

ومن صلى فى ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك. وأن من جاور بمقابر الشهداء وبمقابر قريش عشرة أيام يصلى ويدعو ويصوم، ثم لا يفطر إلا على شىء من خبز الشعير والملح الجريش، أغناه ذلك عن العبادة فى بقية عمره.

فقال له القاضى أبو عمر: من أين لك هذا؟ فقال: من كتاب الإخلاص للحسن البصرى.

فقال له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شىء من هذا. فأقبل الوزير على القاضى فقال له: قد قلت: يا حلال الدم، فاكتب ذلك فى هذه الورقة، وألح عليه وقدم له الدواة فكتب ذلك فى تلك الورقة، وكتب من حضر خطوطهم فيها، وأنفذها الوزير إلى المقتدر.

فجاء الجواب بأن يسلم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة وليضربه ألف سوط، فإن مات وإلا ضربت عنقه.

وبُعث به إليه وهوراكب على بغل عليه إكاف، وحوله جماعة من السياسة، على مثل شكله فاستقر منزله بدار الشرطة فى هذه الليلة، فذكر أنه بات يصلى تلك الليلة، ويدعو دعاءً كثيراً.

وقالوا: ولما أخرج الحلاج من المنزل الذى بات فيه ليذهب إلى القتل أنشد:

طلبت المستقرَّ بكل أرضٍ ... فلم أرَ لى بأرض مستقراً

وذقت من الزمان وذاق منى ... وجدت مذاقه حلواً ومراً

أطعت مطامعى فاستعبدتنى ... ولو أنى قنعت لعشت حراً

فلما أخرج للصلب مشى إليه يتبختر فى مشيته، وفى رجليه ثلاثة عشر قيدًا وجعل ينشد ويتمايل:

نديمى غـيـر منسـوب	إلى شىء من الحـيـف
مـثل مـا يشـرب	فـعل الضـيف بالضـيف
فـلـمـا دارت الكـأس	دعـا بالـنطع والسـيـف
كـذا من يشـرب الـراح	مع التـنين فـى الصـيـف

ثم قدم فضرب ألف سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه، وهو فى ذلك كله ساكت، ما نطق بكلمة ولم يتغير لونه.

وقال الخطيب: قال لنا أبو عمر بن حيوية: لما أخرج الحسين بن منصور الحلاج ليقتل مضيت فى جملة الناس، ولم أزل أزاحم عليه حتى رأيته، فدنوت منه، فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا الأمر، فإنى عائد إليكم بعد ثلاثين يومًا، ثم قتل فما عاد.

قال الذهبى: هذه حكاية صحيحة توضح لك أن الحلاج ممخرق كذاب حتى عند قتله ثم قطعت يداه ورجلاه، وحُزَّ رأسه، وأحرقت جثته، وألقى رمادها فى دجلة، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر، ثم حمل إلى خراسان، وطيف به فى تلك النواحى.

قال الإمام الفقيه المحدث بقية السلف -كما يقول الذهبى- ابن أيوب:

لاشك أن الحجاج قتل من العلماء خلائق يتعسر حصرهم، وشتت شملهم وأبادهم، وقتل سعيد بن جبير، وأهل الأرض محتاجون إلى علمه، وخلعه العلماء وخرجوا عليه، وقاتلوه، ومع هذا كله لم يقل أحد منهم: إنه كافر، بل قالوا: إنه من عصاة المسلمين، لا تحل إمرته لذلك، والحلاج ما تعرض لأحد من أهل العلم بأذى فى دنياه، وأجمع جميع أهل زمانه منهم على كفره، واستباحة دمه، فلو كان العلماء يقولون بالهوى، لقالوا فى الحجاج الذى ما ترك نوعًا من الأذى حتى رماهم به، فثبت أنهم لا يقولون بالهوى اهـ.

ورد فى الطواسين للحلاج أنه قال:

ألا أبلغ أحبائى بأنى ... ركبت البحر وانكسر السفينه

على دين الصليب يكون موتى ... فلا البطحا أريد ولا المدينه

فصلب.. جزاءً وفاقًا.

من كلمات هذا الزنديق: أنزهك عما قرفك به عبادك، وأبرأ إليك مما وحدك به الموحدون. قال الذهبى: هذا عين الزندقة.

وجدوا كتابًا للحلاج عنوانه من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان فوجه إلى بغداد فأحضر وعرض عليه، فقال: هذا خطى وأنا كتبته. فقالوا: كنت تدعى النبوة صرت تدعى الربوبية؟!. قال: لا ، ولكن هذا عين الجمع عندنا، هل الكاتب إلا الله وأنا؟ فاليد فيه آلة.

ووجد الحلاج فى جامع الدِّينور ومعه جماعة، فسأله واحد منهم فقال: يا شيخ! ما تقول فيما قال فرعون؟ قال: قال كلمة حق. قال: فما تقول فيما قال موسى عليه السلام؟ قال: قال كلمة حق؛ لأنهما كلمتان جرتا فى الأبد، كما أُجريتا فى الأزل.

وقال: ما وحد الله غير الله. وقال: الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، فأما من حيث الحقيقة. فلا فرق بينهما.

عن جندب بن زاذان تلميذ الحلاج قال: كتب الحسين إلىَّ: السلام عليك يا ولدى، ستر الله عنك ظاهر الشريعة، وكشف لك حقيقة الكفر، فإن ظاهر الشريعة كفر، وحقيقة الكفر معرفة جلية وإنى أوصيك ألا تغتر بالله، ولا تيأس منه، ولا ترغب فى محبته، ولا ترض أن تكون غير محب، ولا تقل بإثباته، ولا تمل إلى نفيه، وإياك والتوحيد، والسلام.

[٧٨] ابن الفارض والخاتمة السوء[١]

وهو شيخ الاتحادية وصاحب «التائية» وكم فى التائية، والفصوص،

(١) انظر «الجزاء من جنس العمل» (٣٧٨ : ٣٨١).

والفتوحات لابن عربى، واليد لابن سبعين، وخلع النعلين لابن قسى، وعين اليقين لابن برجان، وشعر نجم الدين بن إسرائيل، والعفيف التلمسانى من كفر صريح.

وحدة الأديان عند ابن الفارض:

مثلما قال ابن عربى:

عقد الخلائق فى الإله عقائدًا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

قال ابن الفارض فى تائيته:

فبى مجلس الأذكار سمع مطالعٍ ولى حانة الخمار عين طليعة
وماعقد الزّنار حكمًا سوى يدىَ وإن حُلّ بالإقرار بى، فهى حلت
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد فما بار بالإنجيل هيكلُ بيعة
وأسفار توراة الكليم لقومهً يناجى بها الأحبار فى كل ليلة
وإن خَرّ للأحجار فى البُدِّ عاكف فلا تعد بالإنكار بالعصبية
فما زاغت الأبصار من كل ملة وما زاغت الأفكار من كل نحلة
وما احتار مَنْ للشمس عن غرة صبا وإشراقها من نور إسفار غُرّتىَ
وإن عبد النار المجوسُ وما انطفت كما جاء فى الأخبار فى ألف حجةِ
فما عبدوا غيرى وإن كان قصدهم سواى وإن لم يعقدوا عقد نيتى
رأوا ضوء نارى مرةً فتوهمو هُ نارًا فضلوا فى الهدى بالأشعة

ويقول أيضًا:

وإياك والإعراض عن كل صورة مموهة أو حالة مستحيلة
فطيف خيال الظل بيدى إليك فىً كرىً اللهو ما عنّه الستائر شُقّت
ترى صورَ الأشياء تُجلى عليك من وراء حجاب اللبس فى كل خلعة
تجمعت الأضداد فيها لحكمةٍ وأشكالها تبدو على كل هيئة

ثم يقول:

وكل الذى شاهدته فعل واحد ... بمفرده، لكن بحجب الأكنَّة
إذا ما أزال الستر لم تر غيره ... ولم يبق بالأشكال إشكالُ ريبة

ويقول شيخ الزنادقة:

لها صلواتى بالمقام أُقيمها ... وأشهد فيها أنها لى صلَّت
كلانا مصلٍّ ساجدٌ إلى ... حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلى سواى ولم تكن ... صلاتى لغيرى فى أدا كلِّ ركعة
وفى الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتى بذاتى إذ تحلت تجلت
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادًى أجابت من دعانى ولبت
وإن نطقت كنت المناجى، كذاك إن ... قصصتُ حديثًا، إنما هى قصت
فقد رفعت تاءُ المخاطب بيننا ... وفى رفعه عن فرقة الفرق رفعتى

ويفترى سلطان الزنادقة أن الذات الإلهية تتجلى فى صور ليلى وبثينة وعزة:

وتظهر للعشاق فى كل مظهر ... من اللبس فى أشكال حسن بديعة
ففى مرة لبنى وأخرى بثينة ... وآونة تدعى بعزَّة عزّت
ولسن سواها لا ولا كُنَّ غيرها ... وما إن لها فى حسنها من شريكة
كذاك بحكم الاتحاد بحسنها ... كما لى بدت فى غيرها وتزيّت
أسام بها كنت المسمَّى حقيقةً ... وكنتُ لى البادى بنفس تخفت
ومـاً زلتُ إياها وإيَّاى لم تزل ... ولا فرق بل ذاتى لذاتيً أحبت

يقول الإمام المقبلى صاحب كتاب: العلم الشامخ، فى إيثار الحق على الآباء والمشايخ. عن ابن الفارض: يكفيك كلام ابن الفارض الذى أذعنوا له طرًّا ما ظاهره الاتحاد، والتزام الكفر، والترفع على الأنبياء، وعلى الجملة فلم يبق ما يمكن دعواه من المقامات الرفيعة، ولا ما تأتى به الخلاعة من البذاءة الشنيعة إلا ادعاه.

يقول ابن الفارض حيث يعلن خلع العذار:

خلعت عِذارى واعتذارى لابس الـ

خلاعة مسرور بخلعى وخلعتى

وخلع عِذارى فيك فرضى وإن أبى اق

ترابىَ قومى والخلاعة سُنَّتى

وليسوا بقومى ما استعابوا تهتكى

فأبدوا قِلىً واستحسنوا فيك جفوتى

وأهلى فى دين الهوى أهله وقد

رضوا لىَ عارى واستطابوا فضيحتى

قال ابن حجر:

ينعق بالاتحاد الصريح فى شعره، وهذه بلية عظيمة، فتدبر نظمه ولا تستعجل، ولكنك حسن الظن بالصوفية، وما ثم إلا زى الصوفية، وإشارات مجملة وتحت الزى والعبارة فلسفة وأفاعٍ، فقد نصحتك والله الموعد.

وقال الذهبى فى تاريخ الإسلام: كان سيد الشعراء فى عصره وشيخ الاتحادية.

وقال الذهبى: إلا أنه شابه بالاتحاد فى ألذ عبارة، وأرق استعارة كفالوذج مسموم، قال:

وهأنا أبدى فى اتحادى مبدئى ... وأنهى انتهائى فى مواضع رفعتى

وفى موقفى لا بل إلى توجهى ... ولكن صلاتى لى ومنى كعبتى

ومنها:

وجُد فى فنون الاتحاد ولا تُحد ... إلى فئةٍ فى غرة العمر أصبت

وكنت سألت شيخنا الإمام سراج الدين البلقينى عن ابن عربى، فبادر بالجواب بأنه كافر، فسألته عن ابن الفارض فقال: لا أحب أن أتكلم فيه.

قلت: فما الفرق بينهما والموضع واحد؟ وأنشدته من التائية، فقطع على بعد إنشاد عدة أبيات بقوله: هذا كفر، هذا كفر.

قال ابن حجر: ورأيت فى كتاب التوحيد للشيخ عبد القادر القوصى، قال: حكى لى الشيخ عبد العزيز بن عبد الغنى المنوفى، قال: كنت بجامع مصر وابن الفارض فى الجامع، وعليه حلقة، فقام شاب من عنده، وجاء إلى عندى، وقال: جرى لى مع هذا الشيخ حكاية عجيبة -يعنى: ابن الفارض- قال: دفع إلىّ دراهم، وقال: اشتر لنا بها شيئًا للأكل، فاشتريت ومشينا إلى الساحل، فنزلنا فى مركب حتى طلع البهنسا، فطرق بابًا فنزل شخص، فقال: بسم الله، وطلع الشيخ، فطلعت معه، وإذا بنسوة بأيديهم الدفوف والشبابات، وهم يغنون له، فرقص الشيخ إلى أن انتهى وفرغ، ونزلنا وسافرنا حتى جئنا إلى مصر، فبقى فى نفسى، فلما كان فى هذه الساعة جاءه الشخص الذى فتح له الباب، فقال له: يا سيدى فلانة ماتت. وذكر واحدة من أولئك الجوارى فقال: اطلبوا الدلال، وقال: اشتر لى جارية تغنى بدلها، ثم أمسك أذنى فقال: لا تنكر على الفقراء.

ابن الفارض الذى يكذب على رسول الله -ﷺ-، ويقول: إنه رآه منامًا وإنه سأل ابن الفارض عن قصيدته التائية، ما سمَّاها؟ فأجابه بأنه سمَّاها: لوائح الجنان وروائح الجنان. فقال له النبى -ﷺ-: «**لا، بل سمها: نظم السلوك**».

من كان بحالة لقى الله بها، والجزاء من جنس العمل، ومن فسدت بدايته فسدت نهايته.

فعند موت ابن الفارض تأوه، وصرخ صرخة عظيمة، وبكى بكاءً شديدًا، وتغير لونه وقال:

إن كان منزلتى فى الحب عندكمُ ... ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى

أمنية ظفرت روحى بها زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

[٧٩] من جمع أموال الناس بغير حق ملئ قبره نارًا[١]

قال ابن القيم -رحـمه الله- فى كتابه «الروح»: «وحـدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بأمد إلى بستان قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطتُ القـبور فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج، والميت فى وسطه فجعلت أمسح عينى وأقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم التـفت إلى سور المدينة وقلت: والله مـا أنا بنائم ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش فـأتونى بطعام فلم أستطع أن آكـل ثم دخلت البلد فإذا به مكاس[٢] قد توفى ذلك اليوم».

[٨٠] ذبحـه اللـه فى المـنام[٣]

ذكر ابن القـيم عن القيروانى أنه ذكـر فى كتاب «البسـتان»: عن بعض السلف، قال: كان لى جار يشتم أبـا بكر وعمر -رضي الله عنهما-، فلما كان ذات يوم أكثر مـن شتمهمـا فتناولته وتناولنى فـانصرفت إلى منزلى وأنا مغمـوم حزين فنمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله -ﷺ- فى المنام فقلت: يا رسول الله فلان يسب أصحابك، قال: «من أصحـابى؟»، قلت: أبو بكر وعمر، فقال: «خذ هذه المدية -أى السكين- فاذبحه بها»، فأخذتها فأضجعته وذبحته ورأيت كأن يدى أصابها من دمه فألقيت المدية وأهويت إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحـو داره فقلت: ما هذا الصراخ؟ قـالوا: فلان مات فجأة!، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح!!.

وقال الذهبى فـى «الكبائر»[٤]: «ومن سب هؤلاء فقـد بارز الله تعالى بالمحـاربة، بل من سب المسـلمين وآذاهم وازدراهم فـقـد قـدمنا أن ذلك من الكبائر، فما الظن بمن سبَّ أفضل الخلق بعد رسول الله -ﷺ-؟!

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» ص (٣٦، ٣٧).
(٢) هو الذى يجبى المكوس وهى نوع من أنواع الضرائب.
(٣) «نهاية الظالمين» (ص ١٥٨ : ١٥٩).
(٤) «الكبائر» بتخريجى ط العلم (ص١٨٣).

[٨١] حية سـوداء فى القبـر(١)

قال القـرطبى -رحمه الله- فى «التذكـرة»: «ولقد أخبرنى صـاحبنا أبو عـبد الله مـحمـد بن أحمـد القصـرى -رحمـه الله- أنه توفى بعض الولاة بقسطنطينية فحفر له، فلمـا فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذا بحية سـوداء داخل القبر الذى يريدون أن يدفنوه فيـه، فلم يزالوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبـراً وإذا بتلك الحية تتعرض لـهم فى القبر الذى يريدون أن يدفنوه فيه فلما أعياهم ذلك سألوه: مـاذا يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها. نسأل الله السلامة والستر فى الدنيا والآخرة».

[٨٢] من عاش على غش مات على غش(٢)

قال الحافظ ابن رجـب الحنبلى -رحمه الله-: «قال عبـد العزيز بن أبى رواد: حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشـهادة: لا إله إلا الله، فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومـات على ذلك. قال فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته».

ومنذ سنوات جرت حادثة فى القصـيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلهـا أن رجلاً فى حال احتضـاره ظهر عليه من الاعتـراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلى معه فى المسجد - والله أعلم بما فى القلوب- وقال: يا عبد الله، هذا المصحـف الذى كنت تقرأ فيه، فاتق الله فى نفسك، ولقنه كلمـة التوحيـد، فقال: هو كافـر بالمصحف وبلا إله إلا الله، وختم له على ذلك الحال، فنعوذ بالله -تعالى- من الخذلان.

قال ابن أبى الدنيا -رحـمه الله-: «حدثنى أبو الحسن بن أحمد الفـقيه قال: نزل الموت برجل كان عندنا فقيل له: استغفر الله، فقال: ما أريد، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: ما أقول لجهد جهده ثم مات.

---

(١) «التحذير من سوء الخاتمة».

(٢) «التحذير من سوء الخاتمة، لعبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى» ص(٣١-٣٣).

وسمعت أن رجلاً كان كثير الصوم والتعبد اشتد به الألم فافتتن، فسمعته يقول: لقد قلبنى فى أنواع البلاء، فلو أعطانى الفردوس ما وفّى بما يجرى علىّ، ثم صار يقول: وأى شيء فى هذا الابتلاء من المعنى إن كان موتًا فيجوز، فأما هذا التعذيب فأى شيء المقصود به.

[٨٣] نهاية بهاء الله مؤسس البهائية(١)

الكذاب الملعون، الذى أعلن على أتباعه بأنه الموعود الذى أخبر عنه الباب، وسماه بمن يظهره الله. وأسست الديانة الجديدة بدعوى أنه هو صاحب الشريعة المستقلة، كما كان الشيرازى صاحبها، وأنه ناسخ لشريعة البيان، كما كان الشيرازى ناسخًا لشريعة الفرقان، فقبله بعض البابيين وسموا بالبهائية، وأخيراً ارتقى على عرش الربوبية والألوهية، يدعى النبوة والرسالة ثم الألوهية.

فتعالوا إلى الكذاب حسين على المازندرانى بهاء الله:

انظر إلى دجال الدجاجلة الذى يقول: لا يرى فى هيكلى إلا هيكل الله، ولا فى جمالى إلا جماله، ولا فى كينونتى إلا كينونته، ولا فى ذاتى إلا ذاته، ولا فى حركتى إلا حركته، ولا فى سكونى إلا سكونه، ولا فى قلمى إلا قلمه العزيز المحمود.

وقال: لم يكن فى نفسى إلا الحق، ولا يرى فى ذاتى إلا الله.

ويقول فى أقدسه - الأنجس: والذى ينطق فى السجن الأعظم إنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء.

وقال الفاجر أيضًا عن نفسه: قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء.

ويقول العباس -الخناس- بن البهاء وخليفته: إن الأيام التى ظهر فيها موسى كانت أيام موسى، والأيام التى ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح،

(١) «الجزاء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٢٨٧ : ٢٩١).

وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها، وأما ذلك اليوم -يوم ظهور المازندرانى الكذاب- كان يوم الله.

ويقول أيضًا: إن الجمال الأقدس الأبهى -حسين المازندرانى- قد استوى ذلك اليوم -يوم دعواه الخبيثة- على عرش الربوبية الكبرى، وتجلى على أهل الأرض والسماء بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول: وإذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطرى، الأقدس المقام المقدس الذى جعله الله مطاف الملأ الأعلى، ومقبل أهل مدائن البقاء، ومصدر الأمر لمن فى الأرضين والسماء.

انظر إلى الدين الذى أتى به دجال الدجاجلة:

الصلاة: من يطالع كتبهم المقدسة -النجسة- لا يجد فيها طريقة أدائها، إلا ما كتبه البهاء فى كتابه: الأقدس الفقرة ١٩: قد فصّلنا الصلاة فى ورقة أخرى، طوبى لمن عمل بما أمر به من لدن مالك الرقاب.

فأين ذهبت هذه الورقة؟ قالوا: إن خصوم البهاء سرقوها منه، وهم لذلك يبكون ويتألمون!!

ويحرم الصلاة جماعة بقوله: كتب عليكم الصلاة فرادى، قد رفع حكم الجماعة إلا فى صلاة الميت إنه لهو الآمر الحكيم.

الصوم: قد كتب لكم الصيام فى شهر العلاء، صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال. وشهر العلاء هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر، ويشمل على الأيام التسعة عشر. وأما فرضية الصوم، فقد عفى عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهرم والكسول.

وعند التكسر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام، وهذا حكم الله من قبل ومن بعد.

الزكاة: قال البهاء: سوف نفصل لكم نصابها إذا شاء الله وأراد، إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهو العلام الحكيم.

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفاصيلها.

بل قالوا: يعمل فى الزكاة كما نزل فى الفرقان -أى القرآن-، والمعروف لمن له أدنى إلمام بالإسلام أن تفاصيل الزكاة ونصابها فى السنة لا فى القرآن.

الحج: الحج للبيت الأعظم فى بغداد، وبيت النقطة فى شيراز. وهو واجب على الرجال دون النساء.

الطهارة: رفع حكم دون الطهارة عن كل الأشياء -قذرة كانت أم نجسة- وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه لهو الغفور الكريم.

فهذه شريعة البهائيين منتنة خبيثة كأحكامها، وقذرة نجسة.

المحرمات عند البهائيين:

لا يحرمون إلا زوجة الأب، وبقية نساء العالم حلال عندهم فى جميع كتبهم، ويحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنتين.

وانظر ما يقول الفاجر: ومن اتخذ بكراً لخدمته لا بأس عليه، كذلك كان الأمر من قلم الوحى بالحق مرقوماً. بل من قلم الشيطان أيها العربيد.

أما الزنا: فإنهم لا يعدون الزنا إلا ما لم يرض به أحد الطرفين، ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لا عقاب عليه، بل يؤخذ منه الأجرة؛ لأنها بالأجرة تنقلب السيئة حسنة، يقول المازندرانى: قد حكم الله لكل زانٍ وزانية دية مسلمة إلى بيت العدل، وهى تسعة مثاقيل من الذهب.

أما الزانى المحصن والزانية المحصنة فلا حكم عليهما إلا أن يحكم عليهما بيت العدل. هذا قول نبى البهائية عباس عبد البهاء.

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابية، وقد كانت متزوجة، والغريب أنها هى التى منحته هذا اللقب: بهاء الله.. فالطاهرة كما كانوا يلقبونها أسمته: بهاء الله. فهى أول المتفوهين بكلمة بهاء الله، وكفاه جزاءً هذا.

وهذا المأفون منع من الارتقاء على المنابر.

الكذاب يظهر الله كذبه ويفضحه:

يقول البهاء فى رسالته إلى الشاه: قد جعل الله البلاد غادية لهذه الدسكرة الخضراء، وزبالة لمصباحه الذى به أشرقت الأرض والسماء.

يقول أسلمنت داعية البهائية: وقد تنبأ بهاء الله وعبد البهاء بأصرح وأوثق عبارة، عن النصر السريع للأمور الروحانية.

ولما سئل عباس عبد البهاء إذا كانت دولة من دول العالم العظيمة تؤمن بالديانة البهائية أجاب: سيؤمن جميع أهل العالم.

وصرح أيضًا: هذا القرن قرن شمس الحقيقة. وهذا القرن قرن تأسيس ملكوت الله على الأرض. بل وصرح أيضًا بأن سنة ١٩٥٧ تتأسس وحدة الإنسانية، وكذب الكذاب وابنه.

انظر عميل الروس الذى ادعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته؟

الجزاء من جنس العمل:

يقول وقد كتب إلى شاه إيران، يقول: ما وجدت فى أيامى مقرًا من على قدر أضع رجلى عليه، كنت فى كل الأحيان فى غمرات البلايا التى ما اطلع عليها أحد. كم من أيام اضطربت فيها أحبتى لضُرى، وكم من ليالٍ ارتفع فيها نحيب البكاء من أهلى؛ خوفًا لنفسى، ولا ينكر ذلك إلا من كانَ عن الصدق محرومًا.

الكذاب الدجال يبكى، وينوح، ويشتكى، ويعلى العويل والصراخ، ويقول: كم من ليال فيها استراحت الوحوش، والطيور فى أوكارها، وكان الغلام -الغلام والرب؟- فى السلاسل والأغلال، ولم يجد لنفسه ناصرًا ولا معينًا.

إله يستصرخ، ورب يحتاج.. ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء: ٧٨.

هذا الكذاب الذى افتـرى على الله، وزعم أن كـتـابه الأكـبـر -الذى يسمونه: الأقـدس- ناسخ لجميع الكتب السماوية: وآية واحـدة منه خير من كتب الأولين والآخرين.

حاول فيها محاكاة القرآن فى فواصل آياته، وكذا بقيـة كتبه: الإيقان، ولوح البقاء.

هذا المجنون الذى اعتنق البابية، ثم ادعى النبوة والرسالة، ثم الألوهية. ماذا كان جزاؤه فى دار الدنيا قبل أن يذهب به إلى الهاوية؟

لقد جُنَّ.

ينقل عن أحد أبناء حسين على المازندرانى البهاء أنه جُنّ فى آخر حياته، وقبل موته بمدة، كما ذكره عمر عنائت نقلاً عن ابنه: إن البهاء جُنّ فِى أواخر أيامه، وكان ابنه -عباس عبد البهاء- يعمل كحاجب له.

جُنّ.. جزاءً وفاقًا.

نهاية غلام أحمد القاديانى دجال الهند(١)

عميل الإنجليـز الكذاب الدجال، انظر إلى عقيـدته، ثم انظر بعد ذلك إلى نهـايته. يقـول المتنبى القـاديانى غلام أحـمد: قـال لى الله: إنى أصلى وأصوم، وأصحو وأنام.

ويقـول الكذاب: قال الله: إنى مع الرسـول أجيب، أخطئ وأصـيب، إنى مع الرسول محيط.

ويقول أيضًـا: أنا رأيت فى الكشف بأنى قدمت أوراقًا كثـيرة إلى الله، ليـوقع عليهـا، ويصدق الطلبـات التى اقتـرحتـها، فـرأيت أن الله وقع على الأوراق بحبر أحمر، وكـان عندى وقت الكشف رجل من مريدى، يقال له:

(١) «الجزاء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٢٩١: ٣٠٧).

عبد الله. ثم نفض الرب القلم، وسقطت منه قطرات الحبر الأحمر على أثوابي وأثواب مريدي عبد الله.

ويقول: نستطيع أن نفرض لتصوير وجود له أيادي وأرجل كثيرة، وأعضاؤه بكثرة لا تعد ولا تحصى، وفي ضخامة لا نهاية لطولها وعرضها، ومثل الأخطبوط له عروق كثيرة، التي هي امتدت إلى أنحاء العالم وأطرافها.

وهؤلاء القاديانية المرتدون يعتقدون أن الله جامع وباشر نبيهم غلام أحمد، وليس هذا فحسب، بل هو النتيجة أيضًا لهذه المباشرة.

فأولاً: الذي باشره الله هو نبيهم غلام أحمد.

ثانيًا: ثم وهو الحامل.

وثالثًا: هو المولود.

قال القاضي يار محمد القادياني: إن المسيح الموعود -أي الغلام- بين مرة حالته فقال: إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن الله أظهر فيه قوته الرجولية.

ويقول المتنبي القادياني بنفسه: قد نفخ في روح عيسى، كما نفخ في مريم، وحُبلتُ بصورة الاستعارة، وبعد أشهر لا تتجاوز عن عشرة أشهر، حُوّلت عن مريم، وجعلت عيسى، وبهذا الطريق صرت ابن مريم.

ويقول: إن الله سماني بمريم التي حبلت بعيسى، وأنا المقصود من قوله في سورة التحريم: ﴿**ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾.

وعلى هذا الأساس تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد هو ابن الله، بل هو عين الله.

يقول المتنبي الكذاب: قال لي الله: أنت من مائنا، وهم من فشل -أي الجبن.

ويقول: خاطبني الله بقوله: اسمع يا ولدي.

وقال: قال لي الرب: أنت مني، وأنا منك، ظهورك ظهوري.

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ونريد أن نشير بأن الإله، الذى ادعى القاديانية بأن الغلام ابن له، كان إنكليزيًّا، كما صرخ غلام أحمد فيقول: أنا ألهمت عدة إلهامات فى الإنكليزية وفى المرة الأخيرة ألهمت: "I Can What I Will do" يعنى أنا أعمل ما شاء، فظننت من اللهجة والتلفظ كأنه إنكليزى قائم على رأسى يتكلم.

ويعتقد غلام أحمد أن النبوة ما ختم برسول الله -ﷺ-، فيقول هذا الدجال: أحلف بالله الذى فى قبضته روحى، هو الذى أرسلنى وسمانى نبيًّا، ونادانى بالمسيح الموعود، وأنزل لصدق دعواى بينات، بلغ عددها ثلاث مائة ألف بينة.

ويقول: هو الإله الحق، الذى أرسل رسوله فى القاديان، وأن الله يحفظ القاديان، ويحرسها من الطاعون، ولو يستمر إلى سبعين سنة؛ لأنها مسكن رسوله، وفى هذا آية للأمم.

الطاعون يقع بالقاديان، والجزاء من جنس القول والعمل:

ومن قدرة القهار الجبار أن وقع الطاعون فى هذه القرية التى أنجسها غلام أحمد؛ وعم القرى المجاورة، بل ودخل إلى بيت غلام أحمد نفسه، فيقول فى رسالة أرسلها إلى صهره: ودخل الطاعون حتى فى بيتنا.

والجزاء من جنس قول الكذاب، ففضحه الله فى حياته.

ويقول القاديانى: أنا وحدى أعطيت كل ما أعطى لجميع الأنبياء.

ويقول بنزول جبريل عليه السلام عليه؛ يقول الغلام: إن جبريل جاء إلىّ واختارنى، وأدار أصبعه، وأشار إلىّ بأن الله يحفظك من الأعداء.

بل وحيه كوحى محمد -ﷺ- وإلهامته كالقرآن؛ يقول الغلام: والله العظيم، أؤمن بوحيى كما أؤمن بالقرآن، وبقية كتب أنزلت من السماء، وأنا

أؤمن بأن الكلام الذى ينزل علىّ ينزل من الله، كما أؤمن بأن القرآن نزل من عنده.

ويقول: إيمانى بالإلهامات التى تنزل علىّ كالإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن.

ومن اعتقادات القاديانية أنه نزل على غلام أحمد الكتاب كما نزل على بعض الرسل، وأن الذى أُنزل عليه أكثر مما أُنزل على كثير من الأنبياء، واسم هذا الكتاب المنزل عليه: الكتاب المبين.

يقول غلام أحمد: نزل علىّ كلام الله بهذه الكثرة، لو يجمع لما يقل عن عشرين جزءًا.

ويعتقدون أن القاديان قرية الكذاب المخبول أفضل من مكة والمدينة، وفيها قطعة من قطعات الجنة.

يقول الغلام القاديانى: قد أنزل الله قوله فى القرآن: ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾[1] وصفًا لمسجدى فى القاديان.

وقال غلام أحمد: إن الذى لا يجىء إلى القاديان أخاف على إيمانه.

ويقول محمود أحمد بن الغلام: قد انقطع ثمرة مكة والمدينة، ولكن ثمرة القاديان ما زالت طازجة.

الحج: الحج عندهم هو حضور المؤتمر السنوى فى القاديان.

يقول ابن الغلام: إن مؤتمرنا السنوى هو الحج، وإن الله اختار المقام لهذا -الحج- القاديان.

وقال الغلام الكذاب: إن البقاء فى القاديان أفضل من الحج النفلى.

وفى قرآن القاديان الكتاب المبين آيات، ومن بعض آياته:

إن الله ينزل فى القاديان.

---

(١) سورة آل عمران: ٩٧ .

يحمدك الله من عرشه ويمشى إليك.

عقيدة الجهاد نجسة عند عميل الإنجليز:

قال المتنبى الدجال: إن هذه الفرقة، الفرقة القاديانية، لا تزال تجتهد ليلاً ونهاراً؛ لقمع العقيدة النجسة، عقيدة الجهاد من قلوب المسلمين.

المتنبى القاديانى واهانته للأنبياء والصحابة:

يفضل نفسه على آدم فيقول: صار آدم ذليلاً مصغراً، ثم خلقنى الله لكى أهزم الشيطان.

ويفضل نفسه على نبى الله نوح:

فيقول: إن الله أنزل لصدق دعواى آيات وبينات بهذه الكثرة، لو أنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه.

ويفضل نفسه على نبى الله يوسف:

فيقول: إن يوسف هذه الأمة يعنى أنا العاجز الحقير أفضل من يوسف بنى إسرائيل؛ لأن الله شهد لبراءتى بنفسه، وبآيات كثيرة، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس.

ويفضل نفسه على عيسى:

فيقول: إن الله أرسل من هذه الأمة المسيح، الذى هو أعظم شأناً من المسيح الأول بمراتب، والله الذى فى قبضته روحى، إن كان عيسى فى زمن الذى أعيش فيه أنا، ما كان يستطيع أن يعمل ما أعمله أنا.

أفضل من كل الأنبياء:

يقول: جاء أنبياء كثيرون، ولكن لم يتقدم أحد علىّ فى معرفة الله، وكل ما أعطى لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدى بأكمله.

ويقذف الأنبياء:

يقول: أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر.

ويقول الكذاب: إن أسـرة عيسى أسـرة عجيـبة، كانت جـداته الثلاث فاجرات، ومن هذا الدم المطهر تكون تجود عيـسى.. ولعله كان ميلان عيسى إلى المومسات لهذه النسبة، وإلا لا يسمح أحد من المتقين، أن يمس رأسه شابة زانية، وتعطره بمالها الحرام فليفهم الناس كيف كان أخلاق هذا المسيح.

والحمد لله أن هذا الخبيث يرد على نفـسه، فيقول: الذى يسب أو يشتم الأخيار المقدسين فليس إلا خبيث، ملعون، لئيم.

تطاوله على الرسول الكريم -ﷺ-:

يقول الدجال: إن النبى -ﷺ- له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتى زادت على مليون معجزة.

يقول ابنه وخليـفته: إن الارتقـاء الذهنى لإمامنا كان أزيد، وأكـثر من النبى الكريم.

ويقول غلام أحمد:

له خسف القمر المنير وإن لى ... غسا القمران المشرقان أتنكـر

ويقول: إن الإسـلام بدأ كالهـلال، ثم قدر له أن يكون فى هـذا القرن كالبدر، وإلى هذا أشار الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾[1].

وقال هذا الدجال: وأما تجليات كمـالات رسول الله ما كانت راقية إلى منتهاها، بل هذه التجليات بلغت إلى ذروتها فى عهدى وفى شخصى.

ويقول: إن المراد فى قول الله -عز وجل-: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2] هو أنا؛ لأن الله سمانى فى هذا الوحى محمدًا ورسولاً.

ويقـول: أنا هو المصداق لقـول الله سبـحانه وتعـالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٣.

(٢) سورة الفتح: ٢٩.

(٣) سورة الصف: ٩.

ويقول: أنا المراد فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

ويقول: وأنا المقصود فى قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2].

ويقول محمود أحمد خليفة القاديانية: لو أن أحدًا يريد أن يتقدم على رسول الله مرتبة وشأنًا يستطيع أن يتقدم.

فأى كفر وخبث ونجاسة أعظم من هذا، وهكذا يجترئ الأوباش على مقام رسول الله -ﷺ-.

وكتب أحد القاديانيين: أنه سمع من أحد مبلغى القاديانية، الذى هو من أهل البيت -يريد أولاد الغلام- أنه يقول: أين أبو بكر وعمر من غلام أحمد؟ إنهما لا يستحقان أن يحملا نعليه.

ويقول الغلام الكذاب: أنا هو المهدى الذى سئل عنه ابن سيرين، هل هو فى مرتبة أبى بكر؟ فقال: أين أبو بكر منه؟ بل هو أفضل من بعض الأنبياء.

ويقول: يوجد فيكم علىّ حىّ فتتركونه، وتبغون عليًّا ميتًا.

ويقول: يقولون عنى بأنى أفضل نفسى على الحسن والحسين، فأنا أقول: نعم، أنا أفضل نفسى عليهما، وسوف يظهر الله هذه الفضيلة.

وقال ابنه: إن أبى قال: مائة حسين فى جيبى. فالناس يفهمون معناه، إنه يساوى مائة حسين، ولكنى أقول أكثر من هذا، وهو: إن تضحية ساعة واحدة لخدمة الدين من أبى، أفضل من تضحيات مائة حسين.

الغلام رجل أفيونى خمّار:

يقول ابنه: كان أبى يقول: إن الأفيون نصف الطب، ولذا استعماله للتداوى يجوز ولا بأس به، وإنه صنع دواء باسم ترياق إلهى بهدى الله وعونه وكان الجزء الأكبر فى هذا الدواء الأفيون، وكان يعطى هذا الدواء لخليفته

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة الإسراء: ٧٩.

الأول نور الدين، كما كان يستعمله هو أيضًا حينًا بعد حين لمختلف الأمراض.

وأرسل الغلام إلى أحد مريديه فى لاهور أن يرسل إليه: وائن، ويشتريه من دكان رجل يقال له: بلومر. وحينما سأل بلومر عن وائن ماذا هو؟ فقال: إن وائن قسم قوى مسكر، من أقسام الخمر الذى يستورد من انجلترا فى القوارير المختومة.

جزاء الكذاب فضحه وإظهار كذبه:

هذا الذى كذب على الله، وكذب على رسوله -ﷺ- أظهر الله كذبه وشهره بهذا:

يقول الكذاب: لا يوجد أى شىء أحسن وأفضل لاختبار صدقى وكذبى من تنبؤاتى. يداك أوكتا وفوك نفخ.

النبوءة الأولى:

تناظر غلام أحمد مع عبد الله آتم المسيحى فى إحدى مدن الهند سنة ١٨٩٣، وبعد نقاش طويل ما وصلا إلى نتيجة، ولم يفز واحد منهما على الآخر، فما أصبح الصباح يوم ٥ يونيو سنة ١٨٩٣ إلا وقد أعلن بأنه أخبر عن الله بأن عبد الله آتم سيموت فى خمسة عشر شهرًا، أى إلى ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٤ فعاش عبد الله آتم المذكور طويلاً، ونكس رأس الملعون، وأذله الله فى هذه الدنيا أمام الملأ.

النبوءة الثانية:

ذهب رجل من أقربائه يُسمى: أحمد بك إليه فى أمر كان يتعلق به، واستدعاه المساعدة، فقال له: أساعدك بشرط أن تزوجنى ابنتك: محمدى بيجوم. فأبى أحمد أن يقبل هذا الشرط، فجن جنون غلام أحمد، وبدأ يهدده ويتوعده وبلغ به الولع بهذه البنت أن قال: إن الابنة الكبيرة لأحمد بك

تزوج لى، مع أن أهلها يخالفون ويمانعون، ولكن الله يزوجها لى، ويرفع كل الحواجز، ولا يستطيع أحد أن يحول دون تحقيق هذا.

ويقول: قد قال الله عز وجل: زوجناكها نحن بأنفسنا، ولا يستطيع أحدٌ أن يبدل كلماتى.

ويقول: إن لم يتحقق هذا النبأ فأكون أخبث الخبثاء، هذا ليس افتراء من إنسان ولا لعبة خبيث مفترى، بل هذا وعد الله الحق، الإله الذى لا تبديل لكلماته، والرب الذى لا مانع لإرادته.

وظل يتذلل أمام أحمد بك، ويسترحمه: أنا أرجو منكم بكل أدب وعجز أن تقبلوا زواج ابنتكم منى.

وحرم غلام أحمد ابنه سلطان من الإرث وطلق أمه، وحرم ابنه فضلاً من إرثه أيضًا؛ لأنهم لم يساعدوه فى الزواج من هذه المرأة.

وفضحه الله على رؤوس الأشهاد، وتزوجت من غيره.

النبوءة الثالثة:

وهى بموت زوج هذه المرأة وزواجها منه، ولكن الكاذب يموت، وتظل هذه المرأة حيَّة مع زوجها حتى ماتت فى نوفمبر سنة ١٩٦٦، ومات هذا الكذاب سنة ١٩٠٨ .

النبوءة الرابعة:

فى سنة ١٨٦٦م وبتاريخ ٢٠ فبراير حينما كانت امرأة غلام أحمد حبلى أعلن أنه ألهم من الله ما نصه: إن الله الرحيم الكريم، الذى هو قادر على كل شىء أخبرنى بأنه يظهر آيته، آية الرحمة، آية بينة، ولد جميل وجيه زكى مظهر الأول والآخر مظهر الحق والعلاء كأن الله نزل من السماء، وهذا الولد يكبر عجلاً ويفك الأسارى ويتبرك به الأقوام.

فولدت امرأة الغلام بعد هذه الإعلانات الطنانة ابنة وليس ابنًا، وسميت عصمت، ثم ماتت بعد خمس سنوات فقط أى سنة ١٨٩١ .

النبوءة الخامسة:

أعلن بتاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٦ : إن الله بشرنى بأنه يكون لى ذرية كثيرة، من النسوة ذوات البركات اللاتى أتزوج بعضهن بعد هذا الإلهام. وكذّبه الله فما تزوج بعد هذا لا النسوة بل ولا امرأة واحدة. والأولاد؟!!

النبوءة السادسة:

ولد له ولد بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٩٩ وسماه: مبارك أحمد. وبعد ولادته بأيام أعلن الدجال: إن هذا الولد نور من نور الله، ومصلح موعود، وصاحب العظمة، ومسيحى النفس، ومشفى الأمراض، وكلمة الله، وسعيد الحظ، وهذا يشتهر فى أنحاء العالم وأطرافها، يفك الأسارى ويتبرك به الأقوام.

فمرض هذا الولد سنة ١٩٠٧ وفى تاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٧ حينما خف مرضه أعلن الدجال: ألهمنى الله بأنه قد قبل الدعاء، وذهب المرض. وما إن أعلن المتنبى القاديانى هذا الافتراء على الله حتى عاد المرض من جديد، وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧ مات هذا المصلح الموعود الذى يفك الأسارى، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.

النبوءة السابعة:

عن الطاعون وأنه لا يقع فى القاديان، فوقع، وقال: إن بيتى كسفينة نوح، من دخله حفظ عن كل الآفات والمصائب. فدخل الطاعون بيته، حتى أصابه هو.

النبوءة الثامنة:

تنبؤه بمولود لأحد مريديه، فولدت زوجة هذا المريد بنتًا، وأخبره أنه لن تموت زوجة هذا المريد إلا أن تضع الابن، فماتت.

النبوءة التاسعة:

تناقش مرة مع المتنبى رجل من المسلمين -دكتور عبد الحكيم- وتحداه بأنه كذاب، وأعلن: أن عبد الحكيم يموت فى حياتى؛ لأنه يهيننى ويذلنى.

ويقـول: ولكن الله بشرنى بأنى أعـمر ثمـانين سنة أو أكثـر، فلم يمت عبدالحكيم فى حـياته بل بقى حيًّا بعده، وعمـر، ومات وهو فى الثامن أو التاسع بعد الستين من عمره.

وكم كذب الدجال، وما تحققت نبوءة له واحدة، عقابًا من الملك القهار لهذا المفترى الكذاب، وألبسه الله رداء قوله فى الدنيا.

والجزاء من جنس القول والعمل.

عاقبته وموته:

وموت الغلام كان فـضيحة له، وجزاءًا وفاقًا، فقـد كان دجال القاديان يجلب اللعنات على نفسه؛ لافتراءاته على الله، والرسول والقرآن، والأنبياء، ونازله العلماء وأفتوا بالإجمـاع بكفره ودجله، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشـيخ الجليل العـلامة: ثناء الله الأمـر تسـرى، مناظر الإسـلام، ومحـامى المسلمين فى الـقارة الـهندية، فـقـد جـرى بينه وبين الغـلام القـاديانى عـدة مناظرات، ومناقشات تحـريرية، وتقريرية، ودومًا كان الانتصـار حليفًا لرجل إلهى، وبطل الإسلام، فـاستشاط من ذلك المـتنبى القاديانى غضبًـا، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م وبتاريخ ١٥ أبريل بالضبط وكتب فيها ما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلى على رسوله الكريم، يسألونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق.

إلى خدمة الأستاذ ثناء الله.

السلام على من اتبع الهدى، من زمان وأنا أكذَّب وأُفسَّق فى مجلتكم: أهل حديث. ودائمًا تسموننى فى مجلتكم هذه ملعونًا كذابًا، ودجالاً مفسدًا، وتشهرنى فى العالم بأنى مفترى كذاب دجـال، وأفترى فى دعواى المسيحية، فأنا تأذيت منك كـثيرًا وصبـرت، ولكنى لـمّا رأيت نفسى بأنى مأمـور لنشر الحق، وأنت تمنع العالم من التوجه إلىّ بسـبب افتراءاتك علىّ، فادعوا إن أنا

كذّاب ومفترى كما تذكرنى فى مجلتك فأهلك فى حياتك، لأنى أعلم أن عمر الكذّاب والمفسد لا يكون طويلاً، بل هو يموت خائبًا فى حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان، وتكون فى موته منفعة لعباد الله حيث لا يضلهم، فإن لم أكن كذابًا ومفتريًا بل أكون متشرفًا بمخاطبة الله والمكالمة معه، وأكون مسيحًا موعودًا، فأدعو أن لا تنجو من عاقبة المكذبين، حسب سنة الله فأعلن: إن لم تمت أنت فى حياتى بعقاب الله، الذى لا يكون إلا من عند الله محضًا، مثل أن تموت بمرض الطاعون أو الكوليرا، فلن أكون مرسلاً من الله تعالى، وهذا لا أقول نبوءة، بل طلبت القضاء الفيصل من الله تبارك وتعالى، وأدعو الله يا مولاى البصير القدير العليم الخبير، يا عالم أسرار القلوب، إن أنا كاذب ومفسد فى نظرك، وأفترى عليك ليلاً ونهارًا يا الله، فأهلكنى فى حياة الأستاذ ثناء الله، وسرّه وجماعته بموتى. آمين.

ويا الله إن أنا صادق، وثناء الله علىّ باطل وكذّاب فى التهم التى يلصقها بى، فأهلكه يا رب العالمين فى حياتى بالأمراض المهلكة، مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض. آمين. يا رب أنا أوذيت وصبرت، ولكنى أرى الآن أنه قد تجاوز الحد، وأنه يظننى أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم، ويحسبنى أرذل خلق الله، وقد شهرنى فى البلدان النائية بأنى فى الحقيقة مفسد، ونهاب، وطماع، وكذاب، ومفترى، وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدّى كنت صبرت عليه، ولكنى أرى أن ثناء الله يريد بهذه التهم أن يفنى دعوتى، ويهدم عمارتى التى بنيتها أنت يا ربى، ويا من أرسلتنى، ولذا ألتجأ إليك يا الله، آخذًا بذيل رحمتك وتقدسك، فاقض بينى وبين ثناء الله بالحق، وأهلك الكذاب والمفسد فى حياة الصالح، أو ابتليه فى آفة تكون مثل الموت فافعل هكذا يا ربى الحبيب. آمين ثم آمين: ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾.

وأخيرًا، أرجو من الأستاذ ثناء الله أن ينشر هذه النشرة فى مجلته، ثم يعلق عليها ما يشاء، فالقضاء الآن بيد الله.

الراقم عبد الله الصمد غلام أحمد المسيح الموعود، عافاه الله وأيده.

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام نشر الغلام القادياني في جريدة قاديانية: إن كل ما قيل عن ثناء الله ليس من عند أنفسنا؛ بل من قبل الله، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذي دعوته ﴿أجيب دعوة الداع﴾ ومعنى هذا الإلهام أن دعوتي قد قبلت[1].

الجزاء جنس القول والعمل:

وفعلاً قبلت دعوته هذه، وقضى بينه وبين ثناء الله بالحق، فبعد ثلاثة عشر شهراً وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء الله وقدره، بصورة بشعة، كان يتمناها للشيخ الجليل ثناء الله، نعم بنفس الصورة وبنفس المرض الذي نصّ عليه هو بالكوليرا، وإليك بيانه:

يكتب ابن الغلام القادياني وزعيم القاديانية بشير أحمد في سيرته:

أخبرتني أمي أن حضرته -أي الغلام- احتاج إلى بيت الخلاء بعد الطعام مباشرة، ثم نام قليلاً، وبعد ذلك احتاج مرة أخرى إلى بيت الخلاء، فذهب مرة أو مرتين إليها بدون أن يشعرني، ثم أيقظني، فرأيت أنه ضعف جداً، وما استطاع الذهاب إلى سريره، فلذا جلس على سريري أنا، فبدأت أمسحه وأمسحه، وبعد قليل أحس الحاجة مرة أخرى ولكن الآن ما استطاع الذهاب إلى بيت الخلاء، فلذا قضاها عند السرير، واضطجع قليلاً بعد القضاء، ولكن الضعف بلغ إلى منتهاه، فجاءته الحاجة مرة أخرى، فقضاها، ثم جاءه القيء، وبعد ما فرغ من القيء خر على ظهره، واصطدم رأسه بخشب السرير، وتغيرت حالته.

وكتب رحيمه -أبو زوجه-: الليلة التي مرضها حضرته -الغلام- كنت نائماً في غرفتي، ولما اشتد مرضه أيقظوني، فذهبت إلى حضرته، ورأيت ما يعانيه من الألم، فخاطبني قائلاً: أصبت بالكوليرا، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة، حتى مات اليوم الثاني بعد العاشرة من الصباح.

(١) جريدة بدر القاديانية بتاريخ ٢٥/ ٤/ ١٩٠٧ .

هذا، وقد نشرت الجرائد الهندية آنذاك: إن غلام أحمد المتنبى القادياني، لما ابتلى بالكوليرا كانت النجاسة تخرج من فمه قبل الموت، ومات وكان جالسًا فى بيت الخلاء لقضاء الحاجة.

كما نشر بيان محمد إسماعيل القاديانى فى جريدة قاديانية: إن المخالفين يقولون: إن النجاسة كانت تخرج من فم حضرة المسيح الموعود وقت الموت.

يا لله . . . النجاسة تخرج من الفم الذى طالما أخرج النجاسات، وافترى على الله وأنبيائه وأوليائه.

والجزاء من جنس القول والعمل.

مات غلام أحمد فى العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨م. فمات وكان ثناء الله حيًا، وبقى حيًّا بعد موته قريبًا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية، ويقمع جذورهم.

وهكذا كذّب الله الكذّاب، حتى آخر لحظة من حياته، وعذّبه فى الدنيا، وعذاب الآخرة أشد وأنكى.

ومات غلام أحمد فى لاهور ثم نُقل نعشه إلى القاديان، وهكذا إلى بعد الموت أثبت أنه كان كذابًا فى دعواه النبوة فكل نبى يدفن حيث قبض، فذهب الكذاب إلى مزبلة التاريخ، وصدق الله ورسوله.

[٨٥] نهاية الرجل الصنم كمال أتاتورك[1]

لا تعجب من قول كثير من المؤرخين: إن أتاتورك كان صربيًّا أو بلغاريًّا.

لم يتحدث عن والده يومًا، وروايات كثيرة لا تقل نسبتها عن تسعين فى المائة من الروايات أنه كان من سفاح.

(١) «الجزاء» (٤٠١ : ٤٠٧).

تناظر مدهش وعادل بين كون مصطفى كمال ثمرة حرام من الناحية الروحية، وبين كونه ثمرة حرام من الناحية المادية، يحمل فى طياته معنى كبيرًا. كيف أن هذه الروح السافلة كانت تستند فى عالم المادة إلى أساس سافل؟ وأن هذه السفالة فى الروح والمادة تأتى فى الحقيقة من كون مصطفى كمال عدوًّا لله وعدوًّا لرسول الله.

مصطفى كمال القائل: لقد انتهى العهد الذى كان الشعب فيه يخدع بكلمات، هى خاصة بالطبقات الدنيا، أمثال: كربلاء... حفيد الرسول... الإيمان... السيف... القدس.

مصطفى أتاتورك الذى ألغى الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٢، وقال عن الذين يقولون: إن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها قال: إنها سفسطة معهودة.

وفى اليوم الأول من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٣ تُعلن الجمهورية وانتخاب مصطفى كمال أتاتورك رئيسًا للجمهورة التركية.

وبعد ٤ أشهر من انتخابه رئيسًا يوفى لأسياده الإنجليز وللحاخام نعوم، منفذ الخطة اليهودية لهدم الخلافة العثمانية، فيعطى قراره:

لقد آن وقت إلغاء الخلافة، وتلغى معها وزارة الشرعية، ووزارة الأوقاف، ولن ندع هناك مدرسة دينية.

يتقرر إخراج الخليفة مع جميع أفراد عائلته من البلاد. وبعد ذلك يجبر الأتراك على ارتداء القبعة، وهى العلامة الثالثة عند النصارى بعد الصليب والزنار، كانت علامة دينية وضعت من قبل المسيحيين أثناء المعارك الصليبية، ثم أصبحت قومية، وقد اعتبرت القبعة كعلامة للكفر بفتوى من الإمام النووى، وتنصب المشانق من أجل المعارضين لارتدائها، ويفرض العلمانية على تركيا، ويقول عنها: إنها تعنى أن نكون آدميين آدميين. ويغير أحرف الكتابة إلى الأحرف اللاتينية.

مـصـطفى أتاتورك الذى باع أذربـيـجـان للروس، عندمـا طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركيـة، وبعد أن دخل البلاشفـة إلى أذربيجان لم يخرجـوا منها ولم يرسلوا جيوشًا إلى تركيا.

مصطفى أتاتورك الذى على مائدة الخمر، وسط الدعارة والفجور، يشير إلى راقصة داعرة نبيلة هانم، فتقرأ أذان الفجر.

عدوه الأكبر رسول الله -ﷺ-.

كـان فى فندق «بارك»، وكان المؤذن يقـرأ الأذان فى المسـجد الصـغيـر الكائن أمـام الفندق مباشـرة، يلتفت أتاتورك لمـن حوله قائلا: من قـال بأننا مشهورون؟ وما شهرتنا نحن؟ انظروا إلى هذا الرجل[1] كيف أنه وضع اسمًا وشهـرة بحيث أن اسـمه يتكرر فى كل لحظة، وفى جـميع أنحـاء العالم إذا أخذنا فرق الساعات بنظر الاعتبار؛ ليهدموا هذه المنارة.

مصطفى أتاتورك الذى أراد أن تكون لغة الصلاة التركية.

مصطفى أتاتورك الذى من على مائدة الخمر يصدر أمـرًا بتحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف.

أما فـحشـه وشذوذه وعـربدته وسكره ومجـونه، فحـدث ولا حرج، وحدث عن ليالى جانقايا ولا حرج.

يقول شاعره:

لا عنكبـوت لا سـحـر...

لتبقى الكعبة لدى العرب...

لأن جـانقـايا تكـفـينا...

يتزوج من لطيفة هانم، وتجده رجلاً سكيرًا، ويشاء الله أن يفضحه على

---

(١) يقصد: النبى -ﷺ-.

لسان زوجته، فهو عديم الرجولة وعنين، بل وشاذ وشذوذه مع وداد بن خالد ضياء معروف، وكان سببًا لطلاق زوجته منه، قائلة له: لقد رأيت كل شيء فيك، وتحملت كل شيء ولكنى لا أستطيع تحمل هذا! بعد ما رأته مع هذا الشاب الأمرد.

هذا الفاجر الذى حاول الاعتداء على المحارم، فقد حاول الاعتداء على شقيقة زوجته الصغرى، ولكن البنت تخلصت من يديه بصعوبة، وهرعت إلى غرفة شقيقتها، ودخل مصطفى كمال إلى الغرفة وفى يده مسدس، واحتضنت زوجته شقيقتها وأصبحت سترًا بينهما، وسحب مصطفى كمال الزناد، ولكن لحسن الحظ فإن خادمه بكر أسرع إليه، وأمسك بيده، فطاشت الرصاصات الثلاث.

كانت حياته شرابًا شرابًا شرابًا للخمر وللعرق، لا يكاد يفيق منه، يقترب من صبى ويسأله، لو وضع أمام حمار دلوان فى أحدهما ماء، وفى الآخر عرق[1] فمن أيهما يشرب؟ فقال له الصبى: من العرق يا سيدى.

وكان يقول: إن هذا العرق يعطى النشوة للإنسان.

الغازى أتاتورك الذى كان يذهب إلى دار المعلمات، ويأخذ جبرًا بنات الأمة البريئات، ليفسق بهن، إنه يخطف البنات مثل قطاع الطرق.

وكان يستعمل وزير خارجيته توفيق رشدى سمسارًا لشهواته.

أما عشيقاته فحدث ولا حرج، صالحة، وفكرية، وآفة هانم عشيقته الدائمة، التى أوصى لها عند موته. زد على ذلك كانت هناك ما بين ٢٠ إلى ٣٠ من النساء والفتيات الشابات، المختارات بشكل خاص، وأطلق عليهن: بناته بالتبنى، ويوصى لهن عند موته بمقادير ثابتة طيلة حياتهن. وكنَّ يقمن بالرقص فى حفلاته، وهن شبه عاريات.

بل فى قصره كانوا يلبسون الجرسونات الرجال ملابس النساء ويرقصونهم.. رائحة الغلمنة والشذوذ أمام أنظار النساء.

---

(١) أى: الخمر.

وفى مرض موته، فى قصره ابتلاه الله بحشرات صغيرة حمراء لا ترى بالعين، حتى اضطرته إلى الجك والحك الشديد أمام زواره، حتى ظهرت على وجهه، وأمر بتعقيم البيت بأقوى الأدوية وأكثرها فاعلية.

ويكتب مستشار وزارة الصحة ما يلى: نعم صحيح أنه وجد نمل فى بعض أرجاء القصر، حتى إن المختصين أثبتوا أنه نوع من النمل المهاجر من الصين إلى أوروبا، ولم يكن يخطر ببال أحد احتمال أن هناك وراء الحكة سببًا آخر؛ لذلك فقد روجعت هيئة الأركان العامة، حيث أحيل الأمر إلى متخصصين من القوة البحرية، ويحضر طاقم من مدمرة ياووز؛ لتصيد النمل الذى فى القصر، مدمرة ياووز الموجودة فى ميناء أزميت يا للجنون!! فلم لم يطلبوه من حامية أنقرة، جنود ومدمرة لسحق النمل!!

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾(١).

وانظر إلى حكمة الله؛ فإنه بالرغم من كونه محاطًا بالأطباء والأخصائيين وأساتذة الطب، لم يكتشفوا أنه كان مريضًا بالكبد، وذاق مر العذاب من سنة ١٩٣٦ حتى اكتشفوا المرض سنة ١٩٣٨ الذى يعرفه أقل الأطباء معرفة بالطب. وابتلاه الله بتليف الكبد الذى أدى إلى الاستسقاء، واحتاج إلى سحب الماء من بطنه بالإبر، وكان يصيح بمن حوله والأطباء: اسحبوا المياه حالاً... اسحبوها كلها... لا تدعوا شيئًا منها.

وفى يوم الخميس العاشر من أكتوبر يرحل إلى مزبلة التاريخ.. يرحل عن هذا العالم ويدور جدال حول الصلاة عليه، وكان من رأى رئيس الوزراء ألا يصلى عليه، وحدث خلاف مع قائد الجيش الأول، وأخيراً وبعد جدل وافقوا أن يُصلَّى عليه، ولكن من الذى أَمّ الناس؟

إذا كان الغراب دليل قومٍ   فلا فلحوا ولا فلح الغرابُ

إنه مدير الأوقاف شرف الدين أفندى الذى أصبح رئيسًا للشئون الدينية فى عهد أينونو؛ حاول إقناع أينونو بالقيام بكفر لم يستطع أتاتورك نفسه القيام

(١) سورة المدثر: ٣١.

به، وهو جعل الترجمة التركية للقرآن الكريم لغة للعبادة، وفرض قراءتها فى الجوامع، بقوة القانون. . . ويالله أتاتورك يصلى عليه شرف الدين هذا، وافق الشن الطبق.

وعرضوا جثمانه لزيارة الناس ثلاثة أيام بلياليها.

ومات نتيجة الازدحام الشديد أربعة عشر شخصًا، وفقدت بعض البنات بكارتهن بأصابع عديمى الحياء، مارسوا هذا أمام تابوته الرصاصى كعادة الصليبيين.

أتاتورك الجبان:

من خاف الله أخاف منه كل شىء، ومن لم يَخَفَ الله أخافه الله من كل شىء، كان فى مدرسة الزراعة على إحدى القمم، وكانت الرياح شديدة، وكانت تثير الغبار؛ ولأجلها تحرك الأبواب، فتحدث أصواتًا، ويهب الغازى مذعوراً من مكانه مذعوراً قلقًا، قائلاً: أليس هذا صوت رشاشة؟ ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط، بل عدة مرات، فيقولون له: إنه صوت الباب المندفع بسبب الريح، ولكنه لا يصدق، فيقوم ويتطلع من النافذة، ثم يرسل من يحقق السبب، وأخيرًا حاول فى أحد الأيام الهروب من هذا المكان بعد أن جمع جميع ملابسه، ولكن جلال عارف وآخرين وقفوا أمامه ومنعوه. هذا علمًا بأن حرَّاسًا له كانوا موجودين على الدوام فى خيمة فى الحديقة الخلفية للمدرسة.

وقصة أخرى يحكيها المارشال فوزى جاقماق: فى أحد الأيام، وبينما كانوا جلوسًا فى مجلس الأمة الأعلى ظهرت عبر النافذة الخلفية للبناء سحابة كبيرة من الغبار، وكأنها صادرة من عشرات الألوف من الأقدام المسرعة فى ناحية السَّهْل، وعندما رأى أتاتورك هذا المنظر تهيأ للهرب قائلاً: هذه جيوش الخليفة آتية. ثم ظهر بأنه لم يكن هناك سوى قطيع كبير من الغنم. فأرسل رجلٌ خلف الغازى؛ لتأمين رجوعه.

إيه يا أتاتورك، يا مسخرة التاريخ.. نملٌ وغنمٌ فلم التطاول؟

والجزاء من جنس العمل:

أتاتورك الذى ألغى أعياد الفطر والأضحى، وجعل يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية بدلاً من الجمعة، ومنع الحج، بل وأغرب من هذا أن هذا الذى رمرم من فتات الغرب قوتًا، له واقعة مثيرة، تنقلها جريدة الأهرم التى قامت بنقلها من جريدة: صنداى تايمز فى يوم الخميس ١٥ فبراير سنة ١٩٦٨، تحت عنوان: كمال أتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه فى رئاسة الجمهورية التركية. هل بعد هذا تبعية وولاءٌ لبريطانيا التى أسقطت دولة الخلافة على يد عميلها أتاتورك.

وأخيراً «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم».

وأى ظهور للفاحشة أكثر من الرقص، والعهر، والاغتصاب، والعشيقات، والبنات بالتبنى لممارسة الرذيلة.. ورقص النساء عاريات، وسط موائد الخمر.

أراد أتاتورك أن يمتع نفسه بالشهوة الحرام، فابتلاه الله بالأوجاع والأسقام.

والجزاء من جنس العمل.

وحرمه الله من الرجولة ونعمة الأولاد، لأنه كان عقيمًا بسبب إصابته بالزهرى، وبسببه أصيبت زوجته بالسيلان المزمن.

ولم تتورع امرأته عن إذاعة سر عقمه.

والجزاء من جنس العمل.

هذه صفحة سوداء لقزم دجال ألغى الخلافة، هذا الماسونى الذى جعله علمانيو العرب مثلهم الأعلى.

[٨٦] العبــرة بالخواتيــم(١)

هذه قصــة مؤلمة ذكــرها الشيخ أحــمد القطان فى مــحاضــرة له: يقول الراوى الذى نقل عنه الشيخ: «صحبنا على ظهر سفينة نجول بها حول البلدان طلبًا للرزق شاب صالح، نقى السريرة، طيب الخلق، كنا نرى التقى يلوح فى قسـمات وجهه، والـنور والبشر يرتسـمان على محيـاه، لا تراه إلا متوضـئًا مصليًا، أو ناصحًا مـرشدًا، إن حانت الصلاة أذن لنا وصلى بنا، فإن تخلف أحد عنها عاتبه وأرشده، وكان معنا على هذه السجية طيلة أسفارنا.

وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند فنزلنا إليها وكان مما تعود عليه البحارة أن يستقروا أيامًا يرتاحون فيــها، ويستجمون بعد عناء السفر الطويل، يتجولون فى أسواق المدينة ليشتروا أغـرب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم ثم يرجعون إلى السـفينة فى الليل، وكان منهم نفر ممن وقع فى الضــلال، يتيمم أماكن اللهــو والهوى ومحال الفجـور والبغاء، وكان ذلك الشــاب الصالح لا ينزل من السفينة أبدًا، بل يقضى هذه الأيام يصلح فى السـفينة ما احتاج منها إلى إصلاح، فيفتل الحبال ويلفها، ويقدم الأخشاب ويشدها، ويشتغل بالذكر والقراءة والصلاة وقته ذاك.

قال الـراوى وعينه ترقـرق بالدموع وتنحـدر على لحيـته: وفـى إحدى السفرات وبينما كــان الشاب منشغلاً بأعماله تلك إذا بصــاحب له فى السفينة ممن أتبع نفسه هواها وانشغل بطالح الأمور عن صالحها، وبسافل الأخلاق عن عاليها يهامسه ويقول: صاحبى، لم أنت جالس فى السفينة لا تفارقها؟ لم لا تنزل حتى ترى دنيــا غير دنياك؟ ترى ما يشـرح الخاطر ويؤنس النفس، أنا لم أقل لك تعال إلى أمــاكن البغاء وسخط الله، ولا إلى البــارات وغضب الله، هيهات يا صاحــبى، لكن تعال فانظر إلى ملاعب الثعابين كـيف يتلاعب بها ولا يخافها، وإلـى راكب الفيل كيف يجعل من خرطومه له سلمًــا ثم يصعد

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» ص (٣٨-٥٤).

برجليه ويديه حتى يقيمه على رجل واحدة، وآه لو رأيت من يمشى على المسامير أنى له الصبر، ومن يلقم الجمر كأنما هو تمر، ومن يشرب ماء البحر فيسبغه كما يسبغ الماء الفرات، يا أخى انزل وانظر الناس. فتحركت نفس الشاب شوقًا لما سمع، فقال: وهل فى هذه الدنيا ما تقول؟ قال صاحب السوء: نعم، وفى هذه الجزيرة. فانزل ترى ما يسرك، ونزل الشاب الصالح مع صاحبه، وتجولا فى أسواق المدينة وشوارعها حتى دخل به إلى طرق صغيرة ضيقة فانتهى بهما الطريق إلى بيت صغير فدخل الرجل البيت وطلب من الشاب أن ينتظره وقال: سآتيك بعد قليل ولكن، إياك إياك أن تقترب من الدار. جلس الشاب بعيدًا عن الباب يقطع الوقت قراءة وذكرًا. وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية، ليفتح الباب وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء والمروءة.

أواه!! إنه الباب نفسه الذى دخل فيه الرجل. وتحركت نفس الشاب فدنا من الباب وأخذ يستمع لما يدور فى البيت وإذا به يسمع صيحة أخرى فنظر من شق الباب ويتبع النظرة أختها لتتواصل النظرات منه وتتوالى وهو يرى شيئًا لم يألفه ولم يره من قبل، ثم رجع إلى مكانه ولما خرج صاحبه بادره الشاب مستنكرًا: ما هذا؟ ويحك هذا أمر يغضب الله ولا يرضيه، فقال الرجل: اسكت يا أعمى يا مغفل، هذا أمر لا يعنيك.

قال الراوى: ورجعا إلى السفينة فى ساعة متأخرة من الليل، وبقى الشاب ساهرًا ليلته تلك مشتغل الفكر فيما رآه، قد استحكم سهم الشيطان من قلبه، وامتلكت النظرة زمام فؤاده، فما أن بزغ الفجر وأصبح الصباح حتى كان أول نازل من السفينة وما فى باله إلا أن ينظر فقط، ولا شيء غير أن ينظر، وذهب إلى ذلك المكان، فما إن نظر نظرته الأولى وأتبعها الثانية، حتى فتح الباب وقضى اليوم كله هناك واليوم الذى بعده كذلك فافتقده ربان السفينة وسأل عنه. أين المؤذن؟ أين إمامنا فى الصلاة؟ أين ذلك الشاب

الصالح؟ فلم يجبه من البحارة أحد، فأمرهم أن يتفرقوا للبحث عنه فوصل إلى علم الربان من ذهب به إلى ذلك المكان فأحضره وزجره وقال له: ألا تتقى الله ألا تخشى عقابه، عجل اذهب فأحضره، فذهب إليه مرة بعد مرة لكن دون جدوى فلم يستطع إحضاره لأنه كان يرفض ويأبى الرجوع معهم، فلم يكن من قائد السفينة إلا أن أمر عدة من الرجال أن يحضروه قسراً، فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة.

قال الراوى: وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد ومضى البحارة إلى أعمالهم وأخذ ذلك الشاب فى زاوية من السفينة يبكى ويئن حتى لتكاد نياط قلبه أن تنقطع من شدة البكاء، ويقدمون له الطعام ولا يأكل، وبقى على حاله البائسة هذه بضعة أيام، وفى ليلة من الليالى ازداد بكاؤه ونحيبه ولم يستطع أحد من أهل السفينة أن ينام فجاءه ربان السفينة وقال له: يا هذا اتق الله ماذا أصابك لقد أقلقنا أنينك فما نستطيع أن ننام. ويحك ما الذى بدل حالك؟ ويلك ما الذى دهاك؟ فرد عليه الشاب وهو يتحسر: دعنى فإنك لا تدرى ما الذى أصابنى؟.

فقال الربان: وما الذى أصابك؟ عند ذلك كشف الشاب عن عورته وإذا الدود يتساقط من سوأته، فانزعج ربان السفينة وارتعش لما رأى وقال: أعوذ بالله من هذا، وقام عنه الربان وقبيل الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم وذهبوا إلى مصدرها فوجدوا ذلك الشاب قد مات وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه، استرجع القوم وسألوا الله حسن الختام، وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لمن يعتبر.

فائدة: وهذه القصة تدلنا على الصدق فى الطاعات، فإن هذا الشاب لو كان من الصادقين فى طاعته لثبته الله ولابد كما قال تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.

[٨٧] غرفة الأحزان[١]

كان لى صديق أحبه لفضله وأدبه، فكان يروقنى منظره ويؤنسنى محضره.

قضيت فى صحبته عهدًا طويلاً ما أنكر من أمره ولا نكر من أمرى شيئًا حتى سافرت من القاهرة سفرًا طويلاً فتراسلنا حينًا، ثم انقطعت عنى كتبه فرابنى من أمره ما رابنى، ثم رجعت فجعلت أكبر همى أن أراه فطلبته فى جميع المواطن التى كنت ألقاه فيها فلم أجده، فذهبت إلى منزله، فحدثنى جيرانه أنه هجره من عهد بعيد، وأنهم لا يعرفون أين مصيره، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه، فأيقنت أن قد فقدت الرجل، وأنى لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً.

هنالك ذرفت من الوجد دموعًا لا يذرفها إلا من قل نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربعه من الأوفياء، وأصبح غرضًا من أغراض الأيام، لا تخطئه سهامها، ولا تغبه آلامها[٢].

بينا أنا عائد إلى منزلى فى ليلة من ليالى السرار[٣] إذ دفعنى الجهل بالطريق فى هذا الظلام المدلهم إلى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه فى مثل تلك الساعة التى مررت فيها أنه مسكن الجان، أو مأوى الغيلان، فشعرت كأنى أخوض بحرًا أسود، يزخر بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بى وتدبر وترتفع وتنخفض، فما توسطت لجته حتى سمعت فى منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد فى جوف الليل، ثم تلتها أختها ثم أخواتها، فأثر فى نفسى مسمعها تأثيرًا شديدًا وقلت: يا للعجب، كم يكتم هذا الليل فى صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين، وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزونًا حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن

---

(١) «قصص وعبر» لعبد الله بن يوسف العجلان ص (١٥-٢١) عن «النظرات» (١/ ١٤٧).

(٢) أغبه الألم: جاءه حينًا بعد حين.

(٣) الليالى السرار: الليالى الأخيرة من الشهر.

استطعت، أو الباكى إن عجزت. فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته، فطرقت الباب طرقًا خفيفًا فلم يفتح، فطرقته أخرى طرقًا شديدًا ففتحت لى فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذى كان فى يدها، فإذا هى فى ثيابها الممزقة، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت: أدرك أبى أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت، ثم مشت أمامى فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم، فدخلتها فخيل إلىّ أنى قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفة قبر، والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء فى البرج الخشبى. فوضعت يدى على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر فى وجهى، ثم فتح شفتيه قليلاً قليلاً. وقال بصوت خافت: «أحمد الله فقد وجدت صديقى» فشعرت أن قلبى يتمشى فى صدرى جزعًا وهلعًا، وعلمت أنى قد عثرت بضالتى التى كنت أنشدها وكنت أتمنى ألا أعثر بها وهى فى طريق الفناء، وعلى باب القضاء، وألا يجدد لى مرآها حزنًا كان فى قلبى كمينًا، وبين أضالعى دفينًا، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التى صار إليها؟ وكأن أنسه بى أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور فأشار إلىّ أنه يحب النهوض فمددت يدى إليه، فاعتمد عليها حتى استوى جالسًا وأنشأ يقص علىّ القصة الآتية:

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتى بيتًا يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسنًا وبهاءً، ورونقًا وجمالاً، فألمّ بنفسى من الوجد بها ما لم أستطع معه صبرًا، فما زلت بها أعالجها فتمتنع، وأستنزلها فتتعذر، وأتأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه، حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها، فسكن جماحها، وأسلس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها فى يوم واحد، وما هى إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنينًا يضطرب فى أحشائها، فأسقط فى يدى، وطفقت أرتئى بين أن أفى لها بوعدها أو أقطع

حبل ودها، فآثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل الذى كانت تزورنى فيه، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئًا.

مرت على ذلك الحادثة أعوام طوال وفى ذات يوم جاءنى منها مع البريد هذا الكتاب، ومد يده تحت وسادته وأخرج كتابًا باليًا مصفرًا، فقرأت فيه ما يأتى:

لو كان بى أن أكتب إليك لأجدد عهدًا دارسًا، أو ودًّا قديمًا، ما كتبت سطرًا، ولا خططت حرفًا، لأنى لا أعتقد أن عهدًا مثل عهدك الغادر، وودًّا مثل ودك الكاذب، يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده.

إنك عرفت حين تركتنى أن بين جنبىَّ نارًا تضطرم، وجنينًا يضطرب، تلك للأسف على الماضى، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تبال بذلك منى حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف؟ لا... بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة فى نفوس العجماوات أو أوابد الوحش إلا جمعتها فى نفسك وظهرت بها جميعها فى مظهر واحد.

كذبت علىّ فى دعواك أنك تحبنى، وما كنت تحب إلا نفسك، وكل ما فى الأمر أنك رأيتنى السبيل إلى إرضائها، فمررت بى فى طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقت لى بابًا، ولا رأيت لى وجهًا.

خنتنى إذ عاهدتنى على الزواج فأخلفت وعدك ذهابًا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صنعة يدك وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة، فقد دافعتك جهدى حتى عييت بأمرك، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير، بين يدى الجبار الكبير، سرقت عفتى، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب، أستثقل الحياة وأستبطئ الأجل، وأى لذة فى العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل، ولا أُمًّا

لولد، بل لا تستطيع أن تعيش فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهى خافضة رأسها، مسبلة جفنها، واضعة خدها على كفها. ترتعد أوصالها وتذوب أحشاؤها، خوفًا من عبث العابثين وتهكم المتهكمين.

سلبتنى راحتى لأنى أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذى كنت متمتعة فيه بعشرة أبى وأمى، تاركة ورائى تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد إلى منزل حقير فى حى مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه، لأقضى فيه الصبابة الباقية لى من أيام حياتى.

قتلت أمى وأبى، فقد علمت أنهما ماتا، وما أحسب موتهما إلا حزنًا لفقدى، ويأسًا من لقائى.

قتلتنى لأن ذلك العيش المر الذى شربته من كأسك، والهمَّ الطويل الذى عالجته بسببك قد بلغا مبلغهما من جسمى ونفسى، فأصبحت فى فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفسًا فى نَفَس، وأحسب أن الله قد صغى لى، واستجاب دعائى، وأراد أن ينقلنى من دار الموت والشقاء إلى دار الحياة والهناء فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لى بحقى منك.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهدًا، أو أخطب إليك ودًا، فأنت أهون علىّ من ذلك إننى قد أصبحت على باب القبر وفى موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها، سعادتها وشقائها، فلا أمل لى فى ود، ولا متسع لعهد، وإنما كتبت إليك لأن لك عندى وديعة وهى فتاتك، فإن كان الذى ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها.

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تنحدر على خديه فسألته: وماذا تم بعد ذلك؟ قال: إنى ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى فى جميع أعضائى، وخيل إلىّ أن صدرى يحاول أن ينشق عن قلبى حزنًا وجزعًا. فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذى ترانى

فيه الآن، فرأيتـها فى هذه الغرفة على هذا السرير جثـة هامدة لا حراك بها، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكى بكاءً مرًّا فصعقت لهول ما رأيت، وتمثلت لى جرائمى فى غشيتى كأنما هى وحوش ضارية، وأساود ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذاك يحدد أنيابه، فما أفـقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التى سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشها وأموت موتها.

وها أنذا أموت اليوم راضيًا مسرورًا.

وما وصل من حديثـه إلى هذا الحد، حتى انعقـد لسانه واكفهـر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقـول: ابنتى يا صديقى، فلبثت بجانبه ساعة قـضيت فيها ما يـجب على الصديق لصديقه، ثم كتـبت إلى أصدقائه ومعـارفه فحـضروا تشـييع جنازته، ومـارئى مثل يومه يوم كـان أكثر باكـيةً وباكيًا.

ولما حثونا الترب فوق ضريحه جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

يعلم الله أنى أكتب قـصته، ولا أملك نفـسى من البكاء والنشيج، ولا أنسى ما حببت نداءه وهو يودع نسمات الحياة، وقوله: «ابنتى يا صديقى».

فيا أقوياء الـقلوب من الرجال، رفقًا بضعفـاء النفوس من النساء. إنكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن، وعـفتهن، أى قلب تفجعون، وأى دم تسفكون.

[٨٨] مـات كمـا يمـوت الحمـار[1]

فى الخمسينات الميلادية، وفى إحـدى الكليات بدولة عربية، وقف أحد الطلبة، ممسكًا بسـاعته مـحدقًا نظره فـيها، وهو يصرخ قـائلاً: «إن كان الله موجـودًا فليمتنى إذًا بعـد ساعة»، وكان مـشهدًا عـجيبًـا شهده جمـهرة من

(١) هذه القصـة حدثت فى جامـعة عين شمس -كليـة الزراعة- وهى مشـهورة كتـبت منها الصحف (المجلة العربية عدد صفر ١٤١٣) نقلاً عن «نهاية الظالمين» (ص ١٥٩ : ١٦٠).

الطلاب والأساتذة، ومرت الدقائق عجلى، وحين أتمت الساعةُ دقائقها انتفض الطالب بزهو تحد، وهو يقول لزملائه: أرأيتم لو كان الله موجودًا لأماتنى، وانصرف الطلاب، وفيهم من وسوس له الشيطان، وفيهم من قال: إن الله أمهله لحكمة، وفيهم من هزَّ رأسه وسخر منه! أما الشاب المذكور، فذهب إلى أهله مسرورًا، خرج يتمطى، وكأنه أثبت بدليل عقلى لم يسبقه إليه أحد أن الله -سبحانه- غير موجود، وأن الإنسان خلق هملاً، لا يعرف له ربًّا وليس له معاد أو حساب!

ودخل منزله فإذا والدته قد أعدت مائدة الغذاء وإذا والده قد أخذ مكانه على المائدة ينتظره، فهرع الولد مسرعًا إلى المغسلة، ووقف أمامها يغسل وجهه ويديه، ثم ينشفهما بالمنديل، وبينما هو كذلك، إذ به يسقط على الأرض جثة لا حراك بها!!

نعم لقد سقط ميتًا، وأثبت الطبيب فى تقريره، أن موتته كانت بسبب الماء الذى دخل فى أذنه! وفى ذلك قال الدكتور عبد الرزاق نوفل -رحمه الله-:

«أبى الله إلا أن يموت كما يموت الحمار»!

والمعروف علميًّا أن الحمار والحصان إذا دخل الماء فى أُذُن أحدهما، مات من ساعته!!

[٨٩] يقتل أمه فيموت بنفس القتلة(١)

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(٢).

روى الشيخ/ عبد الحميد كشك -رحمه الله- قصةً فى إحدى خطبه موجزها:

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٨٠).

(٢) سورة التغابن: ١٤ .

أن رجلاً من الأثرياء لما مات أبوه، ضم أمَّه إليه، فكانت عنده ينفق عليها ويرعاها.. تزوج هذا الابن بزوجة لا تحب إلا نفسها.. ولا تبقى إلا مصلحتها! فكانت تضيق ذرعًا بأمِّ زوجها، تسيء عشرتها وتؤذيها بلسانها وأفعالها، وشاءت إرادة الله تعالى أن تصاب الأم بحالة «جنون» فضاقت الأرض على الزوجة ولم تُطق صبرًا على وجودها فقالت لزوجها:

أنت مُخيِّر بين أمرين: إما أن تختار أمك، وإما أن تختارني وحاول الزوج إقناع الزوجة بالصبر والرضا.. ولكن دون جدوى وفكر الزوجُ وقدَّر... الزوجة أم الأم؟.. وأخيرًا هوى بعد أن اتبع الهوى. سوَّلت له نفسه الخبيثة، وهداه شيطانه، وفكر فى التخلص من أمَّه!!

وفى ليلة مظلمة شاتية أخذ والدته وألقى بها من على سطح البيت، فهوت الأم على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة لتلحق بربها تشكو إليه ظلم العباد!!! وكالعادة أقام الابن لها سرادقًا كبيرًا لتلقى العزاء، ولم يدر أن عدالة الله له بالمرصاد.

مرت الأيام وظن أنه فى مأمن من الله وبأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين.

أصيب الابن العاق «بالجنون!!» نفس مرض الأم -سبحان الله- وضاقت زوجته به كما ضاقت بأمِّه من قبل.. وفى ليلة شاتية مظلمة!! صعد الابن على سطح البيت وألقى بنفسه من نفس المكان!! فسقط على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة ليلقى ربه بما كسبت يداه، والجزاء من جنس العمل.

[٩٠] الكأس الأولى[1]

كان لى صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه فى حالى بعده وقربه، وغضبه وحلمه، وسخطه ورضاه، ففرق الدهر

---

(١) «قصص وعبر» لعبد الله بن يوسف العجلان (ص ٨ - ١٢)

بينى وبينه فراق حياة لا فـراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حيًّا أكثر مما كنت أبكيه لو كان مـيتًـا، بل أنا لا أبكى إلا حيـاته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سـمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة فى طبائع النفوس.

علقت حبالى بحـباله حقبة من الزمـان عرفته فيـها وعرفنى، ثم سلك سبيلاً غير سبـيله، فأنكرته وأنكرنى حتى ما أمر بباله، لأن الكأس التى علق بها لم تدع فى قلبه فراغًـا يسمع غيرها وغير العالـقين بها، وربما كان يدفعنى فى مخيلته دفـعًا إذا تراءيت فيها لأنه إذا ذكرنى ذكـر معى تلك الكلمات المرة التى كنت ألقاه بها فى فـاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهـو يهيم فى فضاء سعادته التى يتخيلها أن يكدر على نفـسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال. ثم لم أعد أعلم من أمـره بعد ذلك شيـئًا؛ لأن حياة المدمنين حـياة متشـابهة متمـاثلة، لا فرق بين صبحـها ومسائهـا وأمسها وغـدها، ذهاب إلى الحانات فشراب، فخمار فنوم فذهاب، كالحلقة المفرغة. لا يدرى أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشـغل الذهن، حـتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها، وكان أحرى أن يوقظه دورانها.

لذلك لم يشغل هذا المسكين محـلاً من قلبى إلا بعد أن سكنت دورته. وهدأت حركتـه، فلم أعد أراه معربدًا فى الحـانات، ولا مطروحًا فى مدارج الطرق، ولا معتقلاً فى أيدى الشرط فقيل لى: إنه مريض، فلم أعجب لشىء كنت أعد له الأيام والأعـوام، كما يعـد الفلكى الساعات والدقـائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب.

دخلت إليه أعوده فلم أجد عنده طبيبًـا ولا عائدًا؛ لأنه فقير، والأطباء يظهرون الرحمـة بالفقراء، ويبطنون حب الصفراء والبـيضاء[1]، والأصدقاء يخـافون عـدوى المرض وعدوى الفـقـر، فلا يعـودون المريض ولا يـزورون الفقير.

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه، لأنى لم أجد فيه ذلك الروح

---

(١) الذهب والفضة.

العالى الذى كـان يرفرف بأجنحتـه فى غرفه وقاعـاته، ولم أردُ خَان المطبخ، ولم أسمع ضـوضاء الخدم، ولا بكاء الأطفـال، ولا رنين الأجراس، فكأننى دخلت القبر أزور الميت، لا المنزل أعود الحى.

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته[1] البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب[2] لاصق بعظم ناحل، فقلت: أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء، قد كان لى فى إهابك هذا صديق مـحبوب فهل لك أن تدلنى عليه، فبعد لأى ما[3] حرك شفتيـه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، مم تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتسـاقط لها أضلاعه وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أى كأس تريد؟ قال: أريد الكأس التى أودعتهـا مالى وعقلى وصحتى وشرفى، وهاأنذا اليوم أودعـها حياتى، قلت: قد كنـت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذى صرت إليه فما أجديت عليك شيئًا، قال: ما كنت تعلم حين نصحتنى من غوائل هذا العـيش النكد أكثر مما أعلم، ولكننى كنت شربت الكأس الأولى، أما هى فلم يجنها علىَّ غير ضعفى وقصور عقلى عن إدراك خداع الأصدقاء والخلطاء.

لم تكن شهـوة الشراب مركبـة فى الإنسان كبقـية الشهوات فيـعذر فى الانقيـاد إليها كمـا يعذر فى الانقياد إلى غـيرها من الشهوات الغـريزية، فلا سلطان لها عليـه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى فلم يتناولهـا؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خـلانه وعشرائه خـدعوه عن نفـسه فى أمرها ليـستكملوا بانضمـامه إليهم لذتهم التى لا تتم إلا بقـراع الكؤوس وضوضاء الاجتـماع، ولو علمت كيف خـدعوه وزينوا له الخروج عن طبـعه ومألوفـه، وأى ذريعة تذرعوا بها إلى ذلك، لتـحققت أنه أبله إلى النهاية من البـلاهة وضعيف إلى الغاية التى ليس وراءها غاية.

---

(١) الكلة: ستر رقيق ذو ثقوب يرفع فوق السرير ليتوقى به من البعوض وغيره.

(٢) جلد.

(٣) يقال: «فعله بعد لأى» أى: بعد مشقة وإبطاء، و«ما» زائدة.

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعنى الأصدقاء وزينوا لى ما زينه الشيطان للإنسان.

قالوا: إن حياتك حياة هموم وأكدار، ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب، وقالوا: إن الشراب يزيد فى رونق الجسم ويبعث نشاطه، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان، وإنه يشجع الجبان يبعث فى القلب الجرأة والإقدام، فوجدت فيه أربع رزايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذى يتركه الشراب وراءه فى الأعضاء. وهو يتغلغل فى الأحشاء، ومن الفصاحة الهذر والهذيان، وهجر[1] القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العربدة التى لا تسكن إلا فى غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التى يُغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هى، فتنعكس فى نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة، والصفع تحية، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين[2].

أى سرور لمن يعيش فى منزل لا يزور الابتسام ثغرًا من ثغور ساكنيه؟ أى سرور لمن يودعه أهله كل يوم فى صباحه بالحسرات، ويستقبلونه فى مسائه بالزفرات؟ أى سعادة لمن يمشى دائمًا فى طريقه ملتويًا متخلجًا[3] يتسرب فى المنعطفات والأزقة، ويعوذ بألواذ[4] الجدر والأسوار فرارًا من نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار.

ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء فى فاتحة حياتى التعسة فكان يمر بخاطر أمثالى من أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسى القصد فيه إن قدر لى فى أمره شىء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ العد، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت

---

(١) الهجر: الفحش.

(٢) الممرور: الذى هاجت مرته، ويطلق على المجنون.

(٣) متشيئًا.

(٤) لوذ الجدار. جانب الجدار. الجمع: ألواذ.

على أمرى كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به، ولولا الكأس الأولى ما هلكت، ولا شكوت الذى شكوت ولولاها ما عافنى الأصدقاء، ولا زهد فىّ الأقرباء، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء.

فعاهدته على ذلك، ثم تركته فى حالة:

تصم السميع وتعمى البصير ... ويسأل من مثلها العافية.

[٩١] خاتمة محزنة لشارب الدخان[١]

قال الشيخ حمود التويجرى -حفظه الله تعالى-: وحدثنى الثقة من إخواننا فى الله تعالى قال: مر بنا مسافر مريض فأقام عندنا أيامًا ثم احتضر فجعلت أوجهه إلى القبلة وكلما وجهته إليها صرف عنها فى الحال، فعلت به ذلك مرارًا وفى آخر الأمر صعب علىّ توجيهه إلى القبلة وجعلت ألوى رأسه بجهدى لأوجهه إليها فلا يتوجه فتركته على حاله وخرجت روحه ووجهه إلى غير القبلة فجعلت أتعجب من شأنه ثم إنى فتشت متاعه فوجدت فيه صرة من تتن[٢] وآلته التى يشرب بها[٣].

وحدثنى أيضًا الثقة المشار إليه عن بعض القضاة فى نواحى القصيم أنه حضر عند رجل قد احتضر وكان ممن يشرب الدخان قال: فجعلت أوجهه إلى القبلة فيصرف عنها حتى خرجت روحه وهو إلى غير القبلة.

وحدثنى بعض المشائخ عن الشيخ محمد بن عبد اللطيف -رحمه الله تعالى- أنه حدثهم أنهم سافروا من مكة إلى المدينة ومعهم رجل من أهل قطر كثير الصلاة وأفعال الخير إلا أنه كان يشرب الدخان قال: فمات فى الطريق فصرف عن القبلة وكلما وجهناه إلى القبلة صرف عنها.

---

(١) «قصص وعبر» «لعبد الله بن يوسف العجلان» (ص ٢٥-٢٧).

(٢) تتن: تبغ.

(٣) أى: هذا الدخان.

وحدثنى شيخ آخر أن رجالاً من أهل البادية حدثوه قال: وكانوا أهل دين وصلاح أنهم سافروا ومعهم رجل يشرب الدخان فمات فدفنوه فى غار قالوا: وكنا نسمع أن شارب الدخان إذا مات يصرف عن القبلة فلما رجعنا من سفرنا ومررنا بالغار نقبناه فوجدنا صاحبنا مصروفًا عن القبلة.

وحدثنى شيخ آخر عن الشيخ عثمان بن بشر وكان قاضيًا فى بعض نواحى القصيم أنه حدثه أن رجلاً مات عندهم وكان كثير الصلاة لا يعاب بشىء إلا أنه كان يشرب الدخان، قال الشيخ عثمان: فنزلت فى قبره ووضعته فى اللحد موجهًا إلى القبلة فلما أخذت اللبنة لأضعها على اللحد إذا هو مصروف عن القبلة ظهره إلى القبلة ووجهه إلى الجهة الأخرى فوجهته إلى القبلة ثم ذهبت لآخذ اللبن فإذا به قد صرف عن القبلة، فوجهته إليها المرة الثالثة فصرف عنها فتركته على حاله مصروفًا عن القبلة.

وحدثنى غير واحد من الثقات عن الشيخ عثمان بن بشر أيضًا أن العاملين على الزكاة مروا بهم ومعهم رجل كثير الصلاة وأفعال الخير إلا أنه كان يشرب الدخان فلما فرغوا من عملهم ومروا بهم إذا الرجل ليس معهم فسألوهم عنه فأخبرهم العاملون أنه مات على بعض المياه وأنهم أخذوا فأسًا من بعض الأعراب فحفروا له قبرًا ودفنوه فلما فرغوا من دفنه وجدوا عود الفأس ولم يجدوا الفأس فقالوا للأعرابى: إنا قد وجدنا عود الفأس ولم نجد الفأس ولاشك أنه قد سقط فى القبر حين وضعنا الميت فيه وطلبوا من الأعرابى أن يأخذ منهم قيمة فأسه فأبى إلا أن يحفروا عن الميت ويأخذوا الفأس من القبر فحفروا القبر فإذا الميت قد جمع رأسه ويداه ورجلاه فى حلقة الفأس.

أ. هـ

قال الشيخ محمد جميل زينو -حفظه الله-: «حدثنى رجل صادق أنه شاهد طبيبًا يشرِّح جثة ميت فلما كشف عن رئتيه طلب من الناس الذين

حوله أن يشاهدوا رئة هذا المدخن التى علاها طبـقة سوداء من القطران وأخذ يسلت بيده الرئة ويـعصرها فيـسيل منها القطـران حتى وصل إلى داخل الرئة فوجدها مـسدودة الثقوب التى يتنفـس بها الإنسان الهواء والتى سـببت موت هذا المدخن الأحمق الذى قتل نفسه بدخـانه، وقد طلب هذا الطبيب من أحد الحاضرين أن يشعل سـيجارة وينفخ على شاشة بيضاء حـتى اصفرت ومازال الطبيب يطلب من المدخن تكرار النـفخ حتى سُدت ثقوب الشاشـة ثم التفت الطبيب إلى الحاضرين قائلاً: إذا كانت هذه السيجارة استطاعت أن تسد ثقوب الشـاشة بدخانـها فكيف بدخـان مئـات السجـائر التى تدخل صـدر المدخن ورئتيه.

وقال أيضًا: حدثنى مهندس زراعى أن شجرة التبغ لا يقربها حيوان ولا طائر لأنهم بغريزتهم يعرفون ضررها[1] أ.هـ.

[٩٢] جـزاء من لا يصلـــــى[2]

يقول الشيخ القحطانى فى محاضرة له: «إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلب بشرتـه إلى السواد، وبعضهم يقبض يده اليمنى، وبعضهم يدخل يده فى فرجه، وبعضهم تشم رائحة الشواء تخرج من فرجه، وبعضهم تسمع كأن أصياخًا من نارٍ أُدخلت فى فرجه.

يقول: ولقـد جىء بميت فلما ابتدأنـا بتغسيـله انقلب لونه كأنه فحـمة سوداء، وكان قبل ذلك أبيض البشرة. فخرجت من مكان التغسيل وأنا خائف فـوجدت رجـلاً واقفًـا فـقلت له: هذا الميت لكم؟ قـال: نعم. قلت: أنت أبوه؟! قـال: نعم. قلت: مـا شـأن هذا الرجل؟ قـال: هذا الرجل كـان لا يصلى. فقلت له: خذ ميتك فغسله.

---

(١) «قصص وعبر» لعبد الله بن يوسف العجلان (ص ٣٠، ٣١).

(٢) «التحذير من سوء الخاتمة، لعبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى» ص(٣٣-٣٤).

[٩٣] الشيخ القحطانى يخرج من القبر فزعًا[١]

قال الشيخ القحطانى: خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر وكنا قد قبرنا رجلاً، وكان الطين عالقًا فى يدى فأردت أن أغسلها إذ جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا فى حدود الخمسين رجلاً: بالله عليك أن تساعدنا فى قبر هذا الرجل فوالله لا نحسن القبر. فسللت الرجل من جهة الرجلين وكان ثقيلاً فأعاننى عليه بعضهم فوضعته فى القبر وطلبت لبنةً[٢] أضعها تحت رأسه وقد حللت الأربطة، فنظرت فإذا برأس هذا الميت قد تحول -عياذًا بالله- من القبلة هكذا -فحول الشيخ رأسه- فقمت برد هذا الميت إلى القبلة، وأخذت اللبنة الثانية ولكنى فى هذه المرة وجدت عينيه قد فتحتا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القانى فداخلنى الخوف والوجل حتى إن رجلىَّ لم تستطعا أن تحملانى داخل القبر، وقد رأى معى اثنان أو ثلاثة هذا المشهد الغريب الخطير، ثم أعطونى اللبنة الثالثة فوجدت أنه تحول فى المرة الثالثة فتركته وهربت من القبر نهائيًا، فقام الذين كانوا معى وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب، ولم يغلقوا اللحد من شدة الخوف، ثم صرت أرى هذا الميت فى المنام سبع أو ثمانى مرات حتى سكن الله قلبى عندما ذهبت إلى العمرة وجلست هناك فى حدود خمسة عشر يومًا حتى نسيت وعدت إلى الرياض.

[٩٤] أطاع والده وعصى ربه

قال أحد الفضلاء: كنا فى رحلة دعوية إلى الأردن، وفى ذات يوم وقد صلينا الجمعة فى أحد مساجد مدينة الزرقاء، وكان معنا بعض طلبة العلم، وعالم من الكويت، وبينما نحن جلوس فى المسجد وقد انصرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعى، وهم يصيحون: أين الشيخ؟ أين الشيخ؟ وجاءوا إلى الشيخ الكويتى فقالوا له: يا شيخ، عندنا شاب توفى

---

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» ص (٣٤-٣٦).

(٢) هى: كما تقول العامة «الطوبة».

صباح هذا اليوم عن طريق حادث مرورى، وإننا عندما حفرنا قبره ووضعناه فيه إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم فى القبر ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف؟

يقول الراوى:

فقام الشيخ وقمنا معه، وذهبنا إلى المقبرة، ونظرنا فى القبر فوجدنا فيه ثعبانًا عظيمًا قد التوى، رأسه من الداخل وذنبه من الخارج، وعينه بارزة، يطالع الناس.

يقول الراوى:

فقال الشيخ: دعوه، واحفروا له مكانًا آخر، يقول: فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتى متر تقريبًا، فحفرناه وبينما نحن فى نهايته إذا بالثعبان يخرج، فقال الشيخ: انظروا القبر الأول، فذهبنا إلى الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا ورابعًا سيخرج الثعبان، فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه.

يقول الراوى:

فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا، وخرج من القبر، وجلس على شفيره، والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناس ذعر وخوف، حتى أن بعضهم حصل له إغماء، فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت.

يقول الراوى: وبينما جىء بالجنازة وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار، ثم دخل من أسفل القبر، فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت، بدأ من رجليه حتى وصل رأسه ثم اشتد عليه فحطمه.

يقول الراوى: إنا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكراث.

يقول الراوى: ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر، وإذا الحال كما هى عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت، وما استطعنا أن نفعل شيئًا.

وقال الشيخ: اردموه، فدفناه، ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال: إنه كان طيبًا مطيعًا إلا أنه كان لا يصلى. نعوذ بالله تعالى من سوء الختام.

[٩٥] صاحب الروائح الكريهة

وها هو أحد الفضلاء يقول: حدثنى أحد الذين يدرسون فى معهد من المعاهد العلمية فى بلادنا يقول: أقسم بالله ثلاثًا وليس لى حاجة أن أكذب إننى كنت مريضًا فى أحد المستشفيات، فأتى بمريض بجانبى فى الغرفة التى كنت مطروحًا فيها على السرير.

يقول: وكان ذلك المريض أصفر اللون فإذا به فى اليوم التالى ينقلب وجهه إلى الحنطى، وفى اليوم الثالث يكون لونه كأمثالنا.

يقول: فقلت: لعله قد بدأ يتحسن.

ولكن للأسف جاء اليوم الرابع فإذا بلونه ينقلب إلى الأسود. وفى اليوم الخامس يشتد سواده أكثر فأكثر. يقول: فارتعدنا وخفنا من هذا الرجل وقد كنت أعرفه قبل ذلك، كان ممن يتخلف عن الصلوات، كان ممن يسافر خارج البلاد، ويتعامل بالمخدرات ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اقتربت منه وبدأت أقرأ عليه القرآن، فإذا به تخرج منه روائح كريهة منتنة -عياذًا بالله- يقول: ولما بدأت أقرأ عليه القرآن شهق شهقة عظيمة، فخفت وابتعدت، فقال لى مريض آخر: واصل القراءة، فقلت: والله لن أقرأ عليه. قال: اذهب إلى فلان فى الغرفة المجاورة، وناده ليقرأ عليه فجاء هذا

الشاب الآخر وبدأ يقرأ عليه. يقول: فشهق شهقة أخرى عظيمة، وما زال يواصل القراءة عليه حتى شهق للمرة الثالثة شهقة مخيفة. ثم طلبوا الطبيب، فجاء، ووضع السماعة على صدره، ثم قال: لقد مات.

نعم، لقد مات وفارق الحياة، وكانت له هذه الخاتمة السيئة، لأنه كان مسيئًا فى جنب الله، غير مراع لحدوده، ومن كان على هذه الحال من الضياع والفساد فحقه أن يختم له بذلك جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

[٩٦] عاقبة الزنا والفجور

● وها هو شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى «بانكوك» للفسق والدعارة، بينما كان فى سكره وغيه ينتظر خليلته - وقد تأخرت عليه- فما هى إلا لحظات حتى أقبلت عليه، فلما رآها خرّ ساجدًا لها تعظيمًا، ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

● وها هم أربعة من الشباب كانوا يعملون فى دائرة واحدة، مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم، فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها، وبينما هم فى ذات يوم جالسين إذ سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها، وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التى حددوها وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون، ومر عليهم أكثر من أسبوع فى تلك البلاد وهم بين زنا وخمور، وفعال لا ترضى الرحمن، بينما هم فى ليلة من الليالى، وفى ساعة متأخرة من الليل، يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجور، نعم بينما هم فى غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشيًا عليه، فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم فى تلك الليلة الحمراء، يقول له: يا أخى قل لا إله إلا الله، فيرد الشاب -عياذًا بالله-: إليك عنى، زدنى كأس الخمر وتعالى يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحالة السيئة، نسأل الله -تعالى- السلامة والعافية.

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبكون، وخرجوا من المرقص تائبين وجهزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده محمولاً فى تابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد -عياذًا بالله-.

[٩٧] ثمرة البعد عن رب العالمين

● وها هو شاب -كان من العابثين- يحكى عنه أنه حصل له حادث مروع فى طريق مكة إلى جدة.

قال الراوى الذى حضر المشهد: فلما رأينا منظر السيارة ومشهدها الخارجى، قلت أنا ومن معى من الأخوة: ننزل، فننظر ما حال هذا الإنسان، وكيف أصبح، فلما اقتربنا من الرجل وجدناه فى النزع الأخير من حياته، ووجدنا مسجل السيارة مفتوحًا على أغانٍ غربية باطلة، يقول: فأغلقنا المسجل، ثم نظرنا إلى الرجل وما يعانيه من سكرات الموت، فقلنا: هذه فرصة لعل الله -عز وجل- أن يجعل على أيدينا فلاح هذا الرجل فى دنياه وآخرته، فأخذنا نقول له: يا هذا، قل: لا إله إلا الله.

أتدرى يا أخى بماذا تكلم فى آخر رمق من حياته؟! ليته ما نطق، لقد قال كلمة رهيبة عظيمة. لقد قال -عياذًا بالله تعالى من ذلك- قال بكلمته العامية: «يلعن دينك ودين دينك، ما بدى أصلى ولا بدى أصوم» ثم مات على هذه الحال. نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

[٩٨] نهاية محمد بن عبد الله القحطانى الذى ادعى أنه المهدى المنتظر[١]

فى صباح يوم الثلاثاء غرة شهر محرم للعام الهجرى (١٤٠٠هـ) المكمل للقرن الرابع عشر. حدث أمر عظيم. ظهرت جماعة من الخوارج وتسللت سرًّا كمصلين وعباد وبحوزتهم أسلحة واحتلت بيت الله الحرام المكى

---

(١) «أدعياء النبوة الكاذبة» (١٩ : ٢٥).

والناس يصلون فيه صلاة الفجر يتزعمهم «جهيمان العتيبى». فقام محمد بن عبد الله القحطانى وادعى لنفسه أنه (المهدى المنتظر) كذبًا وزورًا.

الشياطين تعظ

بعد احتلال بيت الله الحرام من هؤلاء الخوارج وإغلاق أبواب الحرم على المصلين والطائفين بداخله قام جهيمان العتيبى يعظ المصلين ومعه بعض الوعاظ من زمرته يعظون الناس ويحشدون الأحاديث عن المهدى المنتظر ثم طلبوا من الناس داخل الحرم مبايعة مهديهم المزعوم.. كل الأحاديث التى أوردوها فى خطبهم لم توهم الناس ولم يصدقوا هؤلاء الخوارج لعنهم الله.

تهديد المصلين بالموت

قام جهيمان وزمرته بتهديد المصلين بالقوة بمبايعة صاحبهم المهدى. فلجأوا إلى قتل الناس فى الحرم بالرصاص ثم قتلوا حراس الحرم العزل لأن الحكومة لم تجعل قوة فى الحرم لأن بيت الله مفتوح لعبادة الله فيه فى أى زمن كان.

علمت الحكومة السعودية بالحادث

عندما علمت الحكومة بالحادث أمرت القوات المسلحة بتطويق البيت الحرام وعدم إطلاق النار على الخوارج حتى تصدر الأوامر من ولى الأمر جلالة الملك خالد بن عبد العزيز وولى عهده الأمير فهد. ثم أذيع بيانًا من الإذاعة السعودية عن الحادث.

الفتوى الشرعية

المملكة العربية السعودية دستورها القرآن تحكم بما أنزل الله فيه.. عرض الأمر على أصحاب الفضيلة العلماء وطلب منهم إصدار فتوى شرعية عن هؤلاء الجماعة الخوارج الذين قتلوا الناس فى بيت الله الحرام وعطلوا الصلوات فيه.. فصدرت الفتوى من علماء السعودية بجواز قتال هذه الطائفة

الباغـية. وأيدت الفتـوى من علماء وزعمـاء العالم العـربى والإسلامى ومن رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ومن الشعب العربى السعودى.

الجيش يتدخل لتطهير البيت

بعد الفتوى أمر جلالة الملك وولى عهده القوات المسلحة المشتركة بتطهير البيت من البـغاة مع التعليمـات اللازمة عن كيفـية التطهيـر.. والحمد لله تم التطهيـر أولاً بأول بعد قتـال شديد لأن بيت الله الحرام حـصن حصين. وتم تطهير البيت فى زهاء خمسة عشر يومًا.

استسلام جهيمان العتيبى

استسلم جهيمان الطاغيـة ومن بقى من زمرته أحياء. أما المهدى المزعوم فوجدت جثـته متعفنة فى الحرم من رصـاصات أصابته فى مخبـئه وقد تعرف عليه أحد أقاربه.

محاكمة شرعية

تمت محاكمة جـهيمان وزمرته محاكمة شـرعية علنية وتم حكم الإعدام فيه ومن مـعه وعددهم ٦٣ شخصًا قـصاصًا ﴿**ولكم فى القصاص حياة**﴾ ونفذ الإعـدام فيـهم فى مكة المكرمة وفى بـعض مدن المملكة وذلك يوم الأربعـاء الموافق ٢١/٢/١٤٠٠هـ وأفـرج عن ٣٨ من الخوارج لـم تثبت إدانتـهم لأنه غرر بهم.

عدد الشهداء

استشهد فى تطهير الحـرم من القوات المسلحة المشتركة ما يزيد عن ١١٥ شهـيدًا وعدد المصابين من الضـباط وضبـاط صف والجنود ما يزيد عن ٤٦١ مصابًا.

عدد القتلى من الخوارج

حسب الإحصائيات الرسمية من وزارة الداخلية قتل منهم ٧٥ شخصًا.

وبهذا انتهت الفتنة. . وفتح الحرم الشريف أبوابه للمصلين والطائفين. هذا ونسأل الله أن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

[٩٩] عاقبة الظلم وخيمة فاحذره

قال الشيخ سيد العفانى «حفظه الله»:

وهذه قصة واقعية من أيامنا هذه، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام ونشرها محرر «بريد الجمعة» عبد الوهاب مطاوع فى مقاله تحت عنوان «الضوء الأخير!».

دفعنى للكتابة إليك بيتا الشعر اللذان قرأتهما فى ردك على إحدى الرسائل ويقولان:

إنما الدنيا هبات ... وعوار مسترده

شدة بعد رخاء ... ورخاء بعد شده

فأردت أن أروى لك قصتى عسى أن تكون عبرة لغيرى. فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ولابن شاب متزوج ولديه طفلان، وزوجى ضابط عسكرى بالمعاش، ونعيش فى أحد أحياء القاهرة، ومنذ أن بدأت حياتى مع زوجى ونحن نعيش حياة رغدة، وقد استعنت طوال حياتى الزوجية على تربية أولادى بمربيات عديدة، لا أتذكر عددهن من كثرتهن، ولا عجب فى ذلك، فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندى أكثر من شهرين، ثم تفر من قسوة زوجى العدوانى بطبعه، والذى لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته أم أنها وراثية فيه، فقد كان يتفننُ فى تعذيب أى مربية تعمل عندنا، ولا أنكر أنى شاركته فى بعض الأحيان جريمته.

ومنذ خمسة عشر عامًا، وابنتى فى السابعة من عمرها، وابنى فى المرحلة الإعدادية جاءنا مزارع من معارف زوجى، ومن أبناء بلدته، يصطحب

معه ابنته الطفلة ذات الأعوام التسعة، فاستقبله زوجى بكبرياء وترفع. وقال المزارع البسيط: إنه أتى بابنته لتعمل عندنا مقابل عشرين جنيهًا فى الشهر ووافقنا، وترك المزارع المكافح طفلته الشقراء، فانخرطت الطفلة فى البكاء، وهى تمسك بجلباب أبيها، وتستحلفه ألا يتأخر عن زيارتها، وألا ينسى أن يسلم لها على أمها وإخوتها، وانصرف الرجل دامع العينين، وهو يعدها بما طلبت. وبدأت الطفلة حياتها الجديدة معنا، فكانت تستيقظ فى الصباح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاى لتساعدنى فى إعداد طعام الإفطار لهما، ثم تحمل الحقائب المدرسية وتنزل بها إلى الشارع، وتظل واقفة مع ابنتى وابنى حتى يحملهما أتوبيس المدرسة، وتعود للشقة فتتناول طعام إفطارها وكان غالبًا من الفول بدون زيت، وخبز على وشك التعفن، وفى بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن، ثم تبدأ فى ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشراء الخضر والمسح، وتلبية النداءات حتى منتصف الليل، فتسقط على الأرض كالقتيلة وتستغرق فى النوم. وعند أى هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب ينهال عليها زوجى ضربًا بقسوة شديدة، فتتحمل الضرب باكية صابرة، ورغم ذلك فقد كانت طفلة فى منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها، تفرح بأبسط الأشياء، وتغنى غناءً حزينًا خافتًا يعبر عن شوقها لبلدتها وأمها وإخوتها وهى تغسل الأطباق، ورغم اعترافى بأنى كنت شريكة لزوجى فى قسوته على الخادمات، وتفننه فى تعذيبهن، حتى أنه كان أحيانًا يختلق الأسباب لضرب أى خادمة تعمل عندنا، إلا أنه كانت تأخذنى الشفقة فى بعض الأحيان بهذه الفتاة، لطيبتها، وانكسارها وإخلاصها، فأناشد زوجى ألا يضربها، وأقول له: إنها قد كبرت وتعوّدت على طباعنا، وتحملتنا كثيراً فلا داعى للاستمرار فى ضربها، فكان يقول لى مقهقهًا: إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها؛ لأنها قد تعودت عليه، وأن هذا «الصنف» من الناس لا تجدى معه المعاملة الطيبة، واستمرت الفتاة تتحمل العذاب فى صمت وصبر، وأتذكر الآن بأننى حين كان العيد يأتى ويخرج طفلاى مبتهجين مهللين، بينما تبقى هذه الطفلة التى تماثلهما فى

العمر تنظف وتـغسل دون شفقة، وبعـد أن تنتهى من أعمالهـا الشاقة ترتدى فستانًا قديمًا لكنه نظيف، لأنها كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا، فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاسـتلام أجرتها الشهرية، كما لم تر أمها وإخـوتها إلا فى ثلاث مناسبات مـحددة، الأولى حين مات شقيـقها الأكبـر فى حادث عند عودته من الأردن، وكانـت الفتاة المحرومـة تعلق أملاً كبيـرًا على عودته، وتحلم بأن ينتشلها من العذاب الذى تعـانيه عندنا، فإذا به يلقى مصرعه، وتفقد آخـر أمل لها فبكته بحرقة وسرًا حتى لا يراها زوجى، فتلقى عقابًا على يديه.

والمرة الثـانية لم تكن تعطفًـا منا عليـها، وإنما كـانت تخلصًا منهـا فى الحقيقة فقد كانت مريضة بمرض معد، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها.

وكانت المرة الثالثة عند وفاة أبيها بعـد أن دخلت مرحلة الصبا، واستقر الحزن والانكسار فى قلبها.

وأرجو أن تصدقنى يا سيدى، إذ ليس لدى ما يبـرر أن أدعى شيئًا غير صادق، وأنا كـتبت لك بإرادتى، إذا قلت أنى أبكى الآن كلما تذكـرت قسوة عقـابنا لها إذا أخطأت أى خطأ، وكـان لابد أن تخطئ، كأى طـفلة، وكأى إنسان، فقد كان زوجى يصعقها بسلك الكهرباء! وكثيرًا ما حرمناها من وجبة العشـاء فى ليالى البرد القـاسية، فبـاتت على الطوى جائعة. ولا أتذكـر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكى!

وسوف تتسـاءل ولماذا تحـملت كل هذا العذاب ولم تهـرب بجلدها من جحـيمكم؟ وأجيـبك بأن الفتاة حـين قاربت سن الشبـاب خرجت ذات يوم لشراء الخـضروات ولم تعد، فـسأل زوجى البـواب عنها، وعرف أنهـا كانت تتحـدث لفتـرات طويلة مع شاب يعـمل لدى جزار بنفس الشـارع، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفـقت معه على أن يتزوجها وينتـشلها من هذه الحياة،

فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجى قد تكفل بإحضارها من مخبئها، واستقبلناها عند عودتها استقبالاً حافلاً بكل أنواع العذاب، فقام زوجى بصعقها بالكهرباء، وتطوع ابنى بركلها بعنف، بينما بكت ابنتى وهى تقول لأبيها: حرام يا بابا حرام.. حرام.. ففقد سيطرته على نفسه واستدار إليها وضربها هى أيضًا، وكانت المرة الأولى فى حياتها التى يضربها فيها أبوها!.

وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا، واستسلمت لمصيرها، واستمر الوضع كما كان عليه، تخطئ أو تؤجل عمل شىء بعض الوقت، فيضربها زوجى ضربًا مبرحًا، ونخرج فى الإجازات إلى منطقة الأهرامات لنستمتع بشىء من اللحم، ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله.. إلخ ثم شيئًا فشيئًا بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها، وأنها تتعثر كثيراً فى مشيتها، فعرضناها على الطبيب فأكد لنا أن نظرها قد ضعف جدًّا، وأنه ينسحب تدريجيًا، وأنها لا ترى حاليًّا ما تحت قدميها، أى أنها أصبحت شبه كفيفة، ورغم ذلك فلم نرحمها، وظلت تقوم بكل أعمال نظافة المسكن، وتخرج لشراء الخضر كما كانت تفعل، بل وكثيراً ما صفعتها إذا عادت من السوق بخضراوات ليست طازجة وكثيراً ما كانت تفعل لضعف بصرها الشديد، فأشفقت عليها زوجة البواب، فكانت تجلسها فى مدخل العمارة وتذهب هى لشراء الخضروات لها، حتى تنقذها من الإهانة والضرب، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن، ثم خرجت الفتاة ذات يوم من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريبًا، ولم تعد إليه مرة أخرى، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة.

ومضت السنوات فأحيل زوجى للتقاعد، واستقبل حياة الفراغ، وفقد المنصب والنفوذ -أسوأ استقبال فتضاعفت عصبيته وثوراته، وانفلاتاته إلى حد غير محتمل، ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين.

وتخرج ابنى فى الجامعة وعمل، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته، فخطبناها له، وهى فتاة رائعة الجمال، وتزوجها وسعدنا بها واكتملت سعادتنا

حين عرفنا أنها حامل، ثم جاءت اللحظة السعيدة، ووضعت مولودها فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كفيف لا يبصر، وتحولت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم، وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء بلا فائدة، واستسلم ابنى وزوجته للأمر الواقع، وانطفأ الأمل فى قلبيهما، وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين، وقررت زوجة ابنى ألا تحمل مرة أخرى خوفًا من تكرار الكارثة، لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل؛ لأنه لا توجد صلة قرابة بينها وبين زوجها تؤكد العوامل الوراثية، وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها، وشجعناها نحن أيضًا على ذلك على أمل أن يرزق ابننا بطفل طبيعى يخفف من حزنه وصدمته فى طفله الأول. وحملت زوجة ابنى، وأنجبت طفلة جميلة شقراء نزلت إلى الحياة، فتوقفت قلوبنا حتى زف الطبيب البشرى بأنها ترى وتبصر، كالأطفال العاديين، وسعدنا بها سعادة مضاعفة، وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب والملابس والهدايا، وبعد سبعة شهور، لاحظنا عليها أن نظرها مركز فى اتجاه واحد لا تحيد عنه، فعرضناها على أخصائى عيون للاطمئنان على سلامة عينيها، فإذا به يصدمنا بحقيقة أشد هولاً، وهي أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء، وأنها معرضة أيضًا لفقد بصرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ورأى زوجي ذلك، فأصيب بحالة نفسية فسدت معها أيامه، وكره كل شيء، ثم تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية لعلاجه من الاكتئاب، وانقبض قلبى، وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدرى بقسوة، وفى ضيقى وأحزانى تذكرت فجأة الفتاة الكسيرة التى هربت من جحيمنا كفيفة بعد أن أمضت معنا عشر سنوات ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء والضرب والهوان والحرمان، وساءلت نفسى فى جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلنا بها؟

وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة التى أهملنا علاجها وتسببنا فى كف بصرها تطاردنى في وحدتى، وتعلق أملى فى عفو ربى عما جنينا فى أن أجد هذه الفتاة، وأكفر عما فعلنا بها، ورحت أسأل الجميع حتى دلنا أحد الجيران

إلى مكانها، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد، فذهبت إليها وأحضرتها لتعيش معى ما بقى لى من أيامى، ورغم كل قسوة الذكريات فقد فرحت بسؤالى عنها وسعيى إليها لإعادتها، وحفظت العشرة التى لم نحفظها، وعادت معى تتحسس الطريق وأنا أمسك بيدها. وفرحت بسماع صوت ابنتى الشابة التى طالما أحبتها هذه الفتاة الطيبة فى طفولتها وصباها، وبسماع صوت ابنى الذى عرف الهم طريقه إلى قلبه، واستقرت الفتاة معنا، وأصبحت أرعاها بل وأخدمها هى وحفيدى الكفيفين.. وأملى ودعائى لربى أن يغفر لى ما كان، وأن أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم: إن الله حى لا ينام، فلا تقسوا على أحد فسوف يجىء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين، وتندمون على ما فعلتم فى قوتكم وجبروتكم..

هذه هى قصتى يا سيدى التى دفعنى بيتا الشعر اللذان قرأتهما فى ردك لأن أرويها لك، وأرجو أن يقرأها الجميع ويعتبروا بما فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[١٠٠] جزاء من عرّض بالنبى -ﷺ-(١)

قال الشيخ أحمد محمد شاكر فى كتابه «كلمة حق»: «أن الملك فؤاد كان يصلى الجمعة فى عابدين، فأتوا بالشيخ محمد المهدى، لأنه كان رجلاً مفوهًا وكان الملك فؤاد يحب أن يصلى وراءه دائمًا. فعينته وزارة الأوقاف فى مسجد عابدين. فصادف فى هذه الفترة رجوع «طه حسين» بالدكتوراة فى اللغة العربية من فرنسا. وكان الملك فؤاد هو الذى امتنّ عليه وأرسله للدراسة فى فرنسا. فأراد الخطيب محمد المهدى أن يثنى على الملك فؤاد لأنه أكرم الأعمى «طه حسين» فقال: «ما عبس ولا تولى لما جاءه الأعمى». يريد بذلك التعريض بالنبى -ﷺ- حيث قال الله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ

(١) هذه القصة ذكرها الشيخ أبو إسحاق الحوينى فى شريطه «حكم سب النبى -ﷺ-» بتصرف.

الأَعْمَى﴾[1] إذًا فصنيع الملك فؤاد أفضل من صنيع النبى -ﷺ- فى نظر هذا الخطيب الذى باع دينه بثمن بخس دراهم معدودة.

وكان الشيخ محمد شاكر والد الشيخ أحمد شاكر موجودًا حيث أنه كان يعمل وكيلاً للجامع الأزهر. فقام وقال: «أيها الناس صلاتكم باطلة والخطيب كافر، فأعيدوا صلاتكم، فحدث شىء من الهرج والمرج والملك واقف. ثم ذهب إلى قصر عابدين ومعه للملك فتوى يأمره بصلاة الظهر. وكان هذا الرجل (محمد المهدى) له ظهر وله مستشارون، فأقنعوه أن يرفع جنحة رد شرف على الشيخ محمد شاكر.

وأرسل الشيخ محمد شاكر إلى مستشرقين أجانب ممن لهم خبرة بدلالات الألفاظ على المعانى، وأراد أن يستقدمهم ليقول لهم هل استخدام الخطيب لهذه العبارة فيها التعريض بالمقام النبوى الشريف أم لا. ولم يلجأ لعلماء الأزهر حتى لا يقال: انحازوا له. فلما عُلم أن هذه القضية ستحدث فتنة، وأن هذا الخطيب لابد أنه سيخسر هذه القضية نهوه عنها.

فيقول الشيخ محمد شاكر -وأقسم بالله-: لقد رأيت هذا بعينى، طال الزمان بالرجل «محمد المهدى» الذى كان من أشهر خطباء مصر حتى أن الملك فؤاد كان يحرص على الصلاة خلفه، فلقد رأيته: خانعًا ذليلاً فراشًا لأحد المساجد، يتلقى نعال المصلين، فتواريت عنه وهو يعرفنى، وأنا أعرفه حتى لا يرانى، ولست مشفقًا عليه فليس موضعًا بالشفقة.

قلت: فقد عجَّل الله له العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة نعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) سورة عبس: ١، ٢.

فهرست الكتاب

الموضـــــوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــــوع	الصفحة